العلم والتربية

بقلم

خليل زينيه

رئيس تحرير جريدة الاهرام

مطبعة الاهرام — الاسكندرية · سنة ١٨٩٩

اهداء الكتاب

الى مقام الوزير الكبير والمشير الخطير صاحب الدولة

مصطفى رياض باشا

مولاي

الى مقام عليائك اتشرّف برفع هذا الكتاب وفي رياض فضلك وعرفانك ألقي بذار التربية والآداب فانت زعيم نهضة الأدب في مصر وانت انت ملاذ الشبيبة العربيّة في هذا العصر فلابدع اذا حطّت لدى بابك رحالها ولا غرو ان تبني على صخرة علمك الراسخ آمالها بل لا غرو ان يُرفع الى ناديك المؤمَّل هذا الكتاب ولا عجب ان يلقى في حضرتك مقاماً فسيح الرحاب فلقد جاء في كل كلام مشهور ومثل مأثور ان على امثالها تقع الطيور . فاذا لم يُرفع الى ناديك هذا المؤلَّف فالى ايّ نادٍ يُرفع واذا لم يعوَّذ باسمك الكريم فأية تعويذة تنفع وانت اول

السـاعين في بثّ روح الادب والعرفان وفي جنابك الرفيع رُدِّدت وتكرّرت حقيقة لا يختلف فيها اثنان وهي ان الادب والعلم فرقدان متلازمان بل صنوان لا يفترقان فمن نال احدهما دون الآخر فما بلغ المنى ومن عمل على التفريق بينهما فقد أثم وجنى

وهذا الكتاب قد وضعتهُ باسمك الكريم في هذا الموضوع الخطير واهتديت في وضعهِ وتأليفهِ بنبراس رأيك الثاقب المنير فتقبّلهُ مولاي الوزير غير مأمور واقبلهُ بين يديك واشملهُ اعزّك الله بنظرة فانهُ شاخص بنظرهِ اليك ادامك الله ملجأً للآداب ومدّ في بقائك مدى السنين والاحقاب حتى ترى الشرق مرتدياً ثوب العلم والنجاح وترى مصر رافلةً بحلل العزّ والتقدّم والفلاح

ولا برحت عليك مخيّماتٍ سرادق رفعة الشرف المكينِ

خليل زينيّه

المقدمة

بيان وايضاح

لا مراءَ في ان الشعوب كالافراد تصل في حياتها الى ساعات يستولي فيها الاضطراب عليها ويأخذها الجزع فتسير متسكعة لا تبصر ما امامها ولا تدري بما وراءها. وهي ازمان ماؤها محن وآلام تميل فيها الممالك الى الخراب وتخطو فيها الشعوب الخطوات الأُولى نحو الانحطاط فتغلُّ ايدي الرجال. وتقف حركة الرجاء والآمال

حينئذٍ يستولي اليأس على القلوب ويأخذ القنوط بجامع النفوس واعوذ بالله من ذاك اذا اشرع عواملهُ وهذا اذا ألقى رواحلهُ والويل لشعب يكون رأس مالهِ اليأس ومهرهُ القنوط. ولست ادري كيف يقنط امرؤٌ وفيهِ عرق ينبض ولا كيف ييأس شعب وفي عروق ابنائهِ نقطة دمٍ تجري. وقد سمعنا على ممرّ القرون وتواتر الاجيال صوتاً هاتفاً لا تيأسوا من الجنس البشري ولا تقنطوا من مستقبلهِ لانهُ كلما تقادم عهدهُ تجدّد

وهكذا قُل عن كل شعب من الشعوب مهما عظمت مصائبهُ وكثرت محنهُ فان لديه مورداً عذباً يجدّد بارتشاف مائهِ قواهُ ويعيد سابق مجدهِ وعلاه. وان تسل عن هذا المورد اجابتك القرون والاجيال انما هو العلم مع التربية

وقد كنت ذات يوم أُطالع كتاباً لاحد علماء اوروبا وقد غاب عني اسمهُ فوقعت تحت نظري عبارتان من قوله وهما « انني اعتقد بامكان اصلاح الجنس البشري اذا أُصلحت تربية الشبيبة ». وان « تأديب الشبيبة تأديباً حسناً هو عندي بمثابة اساس متين لسعادة الجنس البشري ». فعلق هذان القولان في ذهني ثم مارست التعليم في بعض المدارس الكبرى وأَخذت على عهدتي التعليم الافرادي سنين متوالية حتى خبرت اخلاق الشبان وسبرت غور الآداب في هذه البلاد وسواها من بلاد الشرق فعلمت ان حاجتنا القصوى نحن الشرقيين انما هي ان يقرن ابناؤنا العلم بالادب وحسن التربية فيكون منهم للوطن رجال يعتمد في أُمورهِ عليهم ويرجع في شؤُونهِ واحوالهِ اليهم

ولعمر الحق ان التربية بما تحدثهُ من التأثير على الولد في صغره هي التي توجد الاخلاق البيتيَّة والفضائل الاجتماعية بل هي التي تحدث عجائب الاصلاح والصلاح فيما يتعلق بآداب الدنيا والدين على السواء. وهي التي ترفع الممالك وتحفظ مجدها او تعيد سابق جاهها وعظمتها وتمنعها من السقوط او تقيمها من سقطتها. فالشعب الذي نُحسن تعليمه وتربيتهُ نضمن

حاضرهُ ومستقبله اما الشعب الذي لا علم عنده ولا تربية فلا حاضره للنجاح ولا مستقبله للفلاح

وانظر اذا شئت في صفحات التاريخ قديمه وحديثه ترَ ان هذا الامر انما هو من شرائع الطبيعة ونواميسها التي لا تتجزأ ولا تتغير بل انظر الى بعض الممالك والشعوب التي اندثرت آثارها ودرست معالمها فابعثها من قبورها وانشرها من رموسها وسلها تنبئك بل دُر بنظرك الى بعض الدول المنحطة والأُمم السائرة الى الهاوية واستخبرها تخبرك انهُ اذا اراد الله عقاب شعب والاقتصاص منهُ أَفقدهُ المعلّم والمربي ومتى ذهب العلم وضاعت التربية من بلاد ذلت البلاد وذلَّ اهلها فزلت وهوت. لانهُ اذا ذهب العلم واصبحت التربية مفقودة ضائعة لم يبقَ في البلاد رجال يصح ان يُقال انهم رجال. ورأْس الحاجات لايجاد شعب او لاصلاح أُمة وتجديد شبابها ان يكون ثمت قبل كل شيء رجال جامعون لصفات الرجوليَّة التي تعتز بها الممالك وترتفع الأُمم

بل افتح بحقك فاك وأَطلق لسانك وارفع صوتك منادياً اين الرجال ثم أَنصت للجواب تسمع الارض والسماء تجيبانك ان الرجال الذين تقوم بهم الدول أَو تسقط بفقدانهم لأُمم هم حيث العلم الصحيح والتربية الحقة فان كنت تريد رجلاً حقيقياً فربّهِ تربية حسنة

وان شئت الا ان نضرب لك مثلاً فخذ ولدين من ابٍ واحد وامّ واحدةٍ فعلّم احدهما وهذّبهُ وثقّف عقلهُ وأَنر ذهنهُ وربّهِ التربية الواجبة

التي تؤهل الغلام للرجولية واترك الآخر دون علم ولا تربية ولا ادب يسير مع هوى النفس ويجمح مع شهوات الفؤاد ثم افتقدهما وقد بلغ كلٌّ منهما اشده ترَ الذي علمته وادبته وربيته رجلاً حقيقياً والذي اهملت امره ولداً ولو شاب بل هو الرجل الذي لا شيء من صفات الرجولية عنده فهو رجل غير تامّ انفع منه الغلام وافلح منه ابن الثانية عشرة فتأمل

وقد ذكر السيد ديبانلو الاسقف الفيلسوف الفرنسوي الذي وضع كتاباً في التربية في ثلثة مجلدات ضخمة ان فرنسا لم يخرجها من ذلك العدم وتلك الفوضى الهائلة مما سقطت فيه على اثر حروبها الاهلية في مفتتح القرن السابع عشر غير حسن التربية ولم يُعدّ سبيل عصر النور والعلم فيها وهو عصر الملك لويس الرابع عشر الملقب بالملك الشمس غير حسن التربية الذي جعلته مهراً لشبانها في ذلك العهد

وما ادري اي سببٍ ذهب بي الى الاستشهاد بالأمة الفرنسوية ولديَّ من ابناء الشرق اعظم شاهد وأتمّ برهان فانظر الى ما كان الشرق عليه وما صار اليه . كنا ولا مراء في اسمى قمم الحضارة والتقدم فصرنا ومن ينكر الى ادنى درجات الانحطاط والتقهقر . كان الغرب يأخذ عنا ويخضع لرأينا فصرنا نستمد منه ونرضخ لامره . كان الشرق بلاد العلم والاجتهاد فاصبح في هذه الايام مرسح الجهل والكسل . وانتقلت منه الصناعة والتجارة الى البلاد التي لم يهمل اهلها العلم والتربية

ولربّ سائل يقول وما سبب هذا المصاب فليعلم الشرقي ان علة

تأخره انما هي اهماله العلم والتربية في بادىء الامر ثم جريه وراء العلم دون التربية فيما بعد . في حين ان العلم والتربية صنوان لا يجب ان يفترقا . وانني استأذن القراء في اثبات هذه الحقيقة وتقريرها في الاذهان ببيان ماهية العلم والتربية فأقول

يُراد بالعلم تثقيف العقل وانارة الذهن وبالتربية إحسان استعمال الاخلاق وحسن التعامل فالعلم اذاً سلاح والتربية معرفة استعمال هذا السلاح . ولعمري انه لا يجوز ان تسلّح رجلاً دون ان تدلّه على الكيفية التي يستعمل بها السلاح الذي حملته اياه وهل يمكن ان تعلم امرءاً كيفية استعمال السلاح دون ان تضعه في يده ثم تعلمه كيفية استعماله والوقت الواجب له وبأي حذر يجب ان يستعمله

اذن فالعلم هو التربية والتربية هي العلم بل ان كلاً منهما فرع للآخر لا يتمّ الا به وحجر يسند حجراً لا يقوم احدهما الا بالآخر . فمن كان على علم دون تربية فعلمه ناقص ومن كان حسن التربية تامها ولكنه قليل العلم فتربيته ناقصة وغير ذات جدوى

وليسمح لي قراء هذه الاسطر باتخاذ مصر مثلاً في هذا الموضوع الخطير فان مصر قد تضاعف عدد سكانها منذ عشر سنوات وزاد فيها عدد المتعلمين وكثرت المكاتب والمدارس والمحافل العلمية والادبية والصناعية والزراعية ووصلت الصحافة فيها الى حدٍّ لا يقبل المزيد بحيث لا يكاد يمرّ يوم دون ان تصدر فيه جريدة سياسية او ادبية . ومع

ذلك فاننا نسمع صوتاً يدوي في كل محفل ونادٍ سائلاً عن الرجال دالاً على حاجة البلاد اليهم. وقد اصبح هذا السؤال دائراً على كل شفة ولسان حتى انهُ اصبح سؤال الجميع

اجل اين رجال الوطن الذين يجب ان تستنير مصر بهم وتعتمد على ذراعهم . انهم لعمر الحق كرجل ديوجنوس ولا يجهل احد حكاية هذا الفيلسوف الذي أوقد مصباحه والشمس في رابعة النهار وانطلق في شوارع اثينا باحثاً مفتشاً فلما سُئل عن بغيته قال انني اطلب رجلاً

وههنا موضع السرّ بل ههنا محلُّ الدهشة والذهول. واذا كان في الامر سرٌّ فلا اقلّ من البحث عنهُ والتنقيب عليهِ لاكتشافه وبيان ماهيتهِ .

ومما لاريب فيهِ انهُ متى عرف الداء سهل وجود الدواء فاذا بحثنا عن السرّ في هذهِ الحالة وادركناهُ وكشفنا عنهُ كل ستر وغطاء لم يبقَ مجال للشك في ان الهيئة الاجتماعيَّة في الشرق قابلة للخروج من وهدة الانحطاط التي سقطت فيها والافلات من قيود الجهل التي قيدت نفسها بها

ولعمري انهُ لا يختلف اثنان في ان داءنا الذي ينخر منا العظم ويسير بنا على مهل – ويقول كثيرون انهُ يجري بناسراعا – الى هاوية الانحطاط ولجة الخمول انما هو ما أشرنا اليهِ في صدر هذه المقدمة من نقص التربية عندنا والتفريق بين العلم والادب فلا نتم لشباننا صفة من صفات الرجال حتى تنقصهم صفة بل صفات

وان من تصفح تاريخ الشعوب والدول منذ اول اطوار الحضارة

وأبعد عهد للانسان بالمدنيَّة الى هذا العهد الذي نحن فيهِ تتضح لهُ حقيقة ظاهرة كالنور الذي لا يستتر بالاكف ولا يُطفأُ بالافواه وهي ان كل شعب لم يتخذ العلم سلاحاً والتربية درعا اصبح فريسةً لغيرهِ من الشعوب وظلَّ يئنُّ تحت نير الاستعباد والرق الى ان يقوم فيهِ رجال يتخذون على انفسهم ان يبعثوا العلم من قبرهِ وينشروا التربية من رمسها فتعود الى هذا الشعب روح الحياة . ولذلك نرى الدول الفاتحة والشعوب المستعمرة لا تعمل في البلاد التي تفتحها والاراضي التي تستعمرها إلاَّ على إماتة العلم في صدور الرجال وإفساد التربية بين تلك الأُمم والعناصر ليفقد اهلها صفات الرجل ويصبح قيادهم سهلاً واستعبادهم امرًا هيّنًا

واذا كان من الثابت ان العلم والتربية يحييان البلاد فمن الجرائم التي لا تُغتفر ان يشهد الشرقيون تخريب بيوت العلم والقضاء على التربية في بلادهم غير مكترثين . ولذلك كنا نرجو ان تنتبه الأُمة الى ما يفرضهُ عليها حب الوطن ويقضي بهِ عليها واجب الاحتفاظ بالنفس فتهب وتنهض نهضة واخذة للعمل بما يشير بهِ عليها الناصحون من ابنائها والمخلصون من اصدقائها

بل لذلك رأيت بعد ان عانيت التدريس اعواماً عديدة وشهدت بعينيَّ هيئة التربية والتعليم في الشرق ان اضع هذا الكتاب للبحث والتنقيب عن الطرق التي يجب ان نجري عليها للوصول الى الغاية القصوى من خدمة الوطن وهي ايجاد الرجال الذين هو في حاجة اليهم

واذا قيل والى اي رجال نحن محتاجون قلت اننا قبل كل شيء في حاجة الى رجال العلم والخير والحكمة والعقل والنزاهة والشهامة والامانة والصدق والشرف والشجاعة والمروءة والاقدام. فمتى وُجد في البلاد مثل هؤلاء الرجال قلنا لديوجنس أطفئ مصباحك وان التمست رجلاً فمدَّ يدك وكل من وقعت عليهِ أمسك بهِ فانهُ رجلٌ والسلام

والآن فانني مردفٌ هذه المقدمة بفصل سميتهُ « النداء » استصرخ فيهِ كل ذي حميَّة وطنيَّة وعاطفة قوميَّة الى الأخذ بناصر الوطن وشد ازرهِ ومد يد المساعدة اليهِ وذلك بورود العلم من منهلهِ والدخول الى ساحة التربية من ابوابها ثم انتقل بعد ذلك من الكلام المجمل والملاحظات العامة الى ما هو اخص من ذلك من الكلام على التربية وكيف يجب ان تكون والعلم وكيف يجب ان يؤخذ. والله المسؤول في جعل هذه الخدمة مقبولةً لدى ابناء الوطن العزيز واجدة حظوةً في اعينهم عائدةً على الوطن بالنفع والفائدة وذلك كل المنى وغاية المرام

النداء

سلام ايها الوطن العزيز

يا بني الشرق اين ذاك الضياء — اين تلك النفوس والآلاء
اين ذاك المقام تحسدهُ الشمـ — ـس بهاءً واين ذاك العلاء

اي مصر التي اتخذناكِ من بعد سوريا وطناً نلوي عليهِ. وسوريا الوطن المحبوب الذي نحنُ وان بَعد المزار اليهِ. بل ايها الشرق الذي لا عزيز علينا سواك. ولا حبيب الى قلوبنا العربيَّة الاَّك. اين ايام مفاخرك الباهية. وليالي عزك الصافية. اين ذاك العلاء الباهر. والنجاح الزاهر. اين اقلام الكتبة البلغاء. واصوات الخطباء الفصحاء. وتآليف العلماء. واندية الادباء. اين انوار تلك الحريَّة الساطعة. واشعة الاستقلال اللامعة. بل اين ما عهده فيك اجدادنا من تلك الهمة الشماء. والعزيمة الماضية الغراء. ذهب كل ذلك هباءً منثوراً. واصبح التقدُّم تأخراً والعلم جهلاً والعمران دماراً وبوراً

ولقد صبرنا ايها الشرق حتى لم يعد للصبر موضع. وتجلدنا حتى لم يبقَ في القوس منزع. وتمسكنا باذيال الرجاء فانبتَّ ما كان من حبلهِ

موصولاً . وتعلقنا باهداب كل امل فذهب اليأس بكل ما كان مأمولاً

اجل وخليق بنا نحن الشرقيين ان نرسل البكاء . ونطلق لساننا بالرثاء وان نقف موقف ارميا في بكاء قومهِ وبلادهِ حتى نبكي ونستبكي ان بقيت فينا — نحن الرمم المتحركة — عين تدمع او قلب يشعر . فان ميتنا هو العلم وفقيدنا هو التربية واي شعب ضاع علمه ولم يكن في ذلك ضياعه وايَّة أُمة فقدت تربيتها ولم يكن في ذلك فقدانها

بل خليق بنا نحن الشرقيين ان نقف في موقف الندامة على ما فرط وفات قارعين الصدور من الاسف . باكين على ما كان من الحضارة لدى ذلك السلف . منشدين العلم الذي ذهب . مخاطبين الادب العربي الذي نضب

نحن قومٌ جهلنا قدر المعالي   فاكتسينا الهوان والسخريهْ
ودعونا عليك جهلاً ولكن   قد ندمنا الندامة الكسعيهْ
فأجرنا مما جنيناهُ واذكر   جيرة قد مضت وكانت هنيهْ

يابني الشرق لم يبقَ لنا غير العلم نصيراً ننتصر به ونرجع اليهِ . ولم يبق لنا غير التربية ما نشدُّ بهِ ازرنا ونتكئُ عليه . فليكن العلم رائدنا والتربية محجتنا ولنكثرنَّ المدارس لتعليم الأُمة لغتنا وتهذيب العامة بآدابنا ولا تكوننَّ لنا غير ذلك غاية فانها الغاية السامية التي تشرف بها النفوس . والصفة الشريفة التي يقال فيها لا عطر بعد عروس

وقد وضعت في مفتتح شهر دسمبر من عام ١٨٩٢ مقالة جعلتها نداءً للشبيبة العربيَّة الى مناهل العلم فليسمحنَّ لي قرَّاء هذا الكتاب ان انقل

اليهم شذرات منها فانها عبارات كل يوم بل هي دعوة يجب ان تتلى في كل نادٍ عربي وتنشر في مفتتح كل كتاب عربي

« فاليكم يا بني الشرق نداءً صادراً من صميم الفؤاد ودعوة مفتتحة بهذا السؤال متى نرى اشعة العلم تنير الاذهان فتنقشع ظلمات الجهل عن الاوطان . وما احرانا لدى هذا السؤال بالامل واخلقنا بالرجاء وما اعلق آمالنا بالمستقبل واوثق رجاءنا برجالنا الكرام الذين نرى منهم ادلاء الى المدنيَّة والنجاح يعرفون السبيل فلا يضلون

أَجل وما يمنع الشرق وقد كان مهد العلوم ومأوى الصنائع ومورد الحضارةُ عن سلوك ذلك السبيل والوصول الى قمة النجاح والفخر ... ان المانع الوحيد هو اننا نحن العرب لا نهتم بسياسة انفسنا وتدبير احوالنا بل نلقي مقاليد أُمورنا بين ايدي اقوام غرباء ويالشقاء الشعب الذي لا يعرف ان يسوس نفسه ويستخرج قوته من معادن كده وجهدهِ

أَما الآن وقد تبين قومنا ذلك وعرفوا موضع الداء فقد صار يرجى وجود الدواء ولكن كم من العقبات امامنا وكم من الحاجات يلزمنا لنيل المرام . وأُولى العقبات التي يجب ان نسعى في ازالتها انما هو الجهل المستولي على عقول عامتنا ورأس الحاجات التي لا غنى لنا عنها انما هو العلم فبالعلم صلاح حالنا وبالعلم قوام بلادنا وبالعلم حياتنا كلها

فيا ايها الشبان يا اولاد اليوم ورجال الغد اذا قيل لكم ان الزمن قد فات ولا يرجى لما فات من معاد فلا تصدقوا ان الايام وان تكن مظلمة

صعبة القياد. الا انها تعنو لصاحب العزيمة والمراد

وايها الشبان يا امل الحاضر وعماد المستقبل اذا قيل لكم على العرب السلام فلا تصدقوا فلكل أمةٍ اذا شاءت انتعاش بعد الخمول وحياة بعد الموت والارادة قوة لا ترد. والعزيمة الماضية حسامٌ لا يفلُّ لهُ حدّ

ويا ايها الشبان يا سراج الحاضر ونور الآتي اذا قيل لكم ان مصر لم تعد مصر وان الشرق الذي نحن فيهِ غير ذلك الشرق الذي كان فيهِ اجدادنا فلا تصدقوا وانظروا الى بعض الشعوب الصغيرة من الأُمم المجاورة لنا كيف هبَّت من رقدتها ونشطت من غفلتها فارتقت ونجحت وصارت شعوباً مفلحة في ظلال السعد والرفاه

ويا ايها الشبان وكم ننادي ايها الشبان يا اعين هذا الزمان افتحوا أَبصاركم وانظروا ببصائركم وانتضوا من العزيمة سيفاً مرهفاً وامتطوا من الارادة جواداً كالبرق يقطع ما بينكم وبين الغاية من المفاوز والعقبات

أَوَ لستم العرب الكرا ... مَ ومن هُمُ الشمُّ المعاطس

فلا تخيبوا للوطن بكم املاً ولا تقطعوا للأُمة العربيَّة رجاءً فهي آملة بكم ترجو النصر والفتح على ايديكم»

ذلك ما جرى بهِ اليراع ونطق بهِ اللسان منذ اكثر من ست سنوات وانني لا ازال ارى نفسي في الوقت نفسه الذي كنت فيه بحيث لم اجد بدًّا من مخاطبة الشرق في هذا الكتاب بما خاطبتهُ بهِ منذ ستة اعوام

والآن وقد بكينا على ماضينا ورثينا العلم فقيدنا وندمنا على ما فرط منا

فلننتقلنَّ من طور البكاء والرثاء الى موقف الجد والعمل فنعلمّ ابناءَنا ونربيهم وننشئ المدارس الاهليَّة ونقيم النوادي الادبيَّة وننشر المجلاَّت العلميَّة ونعلي للعلماء شأنهم ونرفع للأُدباء قدرهم ولنتشبهنَّ بالاقوام الذين عمرت بجدّهم بلادهم فان التشبه بالكرام فلاح ولنعلمنَّ ان لا بدَّ للوصول الى الغاية من البدء في سلوك سبيلها والسير في طريقها فلقد قال الشاعر الحكيم كل من سار على الدرب وصل ولا يكوننَّ قائدنا الغفلة والاهمال. وعلى الله الاتكال وبه الفوز والنجاح في كل حال

الفصل الاول

التربية

لست ادري في اي كتاب من كتب الاوروبيين قرأت مرةً لبعضهم عبارة جاءَ فيها « ان الملوك ذاهبون من الدنيا وسوف يخلو العالم منهم ». ولقد تأملت في هذه العبارة وقلّبت هذا القول وانا ناظرٌ الى احوال الشعوب متفحصٌ سير الأُمم فرأيت قول ذلك القائل اكثر انطباقاً على الشعوب منهُ على الملوك

ولا مراءَ في انهُ اذا استمرّت الأُمم على ما هي عليهِ الآن من إنكار المبادئ الادبيّة والتعاليم الدينيّة وبالتالي من فقدان التربية الصحيحة فانها ذاهبة دون شك لتخلي الارض لأُمم أخرى تقوم في الارض مقامها وتوطد فيها أقدامها

ولرب سائلٍ يسأل ما هي التربية فأقول ان التربية امرٌ شريفٌ سامٍ بل هي رأس الشرف وغاية السموّ لانها تفعل في الانسان فعل الحرث وتقليب الارض وريّها وتسميدها في البستان. وكما ان البستان لا تبدو خضرتهُ ولا يحيا نبتهُ إلاّ اذا تناوبتهُ يد البستاني فهكذا الانسان

لا تكمل صفاتهُ ولا تحسن اخلاقهُ ولا يصلح للرجوليّة ما لم تتعاهدهُ التربية منذ نعومة اظفارهِ. وبالجملة ان التربية انما هي صقل اخلاق الولد وقواهُ العقليّة والماديّة ومبادئهِ الادبيّة والدينيّة وتقويتها وإعدادها للعمل واعطاء هذهِ القوى حقها من الاستقلال المعنوي وإقامتها في الموضع الجدير بها وتهيئتها للعمل اللائقة لهُ. ومتى ربي الولد وشبّ على هذهِ الطريقة جعلنا منهُ رجلاً حقيقياً واعددناهُ لخدمة الوطن في العمل الذي تدعوهُ اليهِ اميالهُ الغريزيّة. ذلك هو تعريف التربية وتلك غايتها السامية. وهي ولا مراءَ تؤدي متى اكتملت على الصورة التي تقدّم لنا وصفها الى معرفة الحقوق والواجبات وبالتالي الى الراحة والهناء في هذهِ الحياة الدنيا

ولما كان الخالق قد أشرك الآباءَ والامهات في عملهِ العظيم باعطائهِ الحياة للاولاد بواسطتهم كان رأس فروض الاب والأُم ان لا تُغمض لهما عين ولا يكلّ لهما ذراع في إتمام العمل الخطير الذي انتدبهما اليهِ الخالق وذلك بقيادة الولد الذي اوجداهُ الى مناجح الراحة والسعادة في طريق الحقيقة والفضيلة

وللأَب والأُم في هذا الامر الخطير شركاء يعود عليهم قسم عظيم من التبعة وهم المعلمون والمربيات الذين تنتدبهم الأُسرة لتعليم اولادها او يعهد اليهم الوالدون بتربية ابنائهم. والتعليم إما افرادي وإما اجمالي فاننا إما ان نستدعي المدرّس الى البيت وإما ان نبعث الولد الى المدرسة ليتلقى العلم والادب على مقاعدها. ولكن فروض المدرّس في كلتا الحالتين واحدة وهو المسؤول بعد الوالدين عن مستقبل الولد الصغير

الذي أُودع بين يديهِ ليشبَّ على صفات الرجوليَّة الكاملة

وهذا الولد الصغير الذي نردّد اسمهُ كلما ذكرنا للعلم والتربية اسماً من هو يا ترى ... هو الجنس البشري باجمالهِ وهو الانسانيَّة بل هو الرجل لا اكثر ولا اقل . ويكفي ان اقول ان هذا الولد الصغير هو الرجل ليعلم الذين تلقى اليهم مقاليد تعليمهِ وتربيتهِ ان على إحسانهم العمل يتوقف ان يخرج هذا الغلام رجلاً سعيداً او تعيساً وانهم هم يجعلونهُ نمطاً لصفات الكمال والفضائل او منبعاً للنقائص والرزائل . بل يكفي ان اقول ان هذا الولد الصغير هو الرجل ليعلم الموكول اليهم امرهُ انهُ بتربيتهم اياهُ سيكون العامل العفيف الصادق او اللص المحتال السارق والزوج الصالح والأب البارّ والأخ الشفوق والرفيق الناصح والصديق المخلص او عكس ذلك كله

اذن فالولد الصغير هذا تحقُّ لهُ عناية كل صاحب عناية وسلطة على هذهِ الارض من ابيهِ وأمهِ الى مربيهِ ومعلمهِ ومن جارهِ وصديق آلهِ الى صاحب الامارة والحكم ورجل العلم والدين فإن الامير ورجل الدين وصاحب القضاء والاب والمعلّم والمربي والأُسرة والهيئة الاجتماعيَّة كل ذلك قد وُجد لاجلهِ لان كل ذلك لا يقوم إلاَّ بهِ فلحسن تربيته اذاً فليعمل العاملون

ولقد تكلم السيد ديبانلو الذي كان في حياتهِ اسقف اورليان واحد اعضاء الجمعيَّة العلميَّة الكبرى الفرنسويَّة على التربية في كتاب كبير

الحجم وضعهُ بذلك العنوان فعرَّفها بانها « ان لم تكن ايجاد اخلاق الانسان واستخراجها من العدم فانها في الحقيقة ايقاظ تلك الاخلاق النائمة من سباتها وإطلاقها من عقالها بل هي بثُّ الحياة والحركة وقوة العمل في الوجود الانساني الغير التام » . وبمعنى اوضح ان اخلاق الانسان لا تتم وتصبح قادرة على عمل من الاعمال التي تطلب من الرجال إلاَّ بالتربية وكفى التربية بذلك تعريفاً وتشريفاً . وعلى هذا البناء تكون التربية العقليَّة والادبيَّة والدينيَّة اشرف اعمال الانسان واسماها غايةً وانبلها مقصداً

واذا سأل سائلٌ عن ماهيَّة التربية التي نشير اليها قلنا انها تنحصر في اربعة اوجه وهي الماديُّ والعقليُّ والادبيُّ والدينيُّ

فالماديُّ تقوم بهِ الاجسام وتقوى الابدان . والعقلي يصدر عنهُ تقدُّم العلوم والصنائع والفنون الجميلة . والادبي يكمل كل خلق ويعلم السلوك ومعرفة المعيشة . والديني يرفع النفوس ويهذّبها ويعلمها ما لها وما عليها

بقي في الكلام على التربية ان شريعتها هي شريعة العمل لانهُ ليس على هذهِ الارض مخلوق وُجد لكي لا يعمل عملاً . وانظر الى احقر المخلوقات واصغرها واضعفها ترَها دائبة على العمل كل منها بما تعينهُ عليهِ قواهُ وما تقضي بهِ عليهِ حاجاتهُ الطبيعيَّة . فاذا كان ذلك شأن احقر المخلوقات فما ظنك بالانسان وهو دون المخلوقات طرًّا قد أُوتي الذكاء والفطنة وحريَّة الفعل وقوة العمل . فلا مشاحة اذاً في ان كل كائن هذهِ صفتهُ انما وُجد ليعمل لان في العمل الحياة وفي البطالة الموت والفناء

واذ قد ثبت ذلك وتقرَّر في الاذهان فقد اصبح من قبيل تحصيل الحاصل ان نقول ان اول فروض المربي ورأس واجبات المعلّم ان يوجّها جلَّ عنايتهما الى إدخال الولد في طريق العمل والاجتهاد والإقدام الشخصي ليحملاهُ كما قال السيد ديبانلو على « العمل او التمرُّن البدني » الذي يقوّي الاعصاب والعضلات ويساعد على نموّ الجسم وصلابتهِ وعلى « العمل العقلي » الذي يوجد عندهُ قوة الحاكمة والذوق والرصانة والذاكرة والتصوُّر ثم على « عمل القلب والارادة والضمير » الذي يتمّ الاخلاق ويوجد الاميال العفيفة ويقود الخطى في سبيل النزاهة والفضيلة

الفصل الثاني

التربية وآجالها

رأيت ان اقسم التربية في هذا الكتاب الى ثلثة آجال اصليَّة واجل تتميمي وهو الطور الذي تظهر فيهِ مفاعيل التربية في الآجال الثلثة السابقة ويبدو فيهِ اثرها · اما الآجال الثلثة الاصليَّة فهي

اولاً التربية الوالديَّة · وهو الاجل الذي تتعاهد فيهِ الأُم ولدها وتكتنفهُ بعنايتها منذ ولادتهِ الى نعومة اظفارهِ اي الى السنة السابعة او الثامنة من عمرهِ

وثانياً التربية الاوليَّة · وهو الاجل الذي ينقضي على الولد منذ خروجهِ من بين ذراعيّ أمهِ او مرضعهِ للقيام تحت عناية ابيهِ او بين يدي رجال المكتب الصغيرة التمهيديَّة واصحاب المدارس الابتدائيَّة اي منذ السنة السابعة او الثامنة الى العاشرة او الثانية عشرة

وثالثاً التربية الثانويَّة · وهو الاجل الذي يبدأُ الغلام فيهِ بتلقي العلوم والمعارف في المدارس الكبرى بين ايدي الاساتذة والمؤدبين وذلك منذ السنة العاشرة او الثانية عشرة الى السنة الثامنة عشرة او العشرين

اما الاجل التتميمي الذي تجتنى فيهِ ثمار التربيات الاصليَّة الثلاث وتظهر فيهِ مفاعيلها فانهُ يبدأُ منذ دخول الانسان الى ساحة الهيئة الاجتماعيَّة وولوجه مضمار الاعمال والتعامل مع المجتمع الانساني ولا ينتهي إلاَّ بانتهاء هذهِ الحياة · وسيأْتي الكلام على هذهِ الآجال الاربعة بالتفصيل وكل آتٍ قريب

والذي يتضح مما تقدَّم من الكلام الاجمالي على آجال التربية ان عمل التربية لا يقف عند حدٍّ بل هو يبدأُ مع الانسان ولا ينتهي إلاَّ بانتهاء حياتهِ · والغاية التي يُقصد اليها من التربية انما هي الكمال في الصفات ليكون ذلك ذريعةً الى السعادة والهناء · ولما كان الكمال معدوداً من قبيل المستحيل كان من الواجب ان لا يظن الانسان انهُ بلغ من التربية اقصى غاياتها وأَبعد اشواطها · وكما ان الرجل يولد طفلاً صغيراً ثم ينمو شيئاً فشيئاً جرياً على القواعد الطبيعيَّة فكذلك التربية يجب ان تكون تدريجيَّةً تابعة لسير الطبيعة المادي

ولقد تقدم لنا القول ان التربية تبدأُ مع الانسان ولنأْخذنَّ الآن بتفصيل هذا القول والكلام على آجال التربية باجلى بيان واوضح تبيان

خُذ الولد طفلاً رضيعاً وانظر الى حالتهِ ترَ للتربية الأَوليَّة آثاراً بادية في كل حركة من حركاتهِ وحركات مرضعهِ فان الاجتهاد في إِسكاتهِ وتسكينهِ كل ما استهلَّ بالبكاء وذلك الصبر الجميل والعناية الباهرة في مقاومة اميالهِ ورغائبهِ وتلك الطرائق التي تتبع بالحلم والحنو لردعهِ

عن كل ما يمرُّ بخاطرهِ الصغير الضعيف انما هي كلها أُمور توصف بانها بدء التربية

ثم انظر اليهِ يافعاً قد اتمَّ الدراسة وختم العلوم وهو يسير مع ابيهِ جنباً الى جنب وابوهُ يدلُّهُ على طرق التجارة وذرائع الاكتساب ترَ التربية لا تزال متبعة طريقها سائرة في سبيلها مع هذا الذي تراهُ اليوم وقد طرَّ شارباهُ وكان بالامس رضيعاً بين ذراعي أُمهِ تغني لهُ لينام او تزجرهُ ليسكت

اذن فكل ما يُقال ويُصنع لدى الولد من الكلمة الأُولى التي تهمسها أُمهُ في أُذنهِ بين ابتسامة وقبلة وهو طفل رضيع الى آخر درس يلقيهِ عليهِ الاستاذ وهو يافع يستعد لاطراح ثوب التلمذة والدخول في غمار هذهِ الدنيا وبالاجمال كل ما يجري تحت سقف البيت او بين جدران المدرسة وكل ما يأْتيهِ الأَب والأُم ويصنعهُ المعلّم والمربي وكل ما يؤْمر بهِ وينهى عنهُ يجب ان يُرمى بهِ الى غايةٍ واحدة ويقصد بهِ الى قصد واحد وهو ترقية هذا الولد في سُلَّم التربية لابلاغهِ درجة الكمال

ومن البداهة ان تعاليم التربية على اهميتها وخطارتها يجب ان تكون مطابقة اتم المطابقة لحالة الولد وقواهُ وذكائهِ وفهمهِ بل ولاميالهِ الغريزيَّة القلبيَّة ايضاً · وكما ان الانسان لا يبلغ مبلغ الرجوليَّة إلاَّ بعد ان يقطع الاطوار الطبيعيَّة التي لا يستثنى منها احد وذلك ان الطبيعة تريك الانسان في بادىء امرهِ طفلاً ضعيفاً لا قدرة لهُ على شيء ولا تمييز عندهُ ثم

تأخذ في انمائه بصبر عجيب مجتازة بهِ اطوارًا متقلبة معهُ في شؤون فيترعرع ويدب ثم يقوى فيشب كذلك التربية يجب ان تخرج من طور الى طور وتترقى من شأن الى شأن متبعة في ذلك مجرى الطبيعة نفسها منطبقة على الاجل الذي يكون فيهِ الولد او الغلام الذي تعمل فيهِ عملها وتهمي عليهِ منافعها وحسناتها ولذلك قلنا في صدر هذا الفصل ان للتربية آجالاً وان آجالها الاصلية ثلثة كما مرَّ

على انهُ وان كانت التربية تُشبَّه في جلّ وجوهها ان لم نقل في كلها بالنموّ المادي الطبيعي وتقسم مثله الى آجال واطوار الا انها تختلف عنهُ من وجه جوهري يجب إحلاله في محل الاعتبار وإمعان النظر فيهِ . وهو ان عملها لا يسير دائمًا سيرًا منتظمًا متتابعًا دون انقطاع كما هو شأن الطبيعة في انماء الاجسام فان هذهِ لا يحول دونها حائل ولا تقوم في سبيلها عقبة وامرها كلهُ موقوف على كرور الايام وتعاقب السنين فلا يمنع الطفل من ان يصير غلامًا والغلام ان يصبح يافعًا واليافع شابًا والشاب كهلاً والكهل شيخًا مانع من الموانع إلاَّ ان يستردَّ الله وديعتهُ في خلال هذه الآجال وذلك خارج عن البحث الذي نحن فيهِ . بخلاف التربية فان النفوس لسوء الحظ بعيدة عن ان تنمو نموّ الاجساد . واذا نظرت الى الولد تراهُ ينمو ويكبر في قواه وقامته دون انقطاع الى ان يبلغ اشده ويصل الى الحد الذي يحسب معه الانسان رجلاً تامًا في خلقهِ . اما التربية فكم من العقبات يقوم في سبيلها وكم من الموانع يعتور سيرها ويوقف تقدمها .

وانظر الى ما حولك اذا التمست شاهدًا على صحة هذا القول فقلَّما اذا نظرت لا تقع عيناك على رجالٍ قضى عليهم سوء التربية او فسادها بان يكبروا ويشيخوا ويقضوا ايام الحياة كلها في طفوليَّة لا آخر لها ولا خروج منها والعياذ بالله

ومع ذلك فمن العدل ان نتبع هذا القول بقول آخر لا ينقص عنه اهميَّة ولا يقلُّ عنه صحة وهو انه اذا كان نموُّ الانسان المادي وتقدم قواه الجسديَّة يقفان عادةً عند بلوغهِ سن الحادية والعشرين فان التربية لا حد لها تقف عنده بل هي تستمر في سيرها الى آخر رمق اذا كانت للانسان ارادة حسنة وقوة وشجاعة للاستمرار على السير في طريق الكمال

وذلك انه بعد التربية الثانويَّة التي يخرج الانسان منها في غالب الاحيان غير تام التربية تعرض لنا التربية النهائيَّة التي لا حد لها والتي تقوّم ما اعوجَّ وتصلح ما فسد واختلَّ من عوامل التربية السابقة . ونريد بها التربية التي يستفيدها الانسان بعد خروجهِ من المدرسة العلميَّة ودخوله مدرسة العالم الكبرى العمليَّة حيث الرجال والاشياء والحوادث ومعاكسات الظروف ومصائب الايام وما سوى ذلك مما يلقاه من عوادي الدهر كلها دروس تتم علمه وتصقل تربيته وتكمل اخلاقه فلذلك قلنا ان هذا الاجل انما هو اجل التربية التتميميَّة وانه المدرسة الكبرى الفعليَّة

واني اعتبر هذه التربية الاخيرة تربية واجبة ضروريَّة لكل انسان ولكنني اراها غير ذات منفعة وجدوى الا اذا تقدمتها التربيات الثلاث

الأولى التي سبق الكلام عليها . والا فانها تبقى ناقصة مهما عظمت وضعيفة مهما قويت

وغنيٌ عن البيان انهُ لا بدَّ لكل انسان من دخولهِ مدرسة العالم الكبرى ولكنَّ العبرة ليست في دخول المدرسة والفائدة ليست في سماع كلمات الدرس وانما الحكمة كلها في الاستفادة والانتفاع والعاقل من رأى العبرة في غيرهِ فاعتبر

الفصل الثالث

الولد

اما الآن وقد افضنا في الكلام الاجمالي على التربية العامة وماهيتها واقسامها فنحن آخذون في الكلام على الطرق التي يجب اتباعها للوصول الى غاية التربية السامية . واول ما نبدأ بهِ من هذا القبيل الكلام على الولد لانهُ هو المقصود بالذات من عمل التربية وهو موضوعها الذي تتوجه كل عنايتها اليه

ويجدر بنا قبل كل شيء ان ننظر نظر الفاحص الى هذا الولد ونمعن النظر في كل ما يحواهُ هذا الكائن الصغير الضعيف من العظمة والسمو وما يبسطهُ من الرجاء بنا ويخلقهُ من الآمال لنا وما يلتمسهُ منا من العناية والرعاية والاحترام

ولقد تقدم لنا في عرض مقدمة هذا الكتاب كلام على الولد فليسمح لنا القارئ بان نعود بتطويل الى مثل ذلك الموضوع

الولد وما ادراك ما الولد. هو الرجل بنفسهِ ولكنهُ الرجل المتستر برداء الصغر القائم مستقبلهُ تحت جنح السنين الأولى من سني حياتهِ .

بل هو موضع حنوّ الأُم وحبها وموضوع افتخار الأَب وإعجابه وهو رجاء الأُسرة وامل الهيئة الاجتماعيَّة بل هو الجنس البشري يعيد به ولادتهُ والوطن يدوم به ويجدّد به قوتهُ

الولد كائن صغير محبوب تتقيد القلوب بحبه وتهفو النفوس اليه لما يبدو فيه من البساطة في النفس والسذاجة في الفؤاد والثقة العمياء بمن كان اكبر منهُ والاتكال على كل ساعدٍ زاد بالقوة على ساعده . بل الولد بركة من عند الله ووديعة من السماء فهو النفس الطاهرة التي لم تتلطخ بعد بوصمة الاهواء والاستقامة التامة التي لم يدنّس بياضها الكذب والرياء

بل هو القلب البسيط النقي القابل لمبادئ العلم والتربية والدين كما تلقيها عليه كالارض التي تتعاهدها يد الانسان بالحراثة والزرع والريّ وهي عذراء لم تمتد اليها يد من قبل فانها تنبت اخصب النبات وتعطي اكبر الثمار . بل هو الارض تعطيك ما تزرع فيها وترجع اليك ما عهدت به اليها ان قمحاً فقمحاً وان زواناً فزواناً

لا بل هو الغصن اللدن الرطيب الذي يعوجّ اذا عوَّجتهُ ويستقيم اذا قوَّمتهُ . فلذلك قلنا ان الولد هو الرجل المتستر برداء الطفوليَّة والصغر ولذلك نحن نسترعي الاسماع ونستدعي الابصار الى هذا الرجل وهو في سن الصغر لان الغصون الرطبة اذا قومتها اعتدلت ولا يلين اذا قومته الشجر

وربما اعترض البعض على هذا الكلام بقولهم ان الاولاد الذين اذكرهم انما هم اشبه بالملائك واقرب الى سكان السماء منهم الى الانسان

وبني الارض . ولكن وَهَمَ القائلون واخطأَ المعترضون فانني أُريد بما وصفت كل ولدٍ هادئ الخلق او شرس الطبع على حدٍّ سواء . والولد الذي أُشير اليه انما هو الولد عامةً وهو الذي ذكرهُ السيد المسيح بقوله « دعوا الاولاد يأتون اليَّ ولا تمنعوهم » وهو الذي اشار اليه النبي محمد اذ قال « الاولاد زينة الحياة الدنيا » . فالولد اذاً هو كل ولد دون استثناء ولا تخصيص

وما عدا ذلك فانهُ اي فرق في التربية بين الولد الهادئ المطيع المنطبع على السكينة والوداعة والولد الحادّ الاخلاق الكثير الحركة الشديد المعارضة . وبأي عدل تصرف العناية في تربية ذاك لسهولة انقياده ويُهمل امر هذا الشراسة في اخلاقه . لعمر الحق انهُ ان كان للمربي فضل ففضلهُ في إجادة العمل حيث في العمل صعوبة وتعب

ولقد وصفت الولد في مفتتح هذا الفصل وصفاً ينطبق على كل ولد مهما كانت اخلاقهُ وطبائعهُ لانني اعتبر ان في هذه السن الأُولى شيئاً من السماء حديث الورود لا يزال اهلاً للبركات الربانيَّة والعناية الصمدانيَّة

وغنيٌّ عن البيان ان القلب في سن الصغر يكون منزلاً للطهارة والنقاوة بعيداً عن كل شعور سافل وطبع دنيء . والولد الصغير اذا اتى منكراً فهو لا يأتيه عن علم تام بجسامة العمل لانهُ في سنه لم يكذب بعد عن معرفة وتروٍّ ولم يبغض الحقيقة ويميل الى الرذيلة عن علم وتبصر . بل ان عواطف الصدق والعدل والعفة والامانة حيَّة فيه تدبُّ في نفسه

دبيب الروح في الجسد

ولكن بازاء هذه الصفات السامية الجميلة التي لم تتم فيه بعد ترى نبت الاميال الشريرة والاخلاق الفاسدة الفظة تستعد للنموّ معهُ وقتل العواطف الشريفة في قلبه كما يقتل الزوان القمح في الحقل الذي ينبت فيه . وكما ان الزارع ينقي حقلهُ من الزوان ومن كل نبات غير صالح هكذا يجب على الوالد والمربي ان ينقيا قلب الولد وهو صغير من كل ميل الى الشر وانعطاف نحو الكذب وتعلق بالخداع ورغبة في الكسل

وقد كنت مرةً زائراً فسمعت صاحب المنزل يوصي ولداً لهُ عمرهُ سبعة اعوام بان يقول لفلان اذا جاء يسأل عنهُ انهُ في سفر وانهُ لا يعود قبل اسبوع . فقلت وهل مسافر سيدي لغيبة سبعة ايام قال ولا لسبع دقائق ولكنني احب التخلص مدةً من الرجل . فقلت انك اذا سمحت لي آخذتك على اعطاء مثل غير صالح لبنيك بتعويدك اياهُ على الحيلة والكذب . فقال وهل من بأس اذا قال غير الحقيقة اذا كان ما يقولهُ لا يضرُّ باحدٍ . قلت انك تسمح لهُ الآن « بكذبة بيضاء » كما يسمون هذا النوع من الكذب في اصطلاح المتمدنين فغداً يسمح هو لنفسه بالكذب الحقيقي الذي يضرُّ ويعيب . فضحك الرجل وقال لا خوف من ذلك فسكت غير نادم على ما قلت

وقد كان ذلك منذ ثلثة عشر عاماً والولد الذي أذن لهُ ابوهُ وهو ابن سبع ان يكذب على غير ضرر ولا ضرار قد صار ابن عشرين واصبح

عنوان الكذب والنقيصة في الاسكندريَّة

والسرُّ في ذلك ان الانسان ميّالٌ من طبيعته الى النقائص لانها اسهل إتياناً من الفضائل والكمالات ففي طبع كل مخلوق غريزة تميل به الى الشرّ — والنفس امّارة بالسوء — فاذا كبر الولد ولم يكن لهُ من التربية الأُولى شكيمة تكبح جماح شهواته تأصلت فيه المبادىء الفاسدة وقويت على الاخلاق الجيدة والخلال الحميدة الصالحة

وكل من تعاهد الاخلاق الانسانيَّة في سن الصغر وعني بدرس احوال الجنس البشري في طفوليته يتفق له ان يرى احياناً في ازاء العواطف الصالحة التي ينشرح لها صدر الاب ويسرُّ بها خاطر المربي اميالاً شريرة وشعائر سافلة كالفساد في الاخلاق والتعنت والاصرار والحدة والغضب والحسد والكبرياء والدعوى والكذب والنميمة ونكران الجميل وحب الذات الى غير ذلك مما تزول آثارهُ مع الكبر او ينمو ويتأصل في الفؤاد ويصير ملكة حاكمة على حسب التربية التي يتلقاها الولد ويشب عليها

ويعلم الجميع ان سنَّ الصغر هي السنّ التي ينفتح فيها قلب الانسان للشعور وتنفتح عيناهُ لرؤية بهارج هذه الدنيا وزخارفها الخدَّاعة وهو في هذه السنّ غير ثابت على مبدإٍ بل هو كريشةٍ في مهب الريح كثير الرغائب متقلب الاميال ضعيف الرأي يميل كالغصن مع كل ريح ويسير كالاعمى في كل طريق يُقاد اليها ويسير فيها

ومما يُلاحظ في هذه السن ان الظواهر لا تنبئ دائماً عن حقيقة

الأخلاق بل كثيراً ما تخدع وتغرّ فكم من ولدٍ كثير الطيش حادّ المزاج قاسي المراس في ظاهرهِ تجدهُ متى بلوته جيداً وخبرت بواطن اخلاقهِ غير ما كان يظهر لك . وكم من ولدٍ يظهر لك هادئاً مطيعاً سهل القياد كثير الاجتهاد فاذا مددت اليهِ يد التجربة وجدتهُ غير ما كنت تظن . فمن العبث اذاً ان نبني على ظواهر الولد حكماً عليهِ او نجري في تربيتهِ على ما يبدو لاوّل وهلة من اطوارهِ واخلاقهِ

وحذار ان ندع الغصن الملتوي على التوائهِ والقلب الصغير على فسادهِ لان الغصن ما دام رطباً ليّناً كان سهل التقويم والقلب متى كان صغيراً طاهراً سهل نزع العوامل المفسدة والاميال الشريرة منهُ

الفصل الرابع

الدين والتربية

عمدت قبل ان دفعت كتاب « العلم والتربية » للمطبعة الى نشر بعض فصولهِ في جريدة الاهرام الغراء لارى اي وقع يكون لهذا الموضوع الخطير في البلاد وأقف على افكار الناس وآرائهم فيهِ

والحمد لله على ما اولانيهِ من رضى الخاصة والعامة عن شروعي في وضع هذا الكتاب ومسرّتهم من إقدامي على طرق هذا الباب مما دلّ دلالةً واضحة على ان الشرقيين مدركون ما هم فيهِ من التقصير عارفون بما لحقهم من النقص . ولا يخفى ما ينجم عن مثل هذا الادراك من الفائدة والنفع

على ان سروري برضاهم جاء مشوباً بكدر وغم بل بحزن وألم مما اظهرتهُ الرسائل التي نشرتها في هذا الموضوع من فساد العقيدة الدينيّة عند بعض شبابنا . وعندي ان ضعف هذه العقيدة ناجمٌ عن تأثير التقاليد الاجنبيّة مما نستبدل بهِ غالباً التربية العربيّة الشرقيّة التي تنطبق على حاجتنا انطباقاً تاماً

ولست أُريد بهذا القول انهُ ينبغي لنا ان ننبذ كل خلق من اخلاق الاجانب ونطرح ظهرياً كل آدابهم وعاداتهم بدعوى انها اجنبيَّة عنا منافية لتقاليدنا وآدابنا . كلاً وانما أُريد بذلك القول اننا نحن الشرقيين قد طُبعنا على ما يظهر على حب التقليد ثم جاءَ عصر التربية الاوروبيَّة في بلادنا فتهافتنا عليها وغالينا في تطلبها حتى اصبحنا ننظر شذراً الى كل عادة شرقيَّة مهما كانت حميدة ونعتنق كل مذهب اوروبي ولو كان فاسداً .

ولما كانت الاخلاق القبيحة والعادات السيئة اسهل اقتباساً من الطبائع الصالحة والسيرة المحمودة لان في الامر الاول اطلاقاً لعنان الرذيلة وفي الثاني قسراً للهوى وتقيُّداً في اسر الفضيلة رأَينا كل مشكور من عادات الافرنج مقصياً مغضوباً عليهِ وكل منكر من اخلاقهم مقرباً مترضى عنهُ

وعلى هذا القياس تهافتنا على تقليدهم واتباع خططهم في إنكار بعض العقائد الدينيَّة والجهر على رؤُوس الاشهاد بان الدين ينافي العلم وينقضه وان التربية الدينيَّة تقيد عقل الانسان بقيد يمنعه من الانطلاق في طريق العلوم السامية والجري في مضمار الحضارة العصريَّة وبالتالي انها توقف تيار التقدم وتحول دون مجرى النجاح

ولو اصبنا لما تركنا مجالاً للسيّء المنكر من عادات الافرنج وتقاليدهم ان يشوب صفاءَ تربيتنا بكدورتهِ ويستولي على عقول ابنائنا بفسادهِ .

بل كنا رفعنا عن البلاد مضار فساد العقيدة الدينيَّة مما يؤَدي طبعاً الى فساد التربية ويحمل على استصغار زلات وجرائم لا يمنع من استصغارها

شرف النفس والانفة الذاتيَّة كما يدَّعي بعضهم

ولقد حدا بي الى وضع هذا الفصل في هذا الموضع من كتاب العلم والتربية رسالة وردتني على اثر نشر الفصول التي سبقت لي الاشارة اليها في جريدة الاهرام . وقد جاءَتني تلك الرسالة من احد شبان القاهرة ممن تجمع بينهم وبيني صلة الصداقة والادب وهي

« ايها الصديق العزيز – عليك سلام الله واليك شوق هذا الاخ الذي حرمتهُ الايام الخ . وبعد فقد قرأْت لك في صدر الاهرام ثلثة فصول من كتاب « العلم والتربية » ففرحت بإقدامك على وضع هذا الكتاب لشدة حاجة البلاد اليه ولما اعلمهُ فيك من الخبرة في هذا الموضوع . ومع ذلك فلست بكاتمٍ عنك ما حاق بي من الاستغراب اذ رأَيت كلمة « الدين » تتردَّد بكثرة بين تلك السطور . فانك لما تكلمت في الفصل الاول عن نهضة الشعوب قلت التربية السامية والعلم الصحيح و « قواعد الدين » الحقيقيَّة ولما قمت تنادي بوجوب انشاء المدارس الاهليَّة لتعليم الشعب عدت الى ذكر « قواعد الدين » ثمَّ اردفت هذا الفصل الثاني بفصل ثالث في تعليم المرأَة واردفت ذلك القول بقول مثله فاي دخل للدين مع العلم واية رابطة بين الدين والتربية . وغير خافٍ على فطنتك وذكائك ان العلم لا علاقة لهُ بالدين بل ان احدهما ينفي الآخر . وان تشأْ شاهداً فانظر الى فرنسا بلاد العلم والتربية ووطن الحضارة والمدنيَّة فان مدارسها ممنوع ذكر الدين فيها حتى ان بعض المدارس قد

استبدلت اسم الجلالة بلفظة الوطن · ولم يمنع ذلك هذا الشعب العظيم من ان يسبق كل شعب جاراهُ في حلبة العلم ومضمار المدنيَّة · فليس اذاً من الواجب عليك انت الذي نعدُّك في مقدمة الكتاب الشرقيين القائمين بالدعوة الى العلم ان نقرن العلم بالدين في كل كتابة لك ترسلها دعوةً الى النظر في مستقبل البلاد لئلا يصدق فينا قول اوروبا اننا لا نخرج من دائرة التعصب ولا نفلت من قيد التقاليد المذهبيَّة كالسمك اذا خرج من الماء ادركته الوفاة ... وانني لارجو ان يقع هذا الكلام لديك في موقع الرضى والاستحسان لانني لست بخافٍ عليك ان هذا الرأي ليس رأياً شخصياً لي خاصاً بي بل هو رأي كثيرين من اصدقائنا النبهاء الذين سرَّهم ما سرَّني من كتابتك وساءهم ما ساءني منها فانظر في الامر ورأيك الموفق ان شاء الله »

وردتني تلك الرسالة وكان خبر مقتل الامبراطورة اليصابات امبراطورة النمسا وملكة المجر قد ملأ كل صقع وقطر وللناس في الفوضى واسبابها كل رأي وحديث فكتبت في الحال الى صديقي اقول

« لست ادري أأشكرك على ظنك بي الكفاءة للاقدام على وضع كتاب « العلم والتربية » أم ألومك على نصحك لي بعدم ذكر الدين فيما يجب ان يشبَّ عليهِ ابناؤنا . اما ثناؤك فمردود اليك لانك انما تنظر الى كل ما اكتب بعين الصديق · واما نصحك فمستغرب عندي لانك في مقدمة الناظرين الى شقاء الدنيا منذ ضربت هذه الحضارة الجديدة اطنابها

ونشرت هذه الحريَّة الحديثة لواءها · وقد بحثت عن السبب الذي من اجلهِ نرى الشعوب تشقى والفساد يعم والفوضى تنتشر — فالابن يسرق اباهُ والاب يقتل ابنهُ والام تبيع ابنتها والشقي اللئيم يقتل ملكتهُ — فلم اجد لكل ذلك سبباً غير وهن العقيدة الدينيَّة وضعفها بل زوالها عند بعض الشعوب والأُمم واستبدال اسم الله تعالى بلفظة الوطن · وعندي انك مخطئ في قولك ان بين العلم والدين مناقضة فان الدين لا ينفي العلم ولا العلم يناقض الدين والتربية لاتكون تامة نافعة إلاَّ بالعلم والدين الحقيقيين الصحيحين

ومع ذلك فانني لم اقل إلاَّ التربية ولم اتعرَّض للعلم لان البحث في مطابقة العلم للدين ليس من موضوع هذا الكتاب الذي اقصد فيه الى الدلالة على اتمّ طرق التربية واحسن وسائلها للوصول الى غايتها السامية وهي سعادة الشعب ورفاه عيشهِ وتقدُّمهِ وعلوُّ مكانتهِ

والتربية الدينيَّة الصحيحة واجبة فيما أَراهُ قبل كل تربية لاسباب خطيرة جمة اعدُّ منها ولا اعددها · فان الانسان وُجد ليكون سعيداً ويساعد قريبهُ على نيل السعادة والراحة · وأُريد بالقريب كل انسان لان الناس في عرفي واعتقادي عيلة واحدة وابناء أُسرة واحدة مهما اختلفت مذاهبهم والوانهم · والسعادة كما لا يجهل احدٌ لا تنال الاَّ بوقوف الانسان عند حد ما لهُ وما عليه والدين افضل ما يعلّم المرء ما يجب عليهِ وما يحق له

واننا قد وجدنا القاعدة السامية القائلة « افعل بالناس ما تريد ان يفعله الناس بك » بين التعاليم الدينيَّة فحق لنا ان نطالب الوالدين والمربين بان يصرفوا جلَّ عنايتهم الى غرس المبادئ الدينيَّة الصحيحة في صدور ابنائنا ليشبُّوا على احترام ما يجب احترامهُ واجتناب ما يجب الابتعاد عنه

وان الاعتصام بحبل الدين هو الذي يدل المرءَ على فروضهِ نحو أَبيهِ وأُمهِ واخيهِ وشقيقتهِ ويعرفهُ ما يطلب منهُ من الواجبات نحو نفسهِ ونحو الهيئة الاجتماعيَّة ويعلمهُ الرضوخ للشرائع والقوانين وتهيُّب الحكومة واحترام الشيخوخة وعدم الإضرار بالناس وبنفسهِ لان نفسهُ ليست ملكاً لهُ بل هي قبل كل شيءٍ لله ثم لأُسرتهِ ثم للوطن ثم للانسانيَّة باجمالها

ولعمري انني استجهل أُمةً مهما بلغت من غايات العلم والمدنيَّة والحضارة اذا كانت تستبدل في مدارس شبانها كلمة الله بلفظة الوطن وحدها لانها تعدُّ بذلك سبيل انحطاطها وتشحذ بيدها سلاح انتحارها فان فساد العقيدة الدينيَّة في الشعب من اعظم وسائل السقوط ولا مراءَ

أَجل ولا مراءَ في ذلك ولست بمستشهد على صحة هذا القول بدولٍ مضت وانقضت وامم ٍزالت وانقرضت ولا بشعوب غريبة عنا بل استلفت نظرك الى العرب انفسهم كيف كانت دولتهم شامخة وملكهم ضخماً ايام لم يكن فيهم من يهزأ بالدين وتعاليمهِ فلم يكن فيهم من لعب الفساد باخلاقه. ولست انت نفسك بمنكر أَن احترام العقائد الدينيَّة والجري على السنن

الشريفة يقي الاخلاق من الفساد فاذا كنت تقرُّ وتعترف بذلك فانتَ مقرٌّ ايضاً ومعترفٌ بان تربية الأُمة على قواعد الدين الصحيحة تقيها غوائل السقوط لان فساد الاخلاق – ولا يختلف في ذلك اثنان – طريق السقوط والانحطاط

وانظر يا اخي الى القائمين بالدعوة الى الفوضى الناشرين لواءَ العدميَّة فانك لا تجد فيهم من يعتقد بالله ويحترم ديناً او مذهباً بل تجد بينهم كل قاتل اثيم ولص محتال وكاذب منافق وغادر لئيم

وابحث عن كل منتحر تجد انهُ كان فاسد العقيدة الدينيَّة كافراً بالله ورسله وانبيائهِ. بل انظر في خونة الاوطان انفسهم تجدهم في الحقيقة ممن لا دين لهم لان من لا دين لهُ لا وطن لهُ

وقُل لي بحق ما انت فيهِ من الشباب ورغد العيش كيف تحتمل المرض والفقر اذا لا سمح الله انقلبت بك الايام ودار بك دولاب الدهر فعكس ما انت فيهِ من الصحة واليسر وكنت قد شببت على الهزء بالقواعد الدينيَّة. وكيف ترضى بما صرت اليهِ بدلاً مما كنت فيهِ وانت لا تعرف الخضوع لتقادير الايام المسخرة بارادة من الله

بل كيف تجرّد امرءًا من الدين وتطلب منهُ اذا ضاقت حالهُ ان يكون عفيفاً صادقاً طاهر اليد نقي الذمة قانعاً بما هو فيهِ راضياً بما قُسم لهُ. وكيف تجرّد امرأَة من الدين وتطالبها بان تعفَّ عن كل حرام وتتنزَّه عن كل منكر وان لا تهتم لغير تدبير منزلك وتربية اولادك

تلك اسئلة لا جواب عليها بغير السكوت فالصمت في بعض الاحيان
افصح جواب · ولعمري ان الدين اعظم سلوى للجنس البشري في ساعات
ضنكه ورزاياه وليالي ضيقه وبلاياه فلا نعملنَّ اذاً على زيادة شقائه
بحرمانه هذه التعزية العظمى والتسلية السامية

ولست أريد بذلك كله انه ينبغي لنا ان نربي اولادنا تربية دينيةً
محضة تحملهم على التشبث باذيال التعصب الذميم الذي كان له في الشرق
اقبح اثر حتى انه كان من جملة اسباب تقهقره وانحطاطه · ولا أريد
القول بانه يجب علينا ان نعلّم ابناءنا كره كل دين غير ديننا وبغض كل
رجل من غير مذهبنا · كلاَّ فلو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدة وانما
لكلٍّ دينه والناس اخوان مهما اختلفت مذاهبهم والاديان مجمعة كلها
على تعاليم حب الغريب واحترام ماله من كل جنس ونوع

فيا ايها المسلم كن مسلماً حقيقياً يأتمر بالقرآن الشريف فاذا كنته
فانك لاتبغض المسيحي ولا تكره الاسرائيلي

ويا ايها المسيحي اعمل بوصايا انجيلك الطاهر فاذا عملت فانك لا تضر
اسرائيلياً ولا تؤذي مسلماً

ويا ايها الاسرائيلي سر على ما رسمته لك التوراة فاذا سرت على
هذا الناموس الكريم فانك لا تقهر مسلماً ولا تناصب مسيحياً

ويا ايها الشرقيون عامةً أرضعوا ابناءكم مبادئ الدين الصحيحة
وتعاليمه الحقة منزّهة عن الخرافات التي يمجها العقل مجرّدة عن البدع

التي ما انزل الله بها من سلطان وانزعوا من قلوبهم عاطفة التعصب الذميم
الذي يوجده الجهل وعدم فهم تعاليم الدين على حقيقتها ليحل الوفاق
والائتلاف في محل الخلاف والتنافر اللذين نحن فيهما وانا الكفيل بانقلاب
وجه التربية التي نتلقاها وبالتالي بتغيير الخطة التي نتبعها · انا الكفيل لكم
متى ارضعتم ابناءكم لبان التربية على حقيقة وجوهها المادي والادبي والعقلي
والديني ان الشرق يعود الى ما كان فيه من التقدم الباهر والنجاح الزاهر
فيصبح والغرب صنوين في العظمة والجاه فرقدين في القوة والغنى وليس
ذلك على الله بمستنكر

الفصل الخامس

التربية في البيت

قال سليمان الحكيم من احب ابنهُ ادبهُ ادباً شديداً . ولقد رأيت ان افتتح هذا الفصل بقول الحكيم لتكون كلماته عبرةً ومثالاً لقومٍ رزقهم الله اولاداً وائتمنهم عليهم ليكبروا في ظل عنايتهم حتى اذا جاء اليوم الذي يحتاج فيهِ الوطن الى رجالهِ يردون تلك الامانة الصغيرة مكبرة مضاعفة . ولكنك بدلاً من ذلك تراهم يقومون بالامر على عكس ما يجب ان يقوموا بهِ فاذا طالبهم الوطن بوديعة الله عندهم اتحفوهُ بعقول الصبيان الصغار في اجسام الرجال الكبار وقالوا هؤلاء ياوطن ابناؤك

ولقد تقدم لنا القول في احد الفصول السابقة ان التربية تبدأ مع الانسان منذ ولادته طفلاً رضيعاً ونحن لم نأتِ بتلك الكلمات على سبيل المجاز بل هي حقيقة لا مراء فيها ولا خلاف فان القابلة عند ما تستقبل الولد وهو يستهلُّ بالبكاء فتلفهُ في قماطهِ فانما هي تبدأ معهُ فعل التربية العظيم

ولقد سمعت مرةً احدى الامهات تقول عن ابنتها وقد جاوزت السنتين « انني ادعها الآن تفعل ما تشاء فمتى كبرت ربيتها » هكذا بالحرف الواحد

فمتى تبدئين بتربيتها ايتها الأُم

اذا تُرك الولد وهو في طفوليتهِ يفعل كل ما يمرُّ بخاطرهِ الضعيف فانهُ يصبح من الصعب ان تجعلهُ اذا كبر يفعل ما تريدهُ انت ايها الاب فيصبح قيامك بالواجب الذي تفرضهُ عليك الطبيعة من اصعب الأُمور واعسرها لان فعل التربية يستوجب امرين اولهما السلطة والثاني الانقياد والخضوع . فالسلطة صفة يجب ان تكون للاب والمربي والانقياد امرٌ يجب ان يكون من صفات الاولاد ومتى ضاع احد هذين الشرطين يفقد الآخر بضياعهِ لان الاب اذا لم يكن ذا سلطة على الولد لم يكن الولد ذا خضوع وانقياد لهُ وذلك امرٌ طبيعي لا يحتاج الى إثبات

ومع ذلك فان شئت شاهداً على صحة هذا المبدإ فانني أُورد لك حادثاً من الف مما يجري في كل يوم بل في كل ساعة في اكثر منازل الشرقيين ومنتزهاتهم

بل لست بموردٍ على ذلك شاهداً لكنني اسأل الآباء والامهات هل تركوا اولادهم يفعلون مرةً ما يشاؤُن جرياً مع هوى النفس ولم يضطرهم ذلك الى تكديرهم مراراً لتقويم العوج الذي احدثهُ ذلك التراخي لمرة واحدة

ولنعد الآن الى ما كنا في صددهِ من الكلام على شرطي التربية الاولين ونريد بهما السلطان بالاضافة الى الوالدين والمربين والطاعة بالإضافة الى الاولاد فنقول انهُ لا بد لإحسان التربية والإجادة فيها من وجود هذين الشرطين على ان تأثيرهما لا يكون مفيداً نافعاً إلاَّ اذا

كان سلطان الاب والمربي مقترناً بالحلم والرفق مع الحزم والتدبر بحيث لا تكون هذه السلطة ممتزجة بالعنف والاستبداد والقسوة والظلم ولا بالتراخي والإِهمال والتسامح من كل وجه . وان تكون الطاعة التي تقود الولد الى القيام بما يشير بهِ الاب والمربي ناجمة عن الثقة بهما والاحترام لهما والاعتقاد بحسن نيتهما في ما يأمران بهِ لا عن رهبة وخوف من عقابهما

وغنيٌّ عن البيان ان شدة التراخي تفعل فعل الظلم الشديد نفسهِ فلذلك كان من الواجب ان تتبع في التربية خطة التوسط بين الشدة واللين والقسوة والرفق وخير الأُمور اوسطها

ويتفق كثيراً ان سعادة الرجل تذهب ادراج الرياح لفساد تربيتهِ الأُولى بين يدي أَبيهِ وأُمهِ اما لشدة ما يقسوان عليهِ بحيث يصبحان متهمين في عينيهِ في كل رأْي لهما فيهِ فلا يطيع إِلاَّ عن خوف واذا ادارا ظهريهما عمل بعكس اشارتهما واما لكثرة ما يتراخيان معهُ فينمو ويدب ويكبر ويشب على هوى نفسهِ وصبوة خاطرهِ

وقد حكى احد المحدثين السابقين عن جارين لكل منهما ولدٌ في سن الآخر فكان ابو الاول مشدداً في تربيتهِ الى حدّ العنف والقسوة فلا ينهاهُ إِلاَّ زجراً ولا يخاطبهُ إِلاَّ أَمراً ولا يبش في وجههِ مرَّةً ولا يسمح لهُ باقل شيءٍ يلتمسهُ فاذا طلب منعهُ واذا امتنع اعطاهُ بالرغم عنهُ . وكان والد الثاني متناهياً في التراخي مع ابنهِ بحيث كان هو الآمر الناهي النافذ الكلمة المطاع الاشارة واذا قال هاتوا القمر قام ابوهُ يفتش على سُلَّمٍ

طويلة ليصعد الى القمر فينزلهُ

فلما كبر الولدان لم يكن احدهما يفضل الآخر بشيءٍ بل كانا صنوين في فساد الاخلاق وفرسي رهان في مضمار المنكرات وسببَ غمٍ دائم لوالديهما لان الابن الجاهل كما قال سليمان الحكيم غيظٌ لابيهِ ووجعٌ للتي ولدتهُ وكان سقوطهما الادبي متساوياً في حين انهُ كان ناجماً عن سببين مختلفين ولا بدع فكل ما جاوز حده جاور ضده

واول ما يجب ان يعنى بهِ في تربية الولد اتباع طرق ثلاث لا بدَّ منها ولا مندوحة عنها وهي العناية بتربيةٌ بدنهِ بحسب القوانين الصحيةّ لان العقل السليم في الجسم السليم على ما هو مشتهر ومعروف . ثم ارهاف ذهنه وترقيقهِ بحيث يصبح معداً لان ينفذهُ نور المعرفة والفهم . ثم تسديد خطواته في الصراط المستقيم حتى لا تتسلط عليهِ الشهوات ولا تقبض الاهواء النفسانيةّ على زمامهِ

ومتى سار الاب والام في تربية ابنائهم وبناتهم على هذه الطرق الثلاث فانهم لجديرون بان يروا اولادهم يشبون على ما يجب ان يشبوا عليه ليحوزوا كل صفات الكمال فيما بعد . لان سلامة الجسم وقوته وإِنارة الذهن وتنبيهه واستقامة السيرة وصلاحها كل ذلك اذا أُحسن صنعهُ منذ الصغر يؤهل الغلام والفتاة لاسمى الصفات واكمل الاخلاق واتمّ الخصال واجمل الخلال

ويرى القراء اننا نكثر في هذا الفصل من ذكر الاخلاق والخصال

ونحن انما نعني بذلك ما كان من الصفات والاخلاق مغروزاً في الفطرة كامناً فيها كمون النار في احجارها. وهي تنقسم الى قسمين منها البدنيَّة ومنها الذهنيَّة وكلاهما خليق بالعناية والتدبر . لان إِرهاف الذهن امر واجب في تربية الاولاد بقدر ما يجب ان يُعنى في تقوية اجسامهم وإِنمائها . وكما ان الاب يصرف جل عنايتهِ الى تقوية بدن ولدهِ وحمايتهِ من كل طارئ يؤثر على صحتهِ كذلك يجب عليهِ ان يعمل لإِرهاف ذهنهِ وشحذهِ وإِسقاط برقع الجهل والغواية عن عينيهِ . لان سلامة الجسم وحدهُ لا تكفي لجعل الانسان رجلاً بل يجب ان تكون قوة العضل مقرونة بقوة العقل وهكذا قُل عن قوة العقل فانها لا تكفي لذلك وحدها اذ اية فائدة ترجى من كبير الجسم قويّ البدن اذا كان ضعيف العقل سخيف الرأي واية فائدة تنتظر من حادّ الذهن راجح العقل اذا كان هزيلاً عليلاً لا يملك قوة ولا صحة

اذن فالعناية في كلٍّ من البدن والذهن واجبة على قياسٍ واحد ويخطئ الذين يهملون احدهما للعناية بالآخر على زعم انهم متى اصلحوهُ انقلبوا الى العناية باخيهِ . ولعمر الحق ان تقوية البدن مع إِهمال الذهن وبالعكس اي تقوية الذهن مع اهمال البدن تمهيد لسُبل التعاسة والشقاء فليتدبر الوالدون والمربون هذا الامر ولينظروا اليهِ بعين البصيرة والإِمعان

وكثيراً ما مزجنا في هذا الفصل بين اسماء الأَب والأُم والابن

والبنت والمعلّم والمربية ونحن لم نردف هذه الالفاظ بعضها ببعض عن عبث ولغير قصد وانما قصدنا بها الى بيان حقيقة لا خلاف فيها وهي ان الوالدين والمعلّمين سواءٌ في مطالبة الهيئة الاجتماعيَّة لهم فيما يختص بكل منهم من اعمال التربية وان الابن والبنت لكل منهما حق يعدل حق الآخر في التربية دون فرقٍ بينهما ولا تمييز

ولسنا نريد بهذا القول ان الفتاة يجب ان تربى تربية الغلام نفسها كلاَّ فان ذلك من شأنهِ ان يؤدي الى نتيجة لا تكون محمودةً في الشرق ولا هي مما يُرغب فيهِ عندنا . والنتيجة التي نشير اليها هي تأنيث الذكور وتذكير الاناث ولا يخفى ما في ذلك من الضرر على الهيئة الاجتماعيَّة وما فيهِ من دواعي التأثير على حالة العمران والتقدُّم الشعبي

ولا يجهل احدٌ ان العمران لا تقوم لهُ قائمة إِلاَّ اذا كان الرجل رجلاً حقيقياً قادراً على القيام بإِدارة الشؤون التي تُطلب منهُ حق قيام وكانت المرأَة امرأَةً تامة عارفة بحقيقة واجباتها البيتيَّة قادرة على تدبير منزلها وتربية اولادها . لانهُ اذا كان الرجل مطالباً بأُمور كثيرة اخصها القيام بالاعمال المؤدية الى ايجاد المواد الكافلة بحاجات العيلة فهكذا المرأَة مطالبة بواجبات عظيمة نحو رجلها واولادها والشؤون المنزليَّة عامة

ولرب معترضٍ يقول ان هذهِ الاقوال لا تنطبق على موضوع هذا الفصل الذي مدار البحث فيهِ على التربية في البيت وبالتالي على تربية الصغار منذ الولادة فالفطام الى نحو السنة الثامنة من عمرهم فعلى مثل هذا

الاعتراض نردُّ بان التربية تبدأُ مع المهد وان الرجل لايكون رجلاً حقيقياً والمرأة لا تكون امرأة تؤتمن على المنزل والاولاد إلاَّ اذا أُحسنت تربيتهما ونُظر في امرهما منذ ساعة الولادة الذكر كما يجب ان يُربى الذكور والانثى كما يليق ان تكبر الاناث

وويلٌ لشعبٍ يقلّد رجالهُ نساءَهُ وويلٌ لأُمة تتشبّه نساؤُها برجالها فان ذلك يؤدي الى ضياع الموازنة في قلب الأُسرة ومتى ضاعت موازنة العيلة فقدت موازنة الأُمة كلها بحسب الناموس الطبيعي فان ما يُطلق على الافراد يُطلق على الشعوب باجمالها والأُسرة صورة الأُمة ومثالها

اذن فمن الواجب بداهةً ان يُعنى بتربية الصغار عناية فائقة فان ذلك يسهّل سبيل تربيتهم وتعليمهم وتثقيف اخلاقهم متى أُزيحت عنهم التمائم واصبحوا يدركون ويفقهون

ولقد رأينا العرب بل الشرقيين عامةً قد اهملوا فنَّ التربية اهمالاً تاماً فهم يمنعون الحجَّام عن معاطاة فن الطب لانهُ ليس من مهنتهِ في شيءٍ ويبشّرون التاجر بالخسارة والإفلاس اذا لم يكن حاذقاً في الحساب والاعمال المتجرية ولكنهم لا يعجبون بتةً لرجل يتخذ لنفسه رئاسة العيلة وقيادة الأُسرة وتربية الاولاد وهو لا يعرف من التربية إلاَّ اسمها ولا يعلم من القوانين الصحيَّة شيئاً يؤهلهُ لمثل هذا العمل العظيم . فلذلك رأينا ان نردف هذا الفصل الذي اجملنا فيهِ الكلام على التربية في البيت اجمالاً بفصول أُخر نفصّل فيها القول تفصيلاً والله من وراء النيات

الفصل السادس

التربية الصحية

اول ما نبدأُ بهِ هذا الفصل الاشارة الى امرٍ لا نرى بين أُمورنا العامة اهم منهُ ولا أَبعد منهُ خطارة ونريد بهِ كثرة الموت بين اطفالنا فانك اذا نظرت الى معدل الوفيات في البلاد الشرقيَّة عامةً والعربيَّة منها خاصة تجد ان اكثر ما تنشب المنيَّة اظفارها في الصغار فتذهب بهم قبل ان يدركوا لهذهِ الحياة لذة ويذوقوا من هذهِ الدنيا حلاوة . واذا قابلت بين هذه الوفيات في بلادنا الشرقيَّة وما سواها من البلاد الأُخرى ثبت لك ان الموت واجد الى اطفالنا سبيلاً ممهداً وباباً مفتوحاً

ولقد بحثنا عن الاسباب التي تنتج هذه الحالة السيّئة ونقبنا عن العلل التي تقضي في بعض الاحيان بان يلد للرجل منا البنون والبنات ثم يقضي ايام حياتهِ دون ان يناغيهِ احد اولادهِ بلفظة « ابَاه » فلم نجد لذلك سبباً سوى جهل عامتنا لابسط القواعد والقوانين الصحيَّة التي لا يستغني عن معرفتها والعمل بها رب عيلة وابو ولد

وانهُ ليتفق كثيراً ان يمرّ الرجل منا بالاحياء التي تسكنها العامة

او يدخل منازلهم او ينظر الى اولادهم يسيرون في الشوارع او يتناولون مأكلاً او مشرباً فيعلم مقدار ما هم فيهِ من الجهل لتلك القوانين الصحيَّة والبعد الشاسع عن القواعد التي يجب العمل بها لتنمو الاجسام وتقوى الابدان وتمتنع تلك الآفة التي نعوذ بالله منها ونريد بها موت الصغار بجهل آبائهم وامهاتهم لطرق التربية الصحيَّة

ومتى نظر الرجل منا بعين الامعان الى جهل عامتنا لتلك القواعد والقوانين لم يبقَ لديهِ مجالٌ للعجب والاستغراب من رؤيتهِ الصغار ينقلون افواجاً الى المدافن بل يقف حينئذٍ والحزن ملء قلبهِ وكل جارحة فيهِ تتألم لهذه الحالة ألمًا شديدًا ·

على انهُ لا حاجة بنا الى القول بان الحزن والتألم لا يدفعان مكروهاً ولا يرفعان ضيماً فمن الواجب اذاً ان نستبدلهما بالسعي وراء ما ينير اذهان الأُمة ويعلّمها الجري على القواعد الصحيَّة الاوليَّة · ولذلك كان فرضاً على كل والدٍ ومربٍّ ان يجعل اول همهِ في تربية الولد ان يوجّه جلَّ عنايتهِ الى تسييرهِ في الطرق الصحيَّة الواجبة

ولا بدَّ لنا ههنا من توجيه الخطاب الى الأُمهات ورئيسات الأُسر والعيلات لان هذا الامر موكول بنوع خاص الى عنايتهنَّ فان المرأة اول من يقوم بتربية الولد اذ تنتدبها الطبيعة قبل أَبيهِ ومعلّمهِ لحملهِ وتغذيتهِ وتقوية بدنهِ

ولسنا في هذا المقام لنعدّد القوانين الصحيَّة والقواعد والشروط التي

يجب العمل بها فان ذلك متوفر في الكتب الطبيَّة والمؤلفات الصحيَّة · لكننا مع ذلك لا نرى بدًّا من الاشارة الى وجوب النظافة التامة فان اكثر امراض الاطفال عندنا مسبب عن قذارتهم · حتى ان كثيرين يصابون بالعاهات وامراض العيون لابتعادهم عن النظافة في حين انها اهم مواطن الصحة والعافية

وقد قال احد اطباء العيون يوماً على مسمعٍ منا ان ثمانين في المئة ممن يعالجهم من العرب يصابون بامراض العيون وقد يفقدون بصرهم عن غير سبب سوى اهمالهم امر النظافة اهمالاً تاماً في حين انهُ ليس اسهل من غسل العيون ولو مرة عند الصباح

ومن يصدق ان رجلاً في سن الاربعين قال مرة امامنا — وهو يفاخر — ان الماءَ وبدنه لم يلتقيا بعد مرة واحدة · بل من يصدق ان ابن العامة عندنا يمرُّ على النيل مرات في اليوم الواحد ويقطع مسافات على شاطئ البحر دون ان يغسل وجههُ في الشهر مرة واحدة · في حين ان الاديان كلها — والدين الاسلامي خاصة — تأمر بالنظافة وتنهى عن المبيت على قذارة · ولسنا نعرف لذلك سبباً سوى جهل الوالدين للأُمور الصحيَّة وإهمال المعلمين والمربين تعويد الاولاد عليها فاذا كبروا كانوا كآبائهم جاهلين لها تماماً

وانظر اذا شئت الى الصغار في البيوت كيف يتمرغون في التراب · وانظر الى الاولاد في الشوارع والطرق ثم انظر الى تلامذة المكاتب

الاهليَّة الصغيرة فانك اذا فعلت لا ترى اقل تقدم وإصلاح في الحالة الصحيَّة ولا يأخذك العجب بعد ذلك من موت الصغار بكثرة وتفشي العاهات والاسقام في الذين ينجون من مخالب الحمام

وانهُ يحدث كثيرًا ان يموت الصغير او يمرض ويبتلى بالعاهات لا لعدم العناية به بل لاهمال الوالدين امر انفسهم وغضهم النظر عما يتعلق بصحتهم فيأتي الولد وفي دمهِ جرثومة العلة ولسان حالهِ ينشد

هذا جناهُ ابي عليَّ　　وما جنيت على احد

فلقد شاهدنا آباءً كثيرين وامهات عديدات مصابين بالامراض الخبيثة التي يرثها الولد عن الوالد وتكون سببًا اما في موتهِ صغيرًا او في قضائهِ ايام الحياة بين الاوجاع والآلام. وهم مع ذلك لا يلوون على انفسهم ولا يحسبون للامر حسابًا

وكثيرًا ما رأينا رجالاً يحملون في دمهم جراثيم الامراض والعاهات الخبيثة القتالة ثم هم يقدمون على الزواج قبل تنقية ابدانهم مما هو وبالٌ على اولادهم وسبب حزن وغم دائمين لهم لان موت الصغير من اعظم البلايا واكبر المحن

ولا شك في ان مثل هؤُلاء من اعظم الجناة فان جنايتهم تعمُّ الهيئة الاجتماعيَّة باجمالها اكثر مما تعمها جناية اي قاتلٍ ومنتحر ولص ومزور. وان لم يكن في القوانين والشرائع عقاب لعملهم فان العقاب واقع عليهم من نفس فعلهم والجزاء الحق من جنس العمل

فليتدبر اذًا الآباءُ والامهات هذا الامر الخطير وليتقوا الله في اولادهم والوطن في ابنائهِ. وليذكروا دائمًا ان رأس شروط التربية شرطها الصحي وان رأس الصحة النظافة وترتيب المعيشة والله الواقي على كل حال

الفصل السابع

تربية الآباء والامهات وتربية المراضع والخادمات

الغريب من امر بعض الوالدين انك تراهم اذا كانوا ممن انعم الله عليهم بالثروة والغنى لا يلهون طرفة عين عن الاهتمام بخيولهم والنظر في امر علفها وانتقاء الجيد منه وتفقد اسطبلاتها والحض على تنظيفها والعناية بها في حين انهم لا ينظرون نظرة واحدة الى حجرة اولادهم ولا يعنون مرَّةً واحدة بتفقد طعامهم

وانكى من ذلك ان بعض الامهات يسلمن الولد الى المرضع تفعل بهِ ما تشاء وتربيهِ كما تشاء وليس للمرضعات حنوّ الوالدات

وقد شهدنا فيما جمعناهُ من الملاحظات في ما يختص بالتربية في الشرق ان عادة بل آفة عدم الاهتمام بامر الاولاد تزيد في كل يوم تفشياً حتى انه اصبح من شروط „ التمدن " ان تسلم الأُم ولدها الى المرضع ثم لا تسأل عنه الى يوم الفطام فاذا جاءَ ذلك اليوم اخذتهُ من بين ذراعي مرضعهِ لترمي بهِ الى يد مربيتهِ فتكتنفهُ هذهِ وهو في تلك السن التي يحتاج فيها الى اعظم عناية والديَّة بما تسمح لها بهِ الظروف من العناية وبما تجدهُ في فوءَادها

الغريب عن هذا الولد من بقايا عواطف الحب والحنان

واذا اقدمت على ملامة احد هوءُلاء الرجال وسأَلته عن سبب اعتنائهِ بماشيتهِ وكلبهِ وجوادهِ مع اهمالهِ امر اولادهِ اجابك ان الاهتمام بالاولاد من شوءُون الأُم والخادمة . ولعلَّ هذهِ الأُم التي يلقي عليها الرجل كل اعتمادهِ في تربية بنيهِ وبناتهِ لا تعرف من أُمور الدنيا سوى التطريز او الرسم او الضرب على البيانو او قراءَة القصص – كما هو الشأن الآن جرياً على تقاليد التمدن كما سيجيءُ

واذا سأَلت الأُم كيف يجوز لها ان تهمل العناية باولادها اجابتك دون حياءٍ انها لم توجد لتكون مرضعة اطفالها ومربية صغارها بل ان عليها واجبات أُخرى لا تحسن القيام بها اذا عنيت بأَمر اولادها . وإلاَّ فمن يستقبل زوَّارها ومن يردّ زياراتها ومن يقابل الخياطة عنها ويقرأُ لها جرائدها ويعنى بأُمور تبرجها وزينتها – اللهمَّ رحمة من لدنك يا ارحم الراحمين – ومن وجه آخر فان الخادمة حاضرة والولد مكفول بعنايتها

نعم ولكن هذهِ الخادمة لا تعرف في الغالب من امر تربية الاولاد سوى إطعامهم اذا طلبوا الاكل ولو في كل ساعة مرة دون اقل ترتيب وزجرهم بغلظة وعنف اذا عرض لها ان تربيهم او تركهم على اهواء انفسهم اذا مرَّ بخاطرها طارق يلهيها عن اولاد غيرها . بل لعل هذهِ الخادمة لا تعرف من امر التربية سوى مزاعم واوهام تلقنتها من اهل طبقتها – وهي طبقة الجهل والغباوة كما لا يخفى

وكم رأينا الخادمات والمربيات يسقنَ الاولاد الى المتنزهات ثم يلهين عنهم لهواً تاماً فلا يأتي الاولاد إلاَّ كل امرٍ مضرٍ بصحتهم موءذٍ لابدانهم . حتى اننا رأينا رأيَ العين مرَّةً ولداً يتناول التراب بيده فيحشو به فمهُ والخادمة المعهودة اليها حراستهُ لاهية عنهُ بحديث مع خادمة أُخرى – ولعلَّ كل واحدةٍ منهما كانت تنمُّ بسيدتها وليس ذلك بغريب

ورأينا مرَّةً خادماً بربرياً يجرُّ ابن سيده بفظاظة وقسوة لم يعهد لهما مثيل والولد يبكي وينتحب وهو لا يزيدهُ إلاَّ قسوةً وغلظة

وكان بعضهم سائراً في الباب الشرقي فرأى ولداً لا يكاد يبلغ الثالثة من عمره يسير بعيداً عن الرصيف والمركبات في ذهابٍ وإياب والولد معرَّض في كل ساعة لان تدوسه الخيل بارجلها والخادمة المرسلة لحراسته لا تفكر في ان تعرف اين هو . حتى اضطرَّ الرجل لان يأخذ الولد بيده ويفتش على الخادمة الموكول امرهُ اليها

وقد سألنا مرَّةً ابن احد الاغنياء وعمرهُ اربع سنوات عن أبيه فقال لا اعرف اسمهُ فسألناهُ عن أمه فقال ماري . وماري هذه انما هي مربيتهُ التي لا يرى غير وجهها صباح مساء حتى اصبحت في عرفه أُمّاً له وصارت والدتهُ اجنبيَّةً عنهُ

وقيل مرَّةً لفتاةٍ صغيرة على سبيل المزاح كم تحبين أُمكِ فقالت ايهما فان لي أُمين جوزفين والأُم الكبيرة وهذه لا احبها . وجوزفين مربيتها والأُم الكبيرة أُمها وهي لا تحبها فتأمل

وكيف يرجو الوالدون ان يجدوا في قلوبهم حناناً على الذين لا يربونهم بانفسهم وكيف يأملون ان يجدوا في قلوب اولادهم حباً لهم وهم على الحقيقة غرباءُ عنهم

بل كيف تقوى العواطف العيليَّة وتتمكن روابط النسب بين أُمٍ وبنتها وأَبٍ وولده اذا كبر الولد بين يدي الخادم الاجنبي وشبَّت الفتاة بين ذراعي المربية الغريبة دون ان تشعر بنظر الأُم يحوم في كل ساعة حولها

لا بل كيف يحبنا ابناوءُنا وبناتنا اذا استيقظوا في الصباح فلم يروا غير وجه الغرباء يبسم لهم ثم ناموا في المساء ولم يغمضوا اجفانهم إلاَّ بقبلة الغرباء على جبينهم . وقد جاءَ في الامثال ان ثوب العارية لا يدفئ .

وذلك هو السبب في ما نراهُ في هذه الايام من فتور الحب الوالدي وتراخي الاخلاص البنوي وزعزعة الاركان العيليَّة ولم يكن الشان فيما مضى كذلك . بل كان اجدادنا اذا رزقهم الله اولاداً عرفوا قيمة هذه النعمة وعملوا على شكر ان الله عليها بالعناية بها فكنت ترى الأَب يسهر بنفسه على ابنه والأُم لا تغفل طرفة عين عن ابنتها

اما الآن فقد تبدلت الأُمور وانقلبت الاحوال واصبح ما كان عليه اجدادنا من الفضيلة العيليَّة امراً مستهاناً في حين انهُ هو الكمال بعينه

فيا ايها الأَب ان ابنك محتاج في كل اطوار حياته الى عنايتك وهو في صغره محتاج الى ابتسامة منك احتياج الارض الظمآنة الى وابل المطر

ويا ايتها الأُم ان ابنتكِ لا يجب ان تخرج من تحت جناح عنايتكِ إلاَّ متى اخرجتها الايام من ولايتكِ لتدخل في ولاية زوجها. وهي في طفوليتها وصغرها احوج الى قبلة منكِ من النبت الصغير الى حرارة الشمس

فان المحبة الوالديَّة نور يشرق على قلوب الاولاد وهي حرارة الحياة تنبثُّ في ابدانهم وتدفئُ قلوبهم وتلقي في صدورهم بذار الحب البنوي العظيم

ومن اهمل النظر بنفسهِ في تربية اولادهِ فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه يوم يكبر اولادهُ ويجد قلوبهم خاوية من الحب الحقيقي والولاء البنوي الصادق لهُ ولوالدتهم وسائر اخوتهم والسلام

الفصل الثامن

تربية البدن

لا يستغرب قرَّاء كتاب العلم والتربية عنوان هذا الفصل فاننا قد آلينا على انفسنا ان نضمّن هذا الكتاب كل ما نجد فيهِ فائدة ونرى فيهِ منفعة لابناء البلاد الشرقيَّة ونحسبهُ وسيلةً لاتمام فعل التربية العظيم في الاصقاع العربيَّة. فلذلك رأَينا ان نودع هذهِ الفصول ابحاثًا مستفيضة وان لم تكن كاملة مستوفاة من كل وجوهها في كل ما يتعلق بتربية الذهن والبدن وبالتالي في كل ما من شأنهِ ان يعدَّ سبيل الرجوليَّة الحقيقيَّة لاولادنا

ومن معدات هذا السبيل وممهدات تلك الطريق التربية الصحيَّة التي تقدم لنا كلام إجمالي بشأْنها في الفصل السابق ونحن الآن موفون هذا الموضوع بعض حقهِ من التفصيل والبيان

واول ما نبدأُ بهِ الكلام في هذا الصدد قولنا ان ثمت اربعة أُمور يجب ان تُصرف العناية اليها في تربية البدن وهي الغذاء واللباس والسكنى والرياضة الجسديَّة

***

الغذاء

الغذاء في عرف الجميع اهمُّ تلك الاشياء فلذلك ينبغي ان يُعتنى بهِ اعتناءً خاصاً من حيث نوعهِ وكميتهِ وكيفيتهِ . ولا بدَّ في مثل هذه الحال من رعاية القوانين الصحيَّة

وقد ذكر الذين تقدمونا في التأليف والبحث في مسائل التربية العامة ان امر تغذية الاطفال كان في كل زمان ومكان موضع اوهام ونزاعٍ جمة واخصها منع الاولاد عن الأكل وكفهم عن الطعام كلما بدا لنا وعنَّ لبالنا ان نكفهم عنهُ توهماً منا انهم نالوا حاجتهم وان كانوا هم يطلبون المزيد والغريب اننا نرى الولد يأكل بشهيَّة فنقول انهُ نَهِمٌ شَرِهٌ ونقضي بكفهِ عن الطعام غير ناظرين بتةً الى قولهِ انهُ لا يزال جائعاً بل نقضي تحكماً انهُ نال حاجتهُ وزيادةً عليها في حين ان الشهيَّة دليل الجوع

ويجب على الذين يتحكمون في القضاء بكف الاولاد عن الاكل ان يفرقوا بين الجوع والشره وان لا يحكموا لمجرَّد ما يتخيلونه . فان الغذاء أهمُّ ما يحتاج اليهِ الصغار لسببين اولهما انماء اجسامهم وتقوية ابدانهم والثاني تعويض ما يفقدونهُ في كل يوم بل في كل ساعة من القوى الجسديَّة كما هو مقتضى ناموس الطبيعة

والاولاد كما لا يخفى احوج من الكبار الى القوت لصغر اجسامهم وضعفها بحيث لا يجب ان يُمنعوا ما ينميها ويقويها إلاَّ اذا ثبت ثبوتاً تاماً

لا اثر معهُ للريب انهم يأكلون عن شرهٍ لا عن جوع . وغنيٌّ عن البيان ان الامراض والعلل التي يورثها الجوع ويسببها عدم الكفاية من الغذاء اعظم تأثيراً على الجسم واعسر شفاءً من الامراض التي يسببها الشره والإكثار من الطعام . فمن الواجب اذاً ان يكون غذاء الاولاد تاماً من كل وجوههِ وان لا ينقصهم منهُ شيءٌ

وقد رأينا اولاداً تعودوا على الشره والنهم لمغالاة والديهم ومربيهم في كفهم عن الاكل ومنعهم الطعام إلاَّ بالقانون لانهُ لا يخفى ان كل ممنوع محبوب والولد الذي تشدَّد كثيراً في منعهِ من الطعام يغتنم كل فرصة سنحت فيأكل في غيابك عن جوع او عن غير جوع ويدخل طعاماً على طعام فتكون قد اضررت بهِ من حيث اردت لهُ النفع

ونحن لا نريد بهذا القول ان ننكر ضرر الإكثار من الطعام فان ذلك حقيقة لا مراءَ فيها وقد شهدنا عللاً عسر شفاؤُها بل استحال الخلاص منها وكان سببها التهافت على الاكل بكثرة وفي كل آن وزمان . ولكن ما نريد ان نقررهُ في الاذهان ان تغذية الصغار تغذية لا نقص فيها امرٌ واجب لا مندوحة عنهُ ولا مفرَّ منهُ وإلا فان الصغار يكبرون على انهزال وفقر دم وضعف في الاعصاب وهو ما يشاهد عند كثيرين ممن لا يعتنى بامر غذائهم وهم في سن الصغر

ومما يجب التنبيه اليهِ في هذا المقام وجوب اختيار المغذيات من المآكل بحيث لا يطعم الولد ما يعسر هضمهُ ويثقل على معدتهِ دون ان

يكون فيه ما يزيد في قوته ويعود بالنفع على بدنه · واخص ما يوصى به من الماآكل اللحم والبيض والسمك واللبن وبعض البقول واكثر الفواكه والاطعمة الحلوة التي هي افضل الاشياء بعد اللحم وسواه من الماآكل الدسمة توليداً للحرارة الغريزية في الابدان

وينبغي ايضاً ان يُعنى الوالدون والمربون بتعيين اوقات الطعام · على ان القول بتعيين اوقات الأكل لا يقضي بمنع الاولاد من تناول اي مأكول كان بين فترات تلك الاوقات اذا احسوا بالجوع ولا بإجبار الاولاد على الاكل في تلك الساعات المعينة وان لم يكونوا جياعاً · فليتدبر الوالدون والمربون هذه المسائل بما عندهم من الحكمة والتمييز

بقي من امر الغذاء الاشربة وقد رأينا بعضهم — وكثير ما هم — يعوّدون اولادهم منذ الصغر على شرب الماء ممزوجاً بالخمر في حين ان خير الاشربة واسوغها للاولاد واشدها نفعاً لهم الماء القراح يتناولونه عند عطشهم

وغير خافٍ ان بلادنا الشرقيّة من أعدل البلدان هواءً والطفها جوّاً واعذبها ماءً فليست بنا حاجة الى ما يحتاج اليه اهل البلاد الغربيّة من اتخاذ بعض الاشربة او مزج الماء بالخمر على زعم ان ذلك يهيج الشهيّة ويزيد في القوى البدنيّة · فلذلك خير ما تفعله العيلة ان تمنع بنيها الاشربة الروحيّة وتسقيهم الماء قراحاً نقياً فانهُ انفع لهم واعود على صحتهم

***

اللباس

نظرنا في امر التربية العامة في بلادنا الشرقيّة فوجدنا الخطأ فاشياً في كل فروعها ووجوهها حتى انهُ اتصل بعد الغذاء بالكسوة التي يجب ان تتخذ لوقاية ابدانهم من تأثير الحرّ والبرد معاً · فانهُ كما ان للغذاء شروطاً تجب رعايتها ويضرّ الخروج عنها كذلك للكسوة شروط مقررة لا بدّ من الجري عليها والعمل بها

واهمّ شروط الملبس ان تكون الثياب من الصوف القاتم اللون لانهُ احفظ من كل نسيج سواهُ لحرارة البدن الغريزيّة التي يجب ان تبقى في درجة طبيعيّة الاعتدال

وينبغي ان لا تكون ثياب الاولاد ضيقة بحيث تعوقهم عن الحركة وتمنعهم عن اللعب وهما من اوجب الأمور للاولاد لان الحركة واللعب يساعدان البدن على النموّ ويقويان الاعصاب ويزيدان الحركة الدمويّة ويشغلان الفكر عن كل امرٍ ذي اهميّة وتأثير · وان لا تكون واسعة جدّاً بحيث يتعثر الاولاد بأذيالها ويرتبكون باطرافها

بل ينبغي ان تكون ثياب الاولاد لا واسعة ولا ضيقة وان لا يُعوَّدوا وهم صغار على اتباع الازياء والتأنق في ملابسهم فان البساطة في الملبس اجمل ما تقع عليه العين

وقد شهدنا أُمهاتٍ كثيرات يلبسن اولادهن الثياب التي لايستطيعون معها ان يأتوا بحركة ولا يجسرون على الجري واللعب لانها آخر زي دارج تلبسهُ الأم لابنها ليروق النظر وان كان مضرًا بصحته

وعلى هذا النحو ترى الاولاد في اكثر الاحيان يُمنعون من اجل ثوبهم رياضة ضروريَّة لنموّ اجسادهم وقوة ابدانهم وذلك من الغرابة بمكان بل هو من الخرق في الرأي والتماس وجوه الضرر للجهل بالقوانين الصحيَّة العامة

ومما يجب التنبيه اليهِ في هذا الباب امر الاحذية التي تعدُّ في الغالب غير ذات اهميَّة في حين انها ذات خطارة عظيمة. فانك قلَّ ما ترى فتى او فتاة لا يشكوان من حالة ارجلهما وسبب هذهِ الشكوى الحذاء الذي احتذياهُ في صغرهما

وذلك ان الوالدين في هذهِ الايام يحبُّون ان يدرجوا على طرق التمدن في كل شيءٍ حتى في احذية اولادهم فيضعون ارجلهم في احذية هي لضيقها اشبه بقوالب الحديد التي يحبس الصينيون فيها ارجلهم فيحتبس الدم في الارجل الصغيرة وتمتنع دورته ولا مراءَ في ان ذلك يسبب آفات عديدة

وكأنهم يريدون ان يخففوا وطأة هذا الضيف فيعمدون الى اتخاذ الاحذية من جلود دقيقة لا تمنع الرطوبة عن ان تنفذ الى ارجل اولادهم فيزيدون الطين بلة ويضاعفون الضرر من حيث لا يعلمون

ومن الأُمور الضارة التي ينبغي اجتنابها ان يبقى الاولاد محتذين الحذاءَ في ارجلهم من ساعة يفيقون الى ساعة ينامون او ان يُطلقوا للمشي

حفاةً على البلاط او التراب فان الامر الاول يمنع مسام ارجلهم من التنفس والثاني يعرّض اقدامهم للرطوبة وفي كلا الامرين اذى وضرر

***

السكنى

اذا جاءَ احد الغربيين الذين يعرفون قيمة التربية الصحيَّة ومقدار تأثيرها على حاضر الأُمم ومستقبلها الى بلادنا وساح فيها لاعلى قصد ترويح النفس بل على نيَّة درس احوالنا واستطلاع كيفيَّة معيشتنا ثم طاف في الاحياء التي تقطنها العامة وتفقَّد منازلهم وانعم النظر خاصة في البيوت التي يسكنها الفلاَّحون والزرَّاع والفقراء منا فلا شك عندنا في انهُ يحكم لاول وهلة – وحكمهُ في الحقيقة عادل – اننا نحن الشرقيين لانعرف كيف يجب ان يعيش الانسان ويتمتع بهذهِ الحياة

وذلك اننا نمنع انفسنا استنشاق الهواء النقي الذي لا بدَّ منهُ لكل حي فنبني مساكننا واكواخنا على طريقة لا تنفذ معها اشعة الشمس الينا ولا يتجدد الهواء في مخادعنا

وغنيٌّ عن الايضاح ان رأس شروط الصحة والعافية الهواء النقي حتى ان احد مشاهير الاطباء كان يصف لمرضاهُ الامتناع عن تناول الادوية ويأمرهم باستنشاق الهواء الطلق الجيّد

ولقد زرت بلاداً مختلفة ونزلت في مدنٍ كثيرة فلم أَجد مثل بلاد الشرق بلاداً جهل اهلها مثلنا حقيقة هذا الامر واذا تأملتَ جيداً وجدت مصر قد فاقت كل بلاد سواها من هذا القبيل ولا سيما في بلاد الريف بل في ما حول الاسكندرية والقاهرة نفسهما. فانك تجد المسكن الذي يسمونهُ «عشة» لا يليق ان يكون مربطاً لبهيم من البهائم فانهُ عدا عن بنائهِ بالطين والتراب وشيءٍ آخر اقذر منهما بحيث ترى الرطوبة تسري من سقفهِ الى ارضهِ وتنبعث من ارضهِ الى سقفهِ فهو لا نافذة لهُ يدخل منها الهواء ولا كوة تنفذ منها حرارة الشمس الى داخلهِ.

وفوق ذلك كله فهو اضيق من فترٍ ولكنك اذا طرقتهُ في المساء وجدت فيهِ الأَب والأُم والاولاد وحمار الرجل وبقرة المراة والدجاج ولو ملكوا جملاً لادخلوهُ ايضاً اليهِ لينام معهم في هذا «المسكن الرحيب»

فكيف بعد ذلك يُرجى ان تنمو ابدان أُولئك المساكين الذين يتنفسون مثل ذلك الهواء. بل كيف لا تكبر كلما كبروا امراضهم وتكثر كلما كثروا عللهم

واذا حولنا النظر عن مثل هذه المشاهد ودخلنا مدن الشرق الكبيرة لم نجد هناك ايضاً ما يسر من حيث السكنى ومقتضياتها. فانك كثيراً ما ترى منازل الاوساط بعضها فوق بعض مبنيةً كلها بنوع يعسر ان تنفذها مجاري الهواء واشعة الشمس. ولذلك ترى الرطوبة تسري في جدرانها وترى الاولاد الذين يعيشون فيها ناحلي الابدان صفر الالوان

ومما لا مراءَ فيهِ ان الهواءَ الجيد النقي اعظم معين على نموّ الابدان وتجدُّد القوى الجسديَّة لانهُ يولد في الاجسام دماً جيداً نقياً يسهّل الهضم ويقوّي الاعضاء. ولذلك ترى الفلاحين والزرّاع الذين يعيشون في الخلاء اقوياء الابدان جيدي الصحة بالرغم عن متاعبهم وشظف عيشهم وحرمانهم على الغالب من المآكل المغذية فطعامهم على الاكثر خبز الذرة والشعير وشرابهم الماءُ من منبعهِ او من مجرى سيلهِ ونهرهِ

وربما ظنَّ بعضهم اننا نقول ما نقولهُ من قبيل الاطراء والمغالاة وهو ظن في غير محلهِ لان نقاوة الهواء من شروط الصحة الرئيسة التي لا بُدَّ من رعايتها

نعم اننا لا نزعم ان بالهواء وحدهُ يعيش الانسان وتقوى الابدان لكننا نقول ونكرر القول ان امر تجديد هواء المساكن واستنشاق الهواء النقي مسأَلة حيويَّةٌ ينبغي ان لا يهملها الوالدون وإلا كانوا هم الجانين على انفسهم

ولذلك ينبغي ان يحرص الوالدون والمربون ولا سيما الامهات على تعهد الحُجر والغرف التي ينام فيها الاولاد او يقيمون فيها في النهار وان يفتحوا نوافذها وكواها ولو مرَّةً واحدة في كل يوم على الاقل لتدخلها حرارة الشمس ويتجدد هواؤُها فتعتدل فيها درجة الحرارة. وينبغي لهم ايضاً ان يعنوا بتنظيفها وان يجهدوا ما استطاعوا في تقليل عدد الذين ينامون في غرفة واحدة وإلاَّ فمن الواجب ان يكون اتساع الحجرة على نسبة عدد الاولاد

⁂

من اشد الأُمور ضرورةً لنموّ الابدان ولا سيما عند الاولاد الرياضة البدنيَّة ومع ذلك فاننا نحن الشرقيين من اعظم اهل الارض اهمالاً لها وابتعاداً عنها حتى انها لا ذكر لها عندنا

وكثيراً ما رأَينا رأْي العين وسمعنا بآذاننا آباءً وأُمهات يزجرون اولادهم كلما اتوا بحركة ويمنعونهم عن اللعب والجري ويضطرونهم الى التزام السكون التام وهم انما يأْمرونهم بما يعود بالضرر والاذى عليهم ويوقف سير النموّ الطبيعي او يعوقهُ

ومعلوم ان الحركة واللعب والجري والقفز حتى التمرُّغ في التراب كل ذلك من قبيل الرياضة الطبيعيَّة البدنيَّة التي لابدَّ منها للاولاد لتمرن ابدانهم وتصلب اعضاؤُهم ويشتد عضلهم · وكثيراً ما رأَينا اولاداً يصابون بأَودٍ في اجسامهم ويكون ذلك من عدم ترويض ابدانهم وهي صغيرة لينة فيضطرهم الاطباء الى اتخاذ الرياضة دواءً ووسيلةً لتقويم ذلك الأَود

وانظر الى الولد في الاشهر الأُوَل من حياتهِ كيف يقفز في حضن مرضعهِ ثم انظر اليهِ بعد ذلك كيف يدرج دابّاً على يديهِ ورجليهِ في البيت وتأَملهُ متى اصبح قادراً على الوقوف ترَهُ يسير متعكزاً من كرسي الى كرسي مستنداً من جدار الى جدار الى ان تشتد ساقاهُ وتقوى رجلاه

على حملهِ فلا تبقى لهُ مقدرة على السكون فيتضح لك ان الحركة من هبات الطبيعة الممنوحة للاولاد لنمو ابدانهم فمن الخرق في الرأْي وسوء التدبير اذاً ان نجبرهم على مخالفة هذه السنة الطبيعيَّة التي في مخالفتها اعظم ضرر واكبر اذى

وقد اتفق الباحثون في تربية الاولاد على امرلم نرَهم اجمعوا في امر آخر مثل إجماعهم في الاتفاق عليهِ وهو ان اشد احتياج الولد الى الرياضة البدنيَّة متى كبر قليلاً وصار يقضي ساعات من نهارهِ مكبّاً على الدرس · لانهُ في هذهِ الحالة يضطر لان يلزم مكانهُ فلا يتأَتى لهُ ان يبرحهُ متى اراد · فلذلك وجب ان يعنى الوالدون والمربون والمعلمون بان يجعلوا بين اوقات الدرس فترات تتخللها وان يحملوا الاولاد على اللعب في ما يحبونهُ من الالعاب ويرغبون من طبعهم فيهِ لا فيما يقترح عليهم دون ان يميلوا اليهِ

واختيار الالعاب التي يرغب الاولاد فيها من الشروط التي لا يجب اغفالها في ما يتعلق بالرياضة لان إكراههم على لعب لا يحبونهُ من شأْنهِ ان يفسد عمل الرياضة وقد يأْتي بعكس ما ينتظر منها · وذلك بديهيٌّ اذ ان الفائدة والنفع لا يأْتيان عن عمل لا يرتاح القلب اليهِ ولا ترغب النفوس فيهِ

وعندنا ان مثل هذا المبدإِ ليس مما يحتاج الى قول يشرحهُ وبرهان يعززهُ · ومع ذلك فلا بأْس من الالماع ههنا الى ان إكراه الولد على صنف

من اللعب لا يحبهُ ولا يميل اليهِ او صدّه عن صنف يغتبط بهِ ويرغب فيهِ او يخترعهُ هو لنفسهِ ليسا إلاَّ من قبيل مداومة الدرس الذي يقصد باخراجهِ منهُ الى اللعب إراحة ذهنهِ وترويح صدرهِ وإعفاؤُه ساعة من عناء الدرس ليجد لذة ولهواً يعوضان عليهِ ما فقدهُ في ممارسة الدرس من قواهُ المادية والعقلية فتفوت بذلك الغاية المقصودة ويرجع الولد الى الدرس عن غير قابلية ولا ميل ودون ان يجدّد شيئاً من قواه

ولما كان الشرق يقيس الآن كل اعمالهِ على الغرب ويعمل على تقليده واقتفاء اثرهِ رأينا ان نضرب لابناء البلاد مثلاً ما نراهُ عند الاوروبيين عامة من التهافت على الاعمال الرياضيَّة سواء باللعب او ركوب الخيل او التمشي في الخلاء او استعمال الدرّاجة (البيسيكايت) او التعود على الالعاب البلهوانية (الجمناستيك)

ولدينا في هذا القطر في كل يوم مشهد من العاب الانكليز المختلفة اذ تراهم رجالاً ونساء كباراً وصغاراً يقفزون ويجرون في اماكن معدّة للعب اما وراء كرة او على ظهر جواد. وهم يتفننون في الالعاب ويجعلون للفائز فيها الجوائز كل ذلك تحريضاً على الرياضة وانهاضاً لهمة المتواني حتى انهم جعلوا الالعاب الرياضيَّة من الفروض المدرسيَّة والسابق فيها ينال الجائزة ويثنى عليهِ ويقدَّم على اقرانهِ

واذا رأيتهم خارجين من العابهم والصحة تقطر من وجوههم والعافية تتلألأ في جباههم علمت ايها الشرقي انك جنيت على نفسك جناية عظيمة

باهمالك فن الرياضة التي اقلُّ منافعها انها تقوّي البدن وتشفي من داء الكسل وتعلّم المغالبة التي لا بدَّ منها في هذه الدنيا

***

اجمال الكلام

إجمال الكلام في هذا الامر الخطير ان التربية البدنيَّة الصحيَّة قائمة بإجادة الأُمور الاربعة التي اشرنا اليها وهي الغذاء والكسوة والسكنى والرياضة. فمن الواجب اذاً ان تبذل العناية في حسن تغذية الاولاد لتنمو ابدانهم وتقوى اجسامهم فيخلصوا من الموت صغاراً ويتقوا العلل والامراض كباراً

وإجادة الغذاء قائمة في ان يكون كافياً وجيداً فهي ذات علاقة بكميتهِ ونوعهِ. اما من حيث كميتهِ فينبغي ان يكون بحيث لا ينقص عن حاجة الولد فتضعف بنيته ولا يزيد على حاجته فيصاب بالبشم والمعدة كما لا يخفى بيت الداء. واما من حيث نوعهِ فينبغي ان لا يُقات الاولاد إلاَّ بما يسهل هضمهُ ويكون فيهِ من المواد المغذية ما يزيد في قوة ابدانهم ويعوّضهم ما يفقدونهُ من القوى

اما الكسوة فينبغي ان تراعي فيها مسألة هي عقدة المسائل في هذا الموضوع ونريد بها ان يكسي الاولاد بما لا يعوق نموّ ابدانهم ولا يؤثر

على اعتدال حرارة اجسامهم وبما يمنع الرطوبة من ان تنفذ اليهم

وقد رأينا كثيرين من الوالدين يلبسون اولادهم في ايام الشتاء الثوب فوق الثوب والكساء فوق الكساء حتى ترى الولد كأنهُ يحمل من ملابسهِ حملاً كل ذلك بدعوى وقايتهِ من البرد. ثم تراهم اذا جاء الصيف اخرجوهُ عارياً على وجه التقريب وفي كلا الامرين ضررٌ فليتدبر الوالدون

بقيت من مسائل التربية البدنيَّة الجوهريَّة مسألتا السكنى والرياضة واهم ما يجمل في شأنها الكلام ان الهواء النقي وحرارة الشمس وحركة الاجسام تُعوز كل انسان بحيث لا تجد على وجه الارض من يكون في غنى عنها

وكما ان الحيوان من ايَّة طبقة كان في حاجةٍ الى استنشاق الهواء والتعرض لحرارة الشمس والتعاقب على الحركة والا فلا مطمع لهُ في البقاء هكذا الانسان لا يشتد لهُ ساعد ولا يقوى لهُ عضل الا اذا استوفى هذه الشروط

بل انظر الى النبات نفسه ترَ انهُ لا ينمو ويزهر إلاَّ اذا كان في هواءٍ نقي وحرارة كافية من الشمس وكانت يد البستاني تتناولهُ بحرث الارض وتقليبها من حولهِ مما يعتبر بمثابة الرياضة للانسان وفي هذا القدر كفاية لقوم يعقلون

الفصل التاسع

عود الى التربية في البيت

تقدَّم لنا القول في احد الفصول السابقة ان للتربية الاوليَّة شرطين رئيسين وهما السلطة بالاضافة الى الوالد او المربي والطاعة بالاضافة الى الولد لانهُ اذا لم يكن الكبير ذا سلطة والصغير خاضعاً مطيعاً فسد عمل التربية وضاعت النتيجة المقصودة منها

على انهُ ينبغي للوالدين والمربين ان لا يكون سلطانهم مقروناً بالاستبداد وان لا يستعملوا العنف او التسامح في غير موضعهما

فوضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

وان يعوّدوا الاولاد على الطاعة والرضوخ حبّاً لهما واستئناساً بهما لا عن رهبة وخوف وان يبثوا في عقولهم حب الحقيقة والصدق والكره للكذب والرياء حتى في المسائل الطفيفة والأُمور الغير الهامة لان تعويدهم على ذلك في ما لا اهميَّة لهُ يحملهم عليهِ متى كبروا في كل امرٍ ذي اهميَّة وخطارة وليسمح لي ارباب العيلات ان انتقد عليهم في هذا الموضع امراً يظهر

لاول وهلة تافهاً لا اهمية له ولا تأثير في حين انك اذا انعمت نظرك فيه واعتبرت نتائجه وجدته من الأمور الهامة التي يجب ان يُعنى الوالدون والمربون باجتنابها

والامر الذي أشير اليه بمثل هذه المقدمة ليس بنادر الحدوث بل هو شائع في كل مكان وهو مجاراة الولد في كل ما يريد ويشتهي حتى يصبح اهلاً لان يسمى بالولد « المدلّل » وهي تسمية نطلقها على صنف من الاولاد يصبحون بسبب شدة حب والديهم لهم ومغالاتهم في مجاملتهم وافراطهم في مجاراتهم على اهوائهم من شرّ الاولاد واصعبهم مراساً . وان من الحب ما يضرّ ومثل هذا الحب هو في الحقيقة بغض وكره

اجل ان شرّ الاولاد الولد المدلل واكثر ما ترى هذا الصنف من الاولاد في البيوت التي لا يرزق الله اصحابها بنين عديدين فاذا كان للأم ولد وحيد وكانت غير حائزة صفات الأمومة الحقيقية حسبت ان تأديب هذا الولد الوحيد وتربيته يعدمانها اياه وفضلت ان تراه عادماً كل الصفات الجيدة والاخلاق الحسنة على ان تنتهره او تزجره مرّةً واحدة

وقد رأينا مرّةً في الساعة السابعة من المساء في منتزه الرمل والداً يطلب لابنه وعمره خمس سنوات صنفاً من الحلوى لم يكن موجوداً . فما كان منه إلاّ انه أخذ يستعطف الولد ويقول اذا لم يكن من هذه الحلاوة في الرمل فان الاسكندرية ملأى منها فهل تريد ان اذهب واحضر لك منها . . .

وحدث بعد ثلاثة ايام ان هذا الأب جاء بولده الى المنتزه في مثل تلك الساعة فالتمس الولد كأساً من شراب الورد ولم يكن في قهوة المنتزه منه فامتعض ونظر الى ابيه قائلاً رُح الى الاسكندرية وهات لي الشراب . . .

ومن حظيات ولدٍ آخر « مدلل » ما حدث يوماً في منزل احد وجهاء الاسكندرية وكان غاصاً بالناس ولا نذكر أكان ذلك لعرس ام لعماد فخطر للولد المدلل ان يربط في عنق أخته وهي اكبر منه منديلاً ويجرها به . وكان ابوه وأمه في جملة الحضور فما عبس ابوه له ولا انتهرته أمه بل قالت اخاف ان اردعه فيتكدر ويمرض

ويقرب من ذلك جواب احدى السيدات وقد سُئلت عما تقضي به نهارها فقالت « انني اشتغل بتدليل اولادي » . ذلك كان جوابها ولكنها ادركت بعد ذلك بالتجربة انها كانت مشتغلة في إعداد مستقبل سيّءٍ لها ولاولادها معاً

وقد يقول الذين يطلعون على هذا الكلام انه اي شرّ واي بأس في تدليل الولد الصغير في سنيه الأولى وهو لا يدرك شيئاً من أمور هذه الدنيا . وهو اعتراض في غير محله ومع ذلك فقد سمعناه حتى صُمّت آذاننا لسماعه بحيث اضطررنا الى إطالة الكلام في هذا الشأن تقريراً لحقيقة يجب ان ترسخ في الاذهان وهي ان هذا الولد الصغير الذي ندلّله انما هو الرجل بعينه وان الرجل سيكون في كبره كما صنعته في صغره اما وسائل تدليل الولد وبالتالي إفساد تربيته والجناية عليه بل على

الوطن والهيئة الاجتماعية باجمالها فكثيرة وعلى اختلاف في النوع والطريقة

وذلك اننا نفسد عقل الولد بكثرة المديح له والثناء عليهِ والإعجاب بكل حركة يأتي بها

ونفسد اخلاقهُ بتركنا اياهُ يصنع كل ما يريدهُ ويفعل كل ما يرغب فيه

ونفسد قلبهُ بتجاوزنا كل حدّ في الاهتمام بهِ والحنوّ عليهِ والحب له حتى لقد رأينا حب بعض الوالدين لاولادهم اقرب الى العبادة — نستغفر الله — منهُ الى الحب الوالدي

ولا يخفى ان الجري مع الولد على مثل تلك الطريقة يؤدّي الى نتيجة سيئة بل الى اسوإِ النتائج واعظمها شرًّا ونريد بها الكبرياءَ والرخاوة وهما جرثومتان لكل فاسد من الاخلاق وسافل من الطبائع فمن الخرق في الرأي ان تسوق ايها الوالد ابنك بيدك الى هذهِ الهاوية وانت مكلف بان تقوده الى مباهج السعادة والهناء

بل من الجريمة ان يكون الآباءُ والامهات وسيلةً لشقاء ابنائهم متى كبروا وشبُّوا وكانوا هم السبب في تلك التعاسة

وليس في اللغة الفاظ نستطيع ان نعبّر بها عما تصير اليهِ حالة الاولاد الذين تفسد بسبب الرخاوة اخلاقهم وتسفل بواسطتها طباعهم· بل لا يستطيع احد ان يتصور الى ايّة حالٍ يصير الاولاد الذين ساءَت تربيتهم بسبب إفراط والديهم في حبهم وتدليلهم وتجاوزهم الحد في اجابتهم الى كل ما

يروق لذوقهم ويحلو في نظرهم وتميل بهِ نحوهُ شهيتهم ويدفعهم اليهِ كسلهم وتجذبهم نحوه اميالهم

ومما يعدل هتاف الوالد او الأُم لبيك كلما مرَّت بخاطر الولد صبوة ما نراه في كل يوم من كثرة الثناء على الاولاد لكل حركة يأتونها والإعجاب بهم لكل كلمة يقولونها· واضرُّ من ذلك ان بعض الوالدين لا يكتفون بثنائهم الخاص بل هم يزيدون عليه ثناءَ الاقارب والمعارف فتراهم يكررون ما قاله اولادهم ويضحكون فرحين متهللين لكل لفظة فاهوا بها مستعيدينهم ما قالوه ضاحكين لهم معجبين بذلك الذكاء الباهر والعقل الراجح الى ان يصبح الولد وهو يظن نفسه قد بلغ اقصى درجات المعرفة وأبعد مراقي الحكمة والفلسفة

ولقد عرفنا رجلاً كان يقول عن ولدين لهُ عمر الاول ثلاث سنوات والثاني سنة واحدة ان في رأس كل منهما من الفطنة والعقل ما لو وزن لرجحت زنته على ثقل جسمي ابيهِ وأُمهِ· واستمرَّ على هذا القول الى ان كبر الولدان وارسلهما الى المدارس وعلّمهما العلوم وجعل الواحد طبيباً والآخر مهندساً وهما لا يزيدان إلاَّ احتقاراً له وامتهاناً لأُمهما لان الطريقة التي جرى عليها الأَب واتبعتها الأُم معها ولَّدت فيهما الاعتقاد بسموّ عنصرهما عن عنصر ابيهما وأُمهما حتى مات الأَب وفي فؤاده من ذلك حسرة وعاشت الأُم وهي لا تجسر ان تفاتح احدهما بكلام اذا لم يبادرها هو بالحديث

ولا يظننَّ احد اننا نبالغ في ما نقوله في هذا الصدد فانما نحن دون الحقيقة الهائلة في كل ما نذكره عن الاولاد الذين تفسد اخلاقهم بالدلال حتى لقد رأَينا رأْي العين في بيروت ولداً لا يتجاوز عمرهُ العشرة اعوام يضرب أُمهُ وشقيقته ثم يسوق الواحدة تلو الأُخرى الى المكان الضيق القذر ويقفل عليهما فيه ساعات من النهار · واذا جاءَ ابوهُ في المساء لم يسمع من امرأَتهِ إِلاَّ كل ثناءٍ سارّ على ذلك الابن

ولم تكن هذهِ الأُم تشكو ابنها الى ابيه مخافة ان يؤَدبه ابوه بانتهارةٍ فيتكدر او بصفعةٍ فيتأَلم وفضلت ان تفقده بتمامهِ على ان تراهُ مستاءً متكدراً مدة نصف ساعة

ونقول انها فضلت فقده على تربيته لاننا رأَينا هذا الغلام فيما بعد شاباً لا تكاد عين أُمهِ تقع عليه مرة في الشهر

ويكفي من الامثال في هذا الموضوع ما ضربناهُ الى الآن فليسمح لنا حضرات القراء في الخروج من هذا الباب للكلام على ما يجب علينا اجتنابه في التربية وما ينبغي لنا الحرص عليه مع الاولاد لنكسبهم صفات الرجوليَّة الحقيقيَّة

ولقد تقدم لنا القول ان الولد كالغصن الرطيب يلتوي اذا عوَّجته ويستقيم اذا قوَّمته وان الخطة التي تجري عليها معه وهو في سن الطفوليَّة تكون بمثابة الطابع الذي تبصم بهِ ما بين يديك من المواد اللدنة فاذا قسَت اصبح من المستحيل رفع ذلك الطابع عنها وازالة اثره بالكليَّة منها

واذا كان الامر كذلك فانه ينبغي للذين يقع عليهم الاختيار للقيام بالعمل العظيم اعني بعمل التربية الذي يتوقف عليهِ قيام الشعب او سقوطه ونريد بهم الآباء والامهات والمعلمين والمربيات ان لا يغفلوا طرفة عين عن هذا الواجب المقدس والفرض الشريف السامي فانهم منتدبون الى ذلك من قبل الله تعالى نفسه مسئولون فيه لدى انفسهم والعيلة والوطن والانسانيَّة بإِجمالها فمن احسن منهم عمله فقد خدم نفسه وعيلته وبلاده والدنيا كلها ومن قصَّر في ذلك فقد اساءَ الى نفسه وعيلته وبلاده والانسانيَّة بكمالها

واول ما نوصي به في ختام فصل التربية في البيت انهُ ينبغي ان يُعنى ببساطة ملابس الصغار وكسوتهم عناية خاصة فان الملابس من اعظم العوامل المؤَثرة على عقول الاولاد· ولقد تنبَّه الوثنيون انفسهم الى هذا الامر فقال احد قدماء فلاسفتهم انهُ ينبغي ان تكون عيشة الاولاد خشنة وملابسهم بسيطة مشابهة لملابس الاولاد الذين يختلطون بهم

وقال السيد دبيانلو ان إِعجاب الاولاد بملابسهم واستكبارهم بغلاء ثمنها وحسن زيها اعظم ما يفسد اخلاقهم ويعكس تربيتهم· فمن الواجب اذاً ان يُبثَّ في عقولهم منذ الصغر كره التأَنق في الملبس والاحتقار للظواهر الخارجيَّة والازدراء بالتزيُّن والتبرج واستصغار تصفيف الشعور وحمل الحليّ واستعمال روائح الطيب الى غير ذلك مما اصبح في هذه الايام خطة يدرج عليها البنون جرياً في اثر آبائهم

فانك لو نظرت بعين الإمعان الى فئة من الناس بل الى اكثر اقوامنا وجدتهم ولا همَّ للوالدين منهم إلاَّ اختيار ملابسهم ولا اهتمام للاولاد إلاَّ في تصفيف الشعور والتأنق في الكسوة وتزويق الثياب حتى انك لترى الفتاة او الغلام اشبه بذنب الطاووس في كثرة ألوانه وتألق لمعانهِ وهما كالطاووس في الإعجاب بتلك الالوان والمفاخرة بذلك اللمعان

ثم انك لترى الفقير منا في مظهر الغني الموسر واذا نظرت الى امرأة رجل من ذوي الدرجة الوسطى او بصرت بابنته خارجة من المعبد او ذاهبة الى زيارة ورأيت ابنهُ سائراً الى المدرسة او عائداً من نزهة فلا يخيَّل لك إلاَّ انهم من ذوي الثروة الواسعة والمال الكثير

والغريب من امر بعضهم بل من امر اكثرهم انك ترى الرجل منهم وامرأته وابنهُ وابنتهُ خارجين في اجود كسوة واجمل زي وسلاسل الذهب تروح وتجيءُ على صدورهم وخواتم الماس يتألق بريقها في اصابعهم فتحسبهم انهم انما ينفقون من فضلة مالهم وانهم عن سعة يفعلون . فاذا فتحت ذلك الكتاب المقفل ونظرت في باطن صفحاته تجلت لك حقيقة رائعة تقف لديها موقف المتسائل أَجُنَّ هذا الرجل ام لعب الشيطان بعقله ذلك انك اذا أنعمت النظر في تلك الملابس الجميلة والحلي الثمينة وجدت ان هذا المتوسط الذي يظهر لعينيك في مظهر الغني المثري انما يتمايل مع ملابسهِ الجميلة في رداءٍ من الدَين ضافي الذيول متجرر الاطراف

وما قادهُ الى هذهِ الحالة واوقعهُ في هذهِ الورطة إلاَّ ما عوَّدهُ

عليهِ والداهُ عند ما كان صغيراً من حب التزيُّن بملابسهِ مع غض النظر عن زينة الصفات والاخلاق . فكبر على هذا المبدإِ الوخيم وربى عليهِ اولاده وبناته الذين يعدُّهم لان يكونوا آباءً وأُمهاتٍ ولكن على شاكلتهِ وشاكلة امرأته التي ربيت على مثل ما ربي او تطبعت بعد خروجها من بيت ابيها بامياله فاصبحت شريكة لهُ في اثم تلك التربية الفاسدة التي يسيّرون اولادهما في طريقها

ومن مؤثرات التأنق في الملبس ان الولد يكبر على مبدإِ الترف والاسراف والترفُّه في المعيشة فيصبح وخطرات النسيم تجرح خديهِ . ويشبُّ على اعتبار الناس بملابسهم كذاك الذي دعا اصدقاءَ لهُ الى وليمة ولم يكن احدهم — وهو اكثرهم فضلاً واوسعهم علماً وارجحهم عقلاً — في لباس العيد فأجلسهُ في أُخريات القوم دون ان يحفل بهِ او ينظر اليهِ . فخرج الرجل خلسة ثم عاد وهو في احسن لباس واثمن حلية فكان كأنما هو الامير قد وفد الى ذلك المحفل ولما اراد صاحب الدعوة ان يجلسهُ في صدر القوم خلع رداءَهُ عنهُ ووضعهُ في ذلك المكان ثم خرج يهزأُ بالرجل واشياعه . وفي ذلك عبرة ولكن ما اكثر العبر واقل الاعتبار

ذلك اقل ما يُقال في ضرر تعويد الاولاد على التأنق في ملابسهم والاكترات بانواعها والاهتمام بازيائها وهو خطرٌ على مستقبل بنيك ايها الاب يجب ان تعمل على اجتنابهِ بما في وسعك من وسائل الوقاية والانتباه

وينبغي في معاملة الاولاد استعمال الشدة واللين معاً والجري معهم

على خطة الصبر وطول الأَناة وتعويدهم على كره الكسل والبطالة وحب
الاجتهاد والعمل واحترام الشيخوخة واعتبار من كان اكبر سناً ومقاماً
منهم والاحتفاظ بالمبادئ الدينيَّة والأُصول المذهبيَّة وعدم الاستقلال
بأُمور انفسهم مع تعويدهم من وجهٍ آخر على عدم الاتكال على الناس
وحملهم على الاعتقاد بان كل امرئٍ مسؤُول عن امرهِ امام نفسهِ

واياك ومداهنة الاولاد والتملق اليهم لان ذلك يبثُّ فيهم روح
الكبرياء والإِعجاب بالنفس وهما من اشد العوامل تأْثيراً في إِفساد التربية

ويجب على الوالدين والمربين ان يتوخوا الصدق في كل ما يقولونهُ
امام الولد بحيث يشبُّ على حب الحقيقة والاعتصام بحبل الصدق وكره
الكذب والابتعاد عن النفاق

ومما تجب مجانبتهُ ان يجري الاولاد مع عاطفة الغضب فان الجري في
مثل هذهِ الخطة يؤَدي بهم الى اسوإِ الغايات واقبحها . واعظم ما يجعل
الاولاد شديدي الحدة سريعي الغضب شدة تملق الامهات ولا سيما الى
الولد الوحيد والمسارعة الى اعطائهِ كل ما طلب واشتهى حالما تسقط لهُ
دمعة . وعندنا انهُ خيرٌ الف مرَّة ان يبكي الولد ساعة من ان تمسح الأُم او
المربية دمعتهُ بقبلة وتبادر إلى إِسكاتهِ بانالتهِ ما يطلبهُ لان تركهُ يبكي
مرَّة يمنع عنهُ اضراراً جمة في حين ان انالتهُ مطالبه مخافة ان يبكي يجعلهُ
اظلم اهل الارض وابعدهم استبداداً بنفسهِ وبكل من حوله . وافضل
طريقة نتبع في مثل هذهِ الحال هي ان نرفض مطالب الاولاد اذا لم تكن

في محلها ونصرَّ على رفضها ولو بكوا وانتحبوا ثم نمنحهم ما يطلبون متى عادوا
الى الهدوء واخلدوا الى السكينة وبذلك يعلمون ان البكاءَ لا يفيدهم فلا
يلجأُون اليهِ مرَّةً أُخرى

وفوق ذلك كله فانهُ ينبغي لنا ان ننزع من قلوب الاولاد عاطفة
الحسد والبغض ونزرع فيها بذار الحب والصداقة ونعوّدهم على الطاعة
والرضوخ ولكن مع تبصر ورويَّة بحيث لا يصبح الولد رجلاً سهل الانقياد
لكل ما يريدونهُ منهُ

وعلّم الولد ايضاً المثابرة والثبات فانهما في غالب الاحيان وسيلة
النجاح وطريق الفلاح . ولم نرَ اضرَّ من التقلب وكثرة التنقل من امر
الى امر وكم من شاب اضاع حاضرهُ وفقد مستقبلهُ لعدم ثباته
وكثرة تقلبهِ

ومما ينبغي تعويد الاولاد عليهِ منذ نعومة اظفارهم الكرم على غير
إِسراف والاقتصاد على غير بخل وبالتالي معرفة قدر المال ولكن دون
الاستعباد لهُ وإِنفاقهُ بغير شح ولكن في موضعهِ . وعلى كل حال فانهُ
ينبغي ان لا يعوَّد الاولاد على ان ينفقوا ولو درهماً واحداً في غير الأُمور
الحاجيَّة والحاجات الضروريَّة لئلاَّ يكون ذلك باعثاً على بثّ روح الاسراف
والتبذير في قلوبهم

وقد رأَينا كثيرين ترك لهم آباؤُهم ثروةً طائلةً ومالاً غزيراً
فلم يمضِ عليهم زمنٌ طويل حتى اصابتهم سهام الفقر وخيَّمت عليهم الفاقة

والسبب في ذلك تعويد آبائهم اياهم منذ الصغر على الإنفاق بغير حساب
كذلك رأينا اقواماً يشقون بثروتهم اذ تصبح اموالهم بمثابة العجل الذهبي لهم فهم ارقاء المال الذي كسبته ايديهم وعبيد الثروة التي وصلت اليهم وما عبَدَ عُجلٌ هؤلاء ان لم نقل كلهم هذا المعدن الحقير الا لان آباءهم اختطوا لهم بشحهم هذه الطريق وهم لا يعلمون

اذن فالكرم اذا جاوز حدهُ اصبح اسرافاً وتبذيراً والاقتصاد اذا بولغ فيهِ اضحى ضناً وبخلاً وكلاهما رذيلة يجب اجتنابها وهي كسواها من النقائص لا تُجتنب إلاَّ بتعويد الصغار على كرهها منذ الفطام

هذا وينبغي ايضاً ان يربى الاولاد منذ نعومة اظفارهم على التأدب والاحتشام في كل شيءٍ سواءٌ في الكلام واللبس والأكل والشرب والجلوس والوقوف لان عدم العناية بذلك في صغر السن يقود الولد الى طريق غير مأمونة اذ يتخلَّق باخلاق ويتلبس بعادات لا ترضي احداً من الناس.
وبالاجمال ان التأدب والاحتشام في تلك المسائل كلها يحفظان للانسان مقامه ومنزلته اذ يكون قد حفظ بهما مقام سواهُ والناس يفعلون بك ما تفعلهُ انت بهم وبالكيل الذي تكيل بهِ يكال لك

الفصل العاشر

تتمة التربية في البيت

اذا نظرت الى الاولاد – ولا سيما اولاد العامة – يسيرون في الازقة والشوارع وسمعتهم يتفوهون بكل كلام قبيح ويرددون كل لفظة سفيهة ويأتون بكل اشارة سيئة تدل على سوء ادبهم وفساد تربيتهم فتخدش كلماتهم الآذان وتكون اشاراتهم قذىً في العيون فاعلم ان السبب كل السبب في ذلك عدم تربية والديهم لهم في بيوتهم واطلاق العنان لهم منذ صغرهم ليقولوا ويفعلوا ما يريدون

بل ربما كان الولد قد تعلَّم الكلام البذيء من أمهِ وتلقى الاشارات السافلة عن ابيهِ لان سوء الحظ جعل اهل الطبقة السفلى من الشعب عندنا لا يرقبون انفسهم امام اولادهم بل تراهم يجدفون امامهم ويلعنون ويشتمون ويقولون كل قول سمج ويشيرون بكل اشارة مستهجنة

والولد الصغير كالببغاء يسمع الكلام فيلتقطهُ دون ان يفهم مغزاهُ ويقولهُ دون ان يدرك معناهُ ومتى تداولهُ لكثرة ما يطرق أذنيهِ اصبح تكرارهُ اياهُ امراً طبيعياً بل ملكة مستحكمة فيهِ

وكم شهدنا بين الطبقة السفلى بل بين الطبقة الوسطى نفسها واعلى منها ايضاً اباً وأماً يتشاجران ويتشاتمان امام اولادهما فيمثلان بذلك لاعينهم اقبح مثل لانهُ اي احترام يبقى في فؤاد الولد الصغير لابيهِ اذا شتمتهُ أُمهُ امامهُ واي وقار عندهُ لأُمهِ اذا كان يرى اباه رافعاً يدهُ عليها

وكيف يُرجى ان يشبَّ الولد على احترام ابيهِ وأُمهِ اذا كانا لا يحترمان نفسيهما ولا يعرفان لذاتهما مقاماً . واذا فقد الولد عاطفة الاحترام لابيهِ وأُمهِ فهل يصح ان تكون تربيتهما اياهُ حسنة بعد ما ثبت ان من اهمّ عوامل التربية سلطة الوالدين وخضوع البنين

فمن الواجب اذاً ان ينظر الوالدون في امر انفسهم ويحاذروا من اجل كل كلمة يقولونها او اشارة يأْتون بها امام اولادهم . ولو كان الوالدون عندنا يحرصون على هذا الامر لما كنا نرى في شوارع الاسكندريَّة والقاهرة وبيروت ودمشق وحلب وبغداد وغيرها من مدائن الشرق وحواضره العربية زمر الاولاد والفتيات بل فئاتٍ من الفتيان والنساء والفاظ البذاء تقطر من شفاههم والسنتهم واشارات السفاهة والقباحة تتمثل اشكالاً على ايديهم واناملهم

وقد سمعنا مرَّةً بآذاننا فتاة صغيرة من بائعات الفجل تنادي أُختها الكبيرة باقبح النداء واسفه النعوت فزجرها بعض المارة فكان معنى جوابها « واي بأْس في هذهِ النعوت والالقاب اذا كان ابي ينادي بها أُمي وشقيقتي » فتأَمَّل

ولا نفيض ههنا في ايراد الادلة والشواهد على ضرر الأَخذ بالطريقة التي تقدم لنا ذكرها لاننا لا نرى حاجة الى ذلك الا اذا احتاج النهار الى دليل

ومع ذلك فاننا لا نجد بدًّا من الاشارة الى امر هو في غاية الاهميَّة والخطارة ونريد بهِ ما هو مشاهد في كل يوم من إعجاب الوالدين والاقارب بكل كلمة خارجة عن حد الادب تجري على لسان الصغير وضحكهم لهُ حين يقولها واستعادتهم اياهُ ليضحكوا له من اجلها ثانية

ولا ينكرنَّ علينا احدٌ هذهِ الملاحظة فان هذا العيب فاشٍ بين كل طبقات الهيئة الاجتماعيَّة في الشرق من الخاصة الى السوقة ومن القصر الى الكوخ . ولقد حضرنا مرَّةً بل مرارًا مجالس عيليَّة تقطعت فيها الساعات على تعليم الابن الصغير كلمات الشتم لابيهِ وأُمهِ وكان ابوهُ وأُمهُ يعلمانه كلمات تلك الحكم الباهرة ويضحكان لهُ فرحين بالبذاءة التي يتفوَّه بها دون ان يفهم لها معنى

وحجة الوالدين في مثل هذهِ الحالة ان الولد صغير لا يفهم ولا يدرك فليس في تلقينهِ مثل تلك العبارات بأْس . وهم يجهلون ان الولد الصغير لا يبطئُ ان يصير كبيرًا والكلمات التي لم يكن بالامس يدرك لها مغزى اصبحت تتمثل لهُ في معانيها الحقيقيَّة دون ان يجد صعوبةً او انفةً من التلفظ بها لجريها على لسانهِ قبل ان يدرك معناها

وهكذا يربي الوالدون انفسهم ابناءهم على السفاهة ويعوّدونهم على

القول الهراء وكلمات البذاء وليس بين النقيصة في القول والنقيصة في الفعل حاجزٌ حصين بل ليس بينهما إلاَّ مسافة فتر لان ما تكثر من ذكرهِ يسهل عليك فعلهُ والاتيان بهِ فليتدبر الوالدون والمربون

وما تجب العناية بهِ في تربية الاولاد في البيت حملهم على التزام جانب النظافة في كل احوالهم فانك قلما ترى ولداً من اولاد العامة نظيف الوجه واليدين نظيف الثياب والملابس وفي ذلك من الضرر ما لا يخفى على احد مما بيّناهُ في الكلام على التربية الصحيَّة

وكذلك تجب العناية بتعويد الاولاد على النظام والترتيب في كل شيءٍ لان النظام يقي الاشياء من الضياع ويحفظ الوقت ويسهّل العمل

ولقد اتينا ههنا على ذكر الوقت فمن الواجب ان يُعلَّم الاولاد منذ صغرهم على ان الوقت ثمين فيجب الحرص على عدم اضاعتهِ فيما لا فائدة منهُ . واذا تعلَّم الولد منذ صغر سنهِ ان الوقت ثمين اصبح ضنيناً بساعاتهِ فلا يصرفها متى كبر في القهاوي والملاهي حيث تفسد الاخلاق وتضيع الصحة والعافية

ولما كان الشيء بالشيء يُذكر رأينا ان نوجه الانظار الى امرٍ كثير الحدوث في الشرق — وربما كان ذلك من جملة اقتباساتنا الغربيَّة — وهو انك تمرُّ في بعض الايام ولا سيما في ايام البطالة والاعياد امام بعض القهاوي فترى ابن الاربعين جالساً يدخّن والى جانبهِ ابن العشرة او الاثنتي عشرة جالساً على كرسي يأكل قطعةً من الحلوى ويجول بنظرهِ

بين جلوس القهوة والمارة في الشوارع

ولعمري كيف يأنف هذا الولد الصغير الذي تقوده بيدك يا ابن الاربعين الى القهوة من الجلوس فيها وقتل الوقت بين موائدها وكراسيها متى اصبح غلاماً كبيراً

ولسنا نقصد بهذا القول الى انهُ ينبغي منع الاولاد عن الخروج من منازلهم الى المنتزهات مع آبائهم واخوتهم ولكننا نرى ان للاولاد منتزهات خاصة بهم لا يجب ان تقوم مقامها القهوة مع ما هو معروف من اضرارها وسوءِ عواقب الجلوس فيها

ومن هذا القبيل سوق الاولاد وهم صغار الى الملاعب في الليل بدلاً من ان يتركوا في البيوت فيناموا ويتخذوا لاجسامهم راحةً تعوضهم ما فقدوهُ من قواهم البدنيَّة والذهنيَّة

وعادة اخذ الاولاد الى الملاعب حيث يقضون السهرة فلا يعودون الى البيت إلاَّ بعد انتصاف الليل آخذةٌ في التفشي والسريان يوماً عن يوم وهي من اشد العادات ضرراً وابعدها تأثيراً على مستقبل الاولاد

هذا وينبغي لنا ان نربي الولد على عقائد دينهِ ومذهبهِ واحترام الاديان الأُخر وعدم التعرُّض لما لا يعنيهِ والإكباب على البحث في المسائل المفيدة وتخصيص وقت لكل شيءٍ وعدم تأخير ما يمكنهُ فعلهُ اليوم الى الغد واكرام الضيف واحترام الغريب والجري على مبدإِ المساعدة والتكاتف والتروي قبل الكلام والتبصر قبل الحكم ومجانبة الحكم على الظواهر

وانزعِ الدعوى من رأس الولد وعلّمهُ احتقار الكبر والابتعاد عن الخيلاء اذا اردت ان يكون سعيداً واياك ان يهفو الولد مرّةً فتقعد عن تأديبهِ بدعوى انها المرة الأُولى فاذا عاد اليها أَدبتهُ فانهُ ينتقل بذلك من الهفوة الصغيرة الى الغلطة الكبيرة وربما رأَيتهُ بسبب اهمالك تأديبهُ من اجل هفوة لا تُذكر واقعاً في الخطإِ العظيم والجريمة الفظيعة

ولقد طال بنا الكلام على التربية في البيت ونحن مع ذلك لم نستوفِ كل ما يجب ان يقال في هذا الموضوع الخطير الذي لو تعمدنا ان نفيه حقهُ من التدقيق لما كفاهُ هذا الكتاب برمتهِ . فنحن اذاً نوجز الكلام واقفين منهُ عند هذا الحد تاركين ادراك ما لم نُشر اليهِ لفهم الآباء وذكاءِ الأُمهات وفطنة المربين والمربيات

الفصل الحادي عشر

التربية الطبيعية

لا نريد الخروج من هذا الموضوع خروجاً تاماً دون الاشارة الى فصل جليل في موضوع التربية في البيت نشرته جريدة الاهرام الغراء في عددها الصادر في يوم ٢٤ ايلول (سبتمبر) من عام ١٨٩٧ تحت عنوان „ التربية الطبيعيةً " وهو وان يكن فيه تكرار لبعض ما تقدم لنا بيانه في الفصول السابقة خليق بان لا يخلو هذا الكتاب منهُ وهو

„ للافرنج ولعٌ في ترقية النوع الانساني ولكتابهم شغف شديد في البحث عن كل ما يرقى بهذا النوع الى مدارج السعادة فهم يتتبعون الطفل من مهدهِ حتى يدرج في لحدهِ وينقبون في جميع ما يتقلب عليهِ من الاطوار وما يعتورهُ فيهـا من موجبات النقد والاصلاح تذرعاً الى بلوغ هذهِ الغاية التي يسعون وراءَها وهي سعادة الانسان

ولقد وقفنا في جريدة البتي جورنال على فصلٍ نشرهُ احد كبار كتاب الفرنسويين عنوانهُ التربية الطبيعيةً يريد بها تربية الاطفال على نمط يكفل صحة ابدانهم ويزيد في نموّ عقولهم وذلك بان تُنبذ تلك

المصطلحات القديمة في تربية الطفل والغلام ويُستعاض عنها بما سيجيءُ في
عرض كلام هذا الكاتب ايثاراً لسلامة البدن ووقاية العقل فقد قيل ان
العقل السليم في الجسم السليم

وان من اهم ما ورد في هذا الفصل الكلام عن الرضاع والقماط ورياضة
الاحداث وحالة الغلمان في المدارس وقد جاءَ في الكلام عن الرضاع انهُ
يجب ان لا يتغذى الطفل إلاَّ بلبن أُمهِ او بلبن مرضع سليمة البدن هذا
اذا تعذر على الأُم الرضاعة فان لبن النساء أَفيد للطفل فلا يجب ان يتغذى
بسواه الى ان يتجاوز العام

اما أَلبان الحيوان فانها تضرُّ بالاطفال اضراراً عظيمة منها عسر
الهضم والتورم وقد ينتج عنها الكسح في بعض الصغار. واما شدُّ الاطفال
بالقماط على الطريقة المصطلح عليها اليوم فهو من اشدّ ما يمرُّ بالطفل من
الاخطار اذ لا يجب ان تكون ثياب الطفل ضاغطة عليهِ إلاَّ ضغطاً
يسيراً وذلك في الشهرين الاولين من عمرهِ

وبعد ذلك فان الضغط عليهِ يُعدُّ من اعظم عقوبات ذلك الطفل
الصغير. ولأَن يترك الطفل بغير قماط وبغير اعتناء بلباسهِ خير لهُ من
تقييد تمريناتهِ الطبيعيَّة الأُولى

واما رياضة الاطفال فيجب ان تكون على ما يتطلبهُ ضعفهم من الرفق
فلا يجب ان يُحثُّوا على السرعة في المسير كما انهُ لا يجب على الطفل ان
يدرج او يعوَّد المشي قبل ان يبلغ الشهر الخامس عشر من عمرهِ لان

قدميهِ لا تستطيعان حمل جسمهِ قبل ذلك الحين. وليعلم الآباء والأُمهات
وكل من تُناط بهم تربية الاطفال ان الطفل شديد التوق الى الحركة كثير
الميل الى المشي يتطلبه بجزع فيفرغ جهدهُ وينال من ذلك اكثر مما
يطلب منهُ فلا يجب حثهُ على المشي والحركة ولا منعهُ عنهما بل يجب ان
يدعوهُ وشأنهُ ذهاباً مع العوامل الطبيعيَّة. وان الرياضة مفيدة لهُ وهو
يُسرُّ بها اضعاف سرور المربين الذين يصحبونهُ فيسير جيئةً وذهاباً بغير
انقطاع واحبُّ شيءٍ لديهِ ان لا يوبخ على ما يفعل وان لا يُدعى الى السرعة
في المسير عند ما يدعو اليها ضيق الاوقات فاذا روعيت هذهِ القاعدة في
رياضة الاطفال فقد نجح الطفل نجاحاً عظيماً في الدور الاول من ادوار
الحياة فانهُ بعد ان يقضي زمن الرضاع على الشرط الذي عيناهُ من الغذاء
بلبن أُمهِ وعدم شدهِ بالقماط تقوى معدته ويسهل هضمها وتنمو اعضاؤهُ
باسرها نمواً منتظماً على اتم ما يكون من التناسب. ويجب ان لا يُحرم من
الرياضة البدنيَّة كاللعب في الساحات النقيَّة الهواء والالعاب اليدويَّة والمشي
وركوب الدراجات وما شابهها متى نشط لها فان جميع ذلك مفيد لهُ. اما
مصيف الصغار فتستحسن الشواطىء البحريَّة لذوي الامزجة اللينفاويَّة منهم
ولكنها تضرُّ بالعصبيين وقد تبين بعد الامتحان ان هواء الجبال أَفيد
لاكثر الصغار وان مصيفهم في الشواطىء يجب ان يكون بأَمر الاطباء

بقي علينا البحث عن حالة الغلمان في المدارس فنقول

ان معاملة التلامذة في المدارس على ما نراهُ اليوم لا تنطبق في شيءٍ

على القوانين الصحيَّة وقد آن لنا ان نعلم ونحن في اواخر القرن التاسع عشر ان سجن التلميذ اثنتي عشرة ساعة كل يوم ينصبُّ فيها مكرهاً على الدروس المملة المضجرة يُعدُّ من اقوى دلائل الهمجيَّة · واي فرق يوجد بين تلك المدارس وبين السجون المعدة للاشقياء غير ان السجين يحجر عليهِ ولا يعمل والتلميذ يحجر عليه ويجهد بالعمل معاً فانهُ لا تكاد تزهق نفسه من درس حتى يبتلي بآخر وهكذا دواليك الى ان ينقضي النهار بين ما ذكرناهُ من إجهاد العقل وإزهاق الروح وبين ما يصيبه من حسر النظر لكثرة التحديق وهي علة فشت بين اكثر التلامذة كما نشاهده كل يوم بالعيان ذلك فضلاً عما يتعرَّض لهُ التلميذ من فساد الهواء لطول مدة اجتماع التلامذة في غرفة واحدة ولطول مدة اقامتهِ في مقعد واحد

وقد يكون هذا المقعد غير ملائم لهُ فتلتوي حركة الاعضاء وهي ليّنة في الاحداث فتنمو على اعوجاج كما اثبتهُ احد الباحثين بتصوير اعضاء تلميذ وهو جالس على مقعده في المدرسة وتصوير الاعضاء نفسها والتلميذ حرٌّ مطلق فكانت في الصورة الأُولى معوجة مضطربة وفي الثانية على أتمّ الاستواء

ثم ان المعلمين يجهدون التلامذة بالتمرينات البدنيَّة بحجة تقوية الاعصاب وقد فاتهم ان الاعصاب تابعة للرئة فلا تسلم إلاَّ بسلامتها وكيف تسلم رئة الغلام وهو يقاسي ما ذكرناهُ من الإجهاد والنصب

هذا بعض من كل مما نراهُ من الخلل في التربية المدرسيَّة واننا لانطيل

الكلام في هذا البحث اجتزاءً بما ذُكر وقياساً لما لم يُذكر عليهِ واننا نختم الكلام بهذا القول وهو ان الغلام سيشبُّ ويتجند وان الجيش لا يستتب لهُ النصر بالشجاعة والوطنيَّة فقط بل بالقوة الطبيعيَّة ايضاً »

ذلك كلام الجريدة الفرنسويَّة التي تشكو من فساد التربية في ارض التربية ومن سوء التعليم في بلاد العلم والمدنيَّة فاذا كان ذلك كلامهم فما عسانا نحن ان نقول

الفصل الثاني عشر

القوى النفسانية في الاطفال

رأينا ان نردف هذا الفصل بفصل في « القوى النفسانيَّة في الاطفال » نشرته مجلة البيان الغراء لرئيس انشائها الاستاذ العلاَّمة الشيخ ابرهيم اليازجي وهو بما حواهُ من الدلالة على منشاءِ الشعور والقوى النفسانيَّة في الاطفال ومواعيد ظهورها ونمائها ينطبق انطباقاً تاماً على موضوع الابحاث التي نحن فيها فلذلك آثرنا نقلهُ برمتهِ دون حذف منهُ او زيادة عليهِ وهو

« لا شيء احقّ بالانسان وأَليق بهِ من معرفتهِ حقيقة نفسهِ ولا شيء اكثر امتناعاً عليهِ وأَبعدُ عن مرامي بصرهِ من ادراك ما وَسِعهُ هيكلهُ من القُوَى العجيبة والتراكيب الغريبة ولذلك قالوا الانسان اشياءٌ كثيرةٌ فلكثرة ما هو بهِ كثيرٌ يعجز عن ادراك ما هو بهِ واحدٌ .

لا جرم ان هذا الهيكل العجيب والبناء البديع الذي هو آية الله في خلقهِ موءلف من دقائق لا يحصيها العدُّ ولا يحيط بها الادراك كلٌّ منها يقوم بعملٍ خاص ويستقلُّ بحياةٍ خاصَّة وينفعل بالقوى الفاعلة في جميع الاجسام وهذه الدقائق على كثرتها وتباين اشكالها واختلاف اوضاعها وتنوُّع

العناصر المكوِّنة هي منها تتضامُّ فتتكوَّن منها الاعضاء وتتكافأُ في القيام بما أُرصِدَت لهُ من المنافع التي تضمن لجملتها انتظام الاعمال الحيويَّة الى الاجل الذي أُتيح لها . فمعرفة الانسان نفسهُ من حيث هو مركَّب على كمال خَلقه وتمام خُلُقهِ لا تتهيأُ الاحاطة بها لعاقل لما يقف دونها من العقبات المنيعة ولا سيما في ما اختص منها بالنفس الناطقة التي هامت العقول في اودية البحث عنها والتطلُّع الى غوامض اسرارها فهي المشكلة المعضلة التي ما برح الطبيعيُّون والفلاسفة والمتكلمون يتجاذبون اطراف حلها كل فريق على نحو ما فتح عليهِ بمقدار علمهِ وثقوب ذهنهِ

لا جرم ان النفس البشريَّة مع ملازمتها لبدن الانسان وحلولها فيه من ابتداء تكوينهِ انما تُعرَف بالقوى التي تصدر عنها والظواهر التي تبديها ونحن انما نبحث عنها الآن بحثاً علمياً في ابسط احوالها منذ تجليها على هذا الكائن الحي وهو جنين في احشاء أُمهِ الى ما بعد ميلادهِ بثلاثة اشهر مقتصرين في ذلك على ما قلّ ودلّ من غير تعرُّض للمذاهب الفلسفيَّة والمغالطات الجدليَّة اذ ليس من غرضنا الجولان في فيافي الخيال ولكننا انما نوءثر تقرير الحقائق العلميَّة الثابتة ببرهان المعاينة والامتحان

ذهب ارسطو الى ان النفس تظهر في الجنين بعد اربعين يوماً من حمله وعليهِ جمهور المتقدمين ومنهم حكماءُ العرب والقديس توما اللاهوتي [1].

---

[1] زعم ارسطو ان الجنين يكون ذا نفس في اليوم الاربعين اذا كان ذكراً وفي اليوم الثمانين او التسعين اذا كان انثى وتابعه في ذلك القديس توما اللاهوتي

ومن الثابت اليوم ان الجنين يتحرك في الأُسبوع الثامن حركة رحويَّة فيتخذ الحبل السرّيّ الشكلَ اللولبيَّ والدليل على ان هذا الشكل من حركته ان الحبل المذكور لا يكون كذلك في الكثيرات الاجنة في الحمل الواحد اذ لا يبقى لاجنتها مجالٌ للحركة وربما تحرَّك حركة اختلاج وارتعاش منذ الأُسبوع الرابع وهو وقت تكوُّن الاطراف · ولا تشعر الأُم بارتكاض الجنين إلاَّ منذ الأُسبوع الثامن عشر وهي حركة تزداد بمقدار نمائه حتى يولد وربما دلَّت على بعض المؤثرات الخارجيَّة كالاحساس بالبرد · اما حقيقة هذه الحركات وهل هي صادرة عن غير وجدان او هل يجوز ان تظهر قوى النفس قبل الولادة فالباحثون في منافع الاعضاء على انها قسْريَّة من حيث طبيعتها منعكسة من حيث مصدرها والمتكلمون يقولون ان الجنين يشعر باللذة والأَلم ولا ريب في ان ذلك لا يكون إلا عن وجدان فهو ذو نفس كاملة · ولا يُنكر ان الوجدان موجودٌ حينئذٍ في ابسط احواله وانما هو أَثريٌّ يأْخذ في النماء منذ ذلك الحين ولا يزال يزداد ويتكامل بعد الولادة حتى يصير الطفل قادراً على تمييز نفسه عن غيره من الكائنات · وعليه يكون مبدأُ القوى النفسيَّة الفعل العصبي المنعكس حيث لا يكون للعقل والارادة سلطان ولو كان للحركة الصادرة عنهُ علة غائيَّة مقصودة اذ الانفعال لا يكون بدون فاعل

ثم ان الجنين يولد لتمام حمله طفلاً لا قوام لهُ في ذاته لانهُ لا يستطيع ان يستقل بنفسه متحركاً حركةً يتوصل بها الى جلب النافع ودفع الضار

وحواسُّهُ لا تعينهُ على معرفة الموجودات مما حواليه فلا تتطرق بها المحسوسات الى قوى النفس الباطنة وكأَنَّهُ قد أُلقي في تيَّار هذا العالم بين اضطراب امواجه وليس لهُ من نفسه ما يساعدهُ على العوم فيه فاذا لم ترأَمهُ أُمُّهُ يهلك · وأَوَّل ما يبديه عند الولادة استهلالهُ بصياحٍ يدلُّ على تأَلُّمه لتغيُّر البيئة عليه وملامسة الهواء جلدهُ ونفوذه الى مسالك التنفس حتى اقصى حويصلاتها وتأْثير اشعة النور على شبكيته الى غير ذلك مما لم يأْلفهُ من قبل · وكأَن المولود ينعر لساعته من وحشةٍ يجدها لفراق وطنه الذي كان فيه او كأَنهُ يشكو ضعفهُ في تنازع البقاء ومغالبة الطبائع وفي ذلك مجال ينفسح فيه القول للفلاسفة والشعراء بالحكم وما احسن قول ابن جريج الرومي وقد ذكر هذه الحالة وما تُأُوِّل به من لطيف الحكمة

لِما تُؤْذِن الدنيا بهِ من صروفها ... يكونُ بكاءُ الطفل ساعةَ يُوضعُ
وإلاَّ فما يُبكيه منها وانها ... لأَفسحُ مما كان فيه واوسعُ
اذا عاينَ الدُّنيا استهلَّ كأَنهُ ... بما سوف يلقى من أَذاها يُفزَّعُ [1]

ثم انهُ يكون في بداءَة هذا الطور من حياته قاصراً همهُ على الغذاء والنوم فلا يظهر من آثار قوى النفس حينئذٍ إلاَّ الاعمال التي يسميها علماء

[1] وتروى هذه الابيات بثلاث قوافٍ غير هذه فيلي في الاولى منها يولد وفي الثانية ارغد وفي الثالثة يهدد فيكون فيها على هذا نوع التخيير المشهور عند اهل البديع

المنافع بالمنعكسة والفلاسفة بالقوى البهيمية او الشهوية. على ان حاسة اللمس تكون موجودة لان الجسيمات والألياف العصبية تتكوَّن في الشهر الخامس من الحمل وتنمي نماء سريعاً فيبلغ وزن الدماغ عند الولادة ٣٨١ غراماً وفي السنة الأُولى بعد الولادة ٩٤٥ غراماً وتظهر تلافيف الدماغ في الجنين منذ الأُسبوع العشرين وتزداد غوراً وامتداداً بتقدم العمر ومنذ ذلك الوقت تتعين المراكز العصبية التي ترد اليها المؤثرات الخارجية وتصدر عنها الحركات المتساوقة. ولذلك كان مبدأ القوى النفسية ورسمها ظاهراً منذ الولادة لما هو معلوم من ان اعمال العقل لاتقوم إلاّ بالمجموع العصبي فقول علماء المنافع انها موقوفة على حركة الدقائق العصبية غير سديد لان بين حركة الدقائق والوجدان بوناً سحيقاً

ومعلوم ان الانسان في مبدإِ الفطرة خالٍ من تحقق الاشياء إلاّ انهُ مجهزٌ بآلات يُدرك بها كيفياتها بما بينهـا من المناسبات والمباينات فينتزع المعلومات الصادقة المحققة. وهذهِ الآلات هي الحواس الخمس التي تنقل المحسوسات الى الحس المشترك فيعرضها على القوى العقلية حيث يقع الادراك والتمييز والحكم والارادة وتصدر الافعال الحركة وغيرها . ولكل من هذه القوى مقرٌّ خاص في الدماغ يتعين بعد الولادة اذ لا سبيل قبلها للتأثر بالمحسوسات الخارجية فقد ثبت ان الحيوانات التي تولد عمياً كالكلاب لا يتعين مقرُّ القوة المحركة في قشرة ادمغتها إلاّ بعد ان تبصر بثلاثة ايام فالحركات التي تبديها قبل ذلك انما تكون منعكسة مصدرها

النخاع المستطيل لا الدماغ لانها غير خاضعة للارادة خلافاً للحيوانات التي تولد مُبصِرةً كالخنزير والقنفذ فان حركاتها تكون ارادية صادرة عن مقرٍ معيَّن في الدماغ ينشأ حين الولادة باقتضاء المنفعـة المترتبة عليهِ كما هو الحال في الاعضاء التي يتوقف وجودها على عمل تنفعل بهِ اذ تكون المنفعة هي العلة الفاعلة في التكوين. ولا ينكر ان للارث شأناً في ذلك فان العضو يتهيأ بواسطتهِ للعمل قبل ان يقع على الحيوان تأثيرٌ من الخارج

واللمس هو اول الحواس منشأً واعظمها للحيوان نفعاً وكثير من الحيوانات السافلة ليس لها من الحواس غيره. على انهُ يظهر في النوع الانساني في الشهر الخامس من الحياة الجنينية ويكون اثرياً غير منتظم الى ما بعد الولادة بشهرين فيصير حينئذٍ وسيلة لادراك اول ما يتهيأ للاطفال ادراكه من المحسوسات الخارجية

وينشأ الذوق على اثر نشوءِ اللمس لان الحاجة ماسة اليهِ منذ الولادة فاذا أُدخلت حينئذٍ اصبعٌ الى فم المولود مصها كأَنهُ يحاول الرضاع ثم يتبرم من ذلك بعد ايام كأنهُ قد شعر بالفرق بين الوهم والحقيقة. واذا أُعطي لبن البقرة غير محلَّى بقليل من السكر مجهُ وذلك دليل على سرعة نماء هذه الحاسة فيهِ. وبعد قليل يظهر تعلقهُ بمرضعهِ واذا اتى عليهِ شهران منذ ولادتهِ لم يعد يطيق استبدالها وليس الامر كذلك من قبل. على ان هذه الحاسة تجلب للطفل لذة لا تجلبها حاسة أُخرى في بدءِ امرهِ

والشم انما ينشأ بعد نشوءِ الذوق بمدة فهو متمّ لهُ اذ يكون وسيلة

لمعرفة الطفل بمرضعه بعد شهرين من ولادته وقد روي انه كان لداروين طفل يستروح أمه عن بعد ٨٠ ميليمتراً فيحدق ببصره اليها ويحرك شفتيه طلباً للرضاع

ومعلوم ان طفل الانسان يولد غير مغمض العينين فاذا عُرض للنور عند ولادته انقبضت حدقتاه وطرف بجفنيه وهو دليل على تأثر الشبكية ولكنه في الحقيقة لا يبصر لان مقر البصر في الدماغ لا يتعين حينئذ وانما يتعين بعد الممارسة والتكرار وألفة الاشياء المُبصَرة على التدريج حتى تظهر قوة التنبه عند نهاية الشهر الاول بعد الولادة · ولا مراء في ان حاسة البصر هي رائد العقل في ادراك المحسوسات لانها الوسيلة لادراك الابعاد ومعرفة السطوح ولا يتهيأ ذلك إلا في الشهر الثاني وهي تشترك مع حاسة اللمس في تمهيد السبيل لمعرفة الطفل باستقلال جسده عن الاجسام حواليه

اما حاسة السمع فتظهر في الطفل بعد ثلاثة ايام من ولادته بدليل انه يصيخ للمناغاة ويثور جأشه بالصخب على انها اقل نماءً من حاسة البصر لاقتصارها على معرفة الاصوات

وهنالك قوى نفسانية أُخر تظهر في الاطفال منذ نشأتهم مصدرها الفطرة وغايتها المحافظة على البقاء وليس لها علاقة بالوجدان ولكنها تنتقل اليهم بطريقة الارث الطبيعي وقد سُميت بالخلق والسليقة والغريزة وسماها الحكماء بالقوى الشهوية والبهيمية ومن خصائصها التماس المنافع ودرء المضار ·

ومنها التنفس وهو اول تباشير الحياة يظهر حال الولادة اذ يباشر الهواء جسم الطفل · والنوم ويترجح حدوثه قبل الولادة فيعلل به عن الفترة في حركات الجنين وهو لا يستوقف قوى النفس لان بعض الاطفال تظهر عليهم ابتسامة في النوم كأنهم يرون رؤى مفرحة وبعضهم يحركون شفاههم للرضاع واحياناً تُرى المقلة تتحرك تحت الجفون الوسنى · والغالب على الاطفال النوم كثيراً ولا سيما في النهار حتى يبلغوا اليوم العشرين من ولادتهم فيقل بالتدريج بعد ذلك · ومنها الخوف وهو في الاطفال مسبب عن أمور لا يكترث لها غيرهم كالقماط والغسل · والبكاء وهو لا يكون إلاّ بعد نشوء الغدد الدمعية عقيب الولادة بعشرين يوماً وما كان قبل ذلك فهو صياح وصراخ · والابتسام وهو لا يكون قبل الشهر الاول · والضحك وهو لا يظهر إلاّ بعد نهاية الشهر الثاني الى غير ذلك

والطفل يبقى في اول اطوار الحياة مدة تحت ملكة الافعال العصبية المنعكسة واحكام الغريزة لا يُدرك من حقيقته ما يعرف به ذاتيته ولا يميز بين جسم وآخر فعمل حواسه أثري ووجدانه مفقود الى ان يصير قادراً على تحقق بُعد الاجسام واختلاف سطوحها بواسطة البصر وذلك لا يتأتى له إلاّ عند نهاية الشهر الثاني من ولادته · ويُستدل عليه في الأُسبوع السادس بعد الولادة بحركة ارادية تظهر بتوجيه الطفل رأسه نحو أمه اذا سمع صوتها فيتعلم ثمت ان يوجه عينيه نحو الاشياء المرئية ويمرن على ذلك الى ان يصير قادراً على تسديد بصره فتظهر حينئذ

علامات التنبه في بدء نشأته

ويصاحب نماء حاسة البصر على ما تقدم ارتقاء حاسة اللمس فالطفل في بدء حياته يمسك الشيء الذي يوضع في راحته بدون وجدان فانقباض يده حينئذٍ انما هو فعلٌ عصبيٌّ منعكس غير خاضع للارادة ثم يصير بتكرار التجربة والممارسة عملاً ارادياً يصاحبه نموُّ الحس العضلي فتظهر الحركات العضليَّة المتساوقة

ومتى بلغ الطفل الشهر الثالث من عمره قويت حواسه على تحقق المحسوسات وخضعت الافعال العصبية المنعكسة لسلطان العقل والارادة وانفتحت لهُ ابواب الهداية بما يُعرض عليه من المؤثرات التي يستفيد منها العلم بما يكون نافعاً او ضاراً فيألف النافع وينفر من الضار ولا تزال القوى العقليَّة تنمي بالممارسة والاكتساب طوراً فطوراً والاستعداد الطبيعي يمهّد امامها سبل الارتقاء حتى تبلغ الشأوَ العجيب . ومن الغريب ان الانسان في بدء امره ينسى كثيراً من الحوادث والآثار التي ترد عليه فلا يحفظ منها إلاَّ ما كان مفيداً لهُ في امر تنازع البقاء ولذلك كانت الذاكرة ضعيفة في اول العمر

ومعلوم ان هذه القوى تكون في الحيوانات غريزيَّة في اصل فطرتها فالفراخ مثلاً تلتقط الحب حالما تنقف واجراء الكلاب تمشي عند ما تولد والمهر يستوي على قوائمه حينئذٍ والقرد يتسلق الاشجار بخفة منذ ولادته ولكن ذلك فيها يقف عند درجة القوة البهيمية فلا يتعداها الى القوى

السامية المميّزة للانسان وهي التي تدخل تحت الارادة والعقل وتأخذ في النماء والارتقاء منذ اول اطوار حياته على ما تقدم بيانهُ حتى تبلغ فيه الى درجة الكمال »

الفصل الثالث عشر

العيلة

قال بعضهم لاحد الحكماء الاقدمين احب ان أرى الدنيا فقال لهُ اتبعني أرِك اياها في طرفة عين

ولا تسل عن دهشة الرجل عند ما رأى الفيلسوف يسير بهِ الى منزل جارهِ وكان ذا امرأة وبنين فأومأ الى تلك العيلة المجتمعة وقال هذهِ يابنيّ هي الدنيا

أجل ان هذهِ العيلة التي تتألف في الغالب من الأب والأم ومن سبعة او ثمانية بنين وبنات لهي الدنيا باجمالها تتمثل في تلك الأُسرة من الشيخ الهرم الى الطفل الرضيع ومن الرئيس الى المرؤوس ومن القوي الى الضعيف ومن العالم الى الجاهل ومن المعلّم المرشد الى المتعلّم المستفيد ومن القائد المحنك الى المسترشد الساذج · وبالاجمال انك اذا نظرت الى الأُسرة بعين التبصر والإمعان تجلّت لك وهي الصغيرة المؤلفة من عشرة اشخاص او اقل في مظهر العالم الكبير الذي تروح فيهِ وتجيءُ مئات الملايين من الناس

واذا كانت العيلة هي الدنيا فما اسمى مقامها وارفع شأنها بل ما اسمى وظيفة رئيس تلك العيلة واعظم عهدتهِ فهو في رئاسة العيلة كالملك في رئاسة الشعب عليهِ مثل واجباتهِ ولهُ مثل حقوقهِ في السلطة والاحترام · وكما ان صاحب السلطان في الشعب مسؤول عن تقدم الشعب ورفاهه كذلك صاحب الرئاسة في العيلة مسؤول عن مستقبل كل فرد من افرادها

ولقد قلنا في مفتتح هذا الفصل ان العيلة هي الدنيا وبالتالي الجنس البشري باجماله · ومثل هذا القول يقودنا طبعاً الى الحكم بان الجنس البشري كله عيلة واحدة · ولسنا نجد حاجة الى الاسهاب في هذا الموضوع والإكثار من هذا القول فلقد تقدمنا من قالهُ قبلنا بافصح قول واجلى بيان

وليس من ينكر ان الحكماء الاولين والعقلاء المعاصرين بل كل فيلسوف وباحث في شؤون الهيئة الاجتماعية بل كل نبيّ مرسل قالوا كلهم ان الجنس البشري على اختلاف مذاهبهِ والوانهِ وعاداتهِ عيلة كبيرة واحدة يجب على اعضائها ان يحب بعضهم بعضاً وينصر القويُّ منهم الضعيف ويأخذ بيدهِ ويشد ازرهُ

وقد قال احد علماء اوروبا ان الجنس البشري كله عيلة كبيرة يمدُّ فيها الكبار ايديهم الى الصغار ليرفعوهم اليهم · ولا يخفى ما في هذا القول من السداد والحكمة السامية ومن الادلة على ان العيلة الصغيرة المتألفة من الأب والابن والأم والابنة انما هي تمثل الجنس البشري الذي هو العيلة الكبيرة

واذا كانت العيلة الصغيرة صورة العيلة الكبيرة ومثالها كانت العناية بها بمثابة العناية بالجنس البشري كله دون استثناء . وعلى هذا القياس فلا بدع في ان يكون الاهتمام بأمرها في كل زمان ومكان موضوع نظر الفلاسفة ومرشدي الشعوب وقادتهم حتى اننا رأينا حكماء الشعوب الوثنيّة انفسهم يأمرون بالنظر في امر العيلة نظراً دقيقاً يكفل بسعادتها ليكون هناؤها وسيلة الكمال للجنس البشري كله

ومما يدلك على اهتمام الاقدمين انفسهم بهذا الامر الخطير قول كنفوشيوس فيلسوف الهند وكبير حكمائها انهُ « لا سبيل الى سياسة العيلة وتدبيرها وادارة شؤونها ادارة حسنة إلاَّ باعطائها المثل الصالح »

وهذا القول موجَّه طبعاً الى رؤساء العيلات وارباب الأُمر وبالتالي الى الوالدين الذين في ايديهم زمام الامر وعلى تدبيرهم يتوقف مستقبل العيلة بل مستقبل الشعب بل الجنس البشري برمتهِ

وكم رأينا في الشرق رجالاً أَخذوا على انفسهم ان يكونوا رؤساء عيلات وبالتالي قادة الهيئة الاجتماعيَّة ومدبري شؤونها فأَفسدوا بسيرتهم ما كان من امرها صالحاً او زادوها بسلوكهم اعوجاجاً على اعوجاج بدلاً من ان يكونوا نبراساً يهدي ضوءُهُ الى الكمال ومناراً يهتدى بنورهِ الى الصراط المستقيم

ولو علم امثال هؤلاء مقدار ما يجنون على الدنيا ومقدار ما يساعدون على شقاء العالم لكانوا هم قضاة انفسهم دون ان يقضي عليهم احد . ولكن

الانسان موضع الضعف بل هو موضع جهل نفسه ورحم الله القائل

ومن جهلت نفسهُ قدرهُ   رأى غيره منهُ ما لا يرى

فلذلك ترى عيلات برمتها تشقى بجهل رئيسها وتسير في طرق التعاسة بغباوة قائدها . بل لذلك ترى الشعوب التي لا تعرف قدر العيلة تنحط وتزداد في كل يوم انحطاطاً

هذا ولكل عيلة كما هو معروف رئيسان طبيعيان هما الأَب والأُم فلنأْخذنَّ قليلاً في الكلام عليهما جاهدين بقدر الاستطاعة في بيان وظيفتيهما والطرق التي ينبغي لهما ان يتخذاها لاداء هاتين الوظيفتين الساميتين بما يجب من الامانة فنقول

ان الله تعالى لما خلق الانسان وكوَّنهُ جعلهُ شريكين هما الأَب والأُم نفرض عليهما بهذهِ الشركة فرضاً يجب القيام بهِ قياماً تاماً وفاءً لحق تلك الشركة واعترافاً بنعمة الله. والفرض الكبير الذي نشير اليهِ هو ان يتمَّا فعل الخلق العظيم بتربية الولد الذي يرزقانه تربية تقودهُ الى السعادة في هذهِ الحياة الدنيا

والسعادة كما لا يخفى على احدٍ لا تنال إلاَّ باستيفاء شرطين طبيعيين اولهما سلامة البدن وثانيهما سلامة الذهن . فوظيفة الوالدين اذاً هي ان يساعدوا الطبيعة في عملها ليصبح الولد الصغير بعنايتهم رجلاً قوياً في جسمهِ وعقلهِ قادراً على تحمل مشاق الحياة وحل مشاكلها

ولقد تقدَّم لنا في باب التربية الصحيَّة كلام على الوالدين الذين

لا يعرفون شيئاً من مبادىء هذه التربية الخطيرة بل هم لا يعرفون كيف يحافظون على صحتهم قبل العناية بسلامة اولادهم فلسنا بعائدين الى البحث في ذلك الموضوع ولكننا نود ان نفسح ههنا المجال لملاحظة ربما لم يذهب ايرادها في هذا المكان عبثاً وهي ان الأَب والأُم لما اقترنا بعقد الزواج تعاهدا سواءٌ بالتضمين او بالتصريح على ان يقوما على تربية من يولد لهما من الاولاد قياماً حسناً كافلاً بان يبلغ بهم الى تمام السعادة والهناء في الوجهين المادّيّ والأَدبيّ . ولا يمكنهما من الوفاء بما ضمناهُ إلاَّ معرفتهما باساليب التربية البدنيَّة والذهنيَّة معاً وهو امرٌ متيسرٌ إلاَّ للذين لايعرفون اهميَّة الزواج وسموّ منزلته وخطارة الواجبات العيليَّة والفروض الابويَّة

ونحن اذا اجملنا الكلام على اهل الشرق يُباح لنا القول ان ليس بيننا من يحسن القيام بواجب التربية المقدس قياماً يكفل لهُ الوفاء بما ضمنهُ يوم عقد زواجهِ

ولسنا ندَّعي انهُ لا يوجد بين الوالدين والعيلات عندنا من يحسن الاقتداء بهم ويجدر اتخاذهم مثلاً في التربية العامة على ان أُولئك هم النادر عندنا والنادر لا حكم لهُ وليس هو من موضع نظرنا في شيءٍ وانما نحن نتكلم بالإجمال

والعجيب من امر العرب الاقدمين والمحدثين السالفين والمعاصرين انهم لم يتركوا معنى إلاَّ طرقوهُ ولا موضوعاً إلاَّ اكثروا من الكلام عليهِ وتأليف المصنَّفات فيهِ ماعدا اقرب الأُمور اليهم والصق المواضيع

بهم ونريد بذلك التربية العامـة بوجه الاجمال والتربية العيليَّة بنوع التخصيص كأَنَّ الفريقين جميعاً كانوا اعزاباً او كأَنهم كانوا يكتبون لتعليم الاعزاب فقط مع افتراضهم بقاءَهم اعزاباً حياتهم بطولها فاهملوا امر تعليم الوالدين من آباء وأُمهات فن تربية الاولاد اهمالاً تاماً بحيث لا يُرى في كتبهم شيءٌ من هذا القبيل على اهميتهِ وشدة الحاجة اليهِ

واول ما يؤْخذ عليهِ الوالدون عندنا جهلهم ابسط قوانين التربية والمبادىء الصحيَّة فتراهم اذا شبَّ لهم ولد على فساد او على مرض قالوا انها مصيبة ابتلاهم بها الله في حين انهم اذا نظروا الى ذلك من قريب ادركوا ان تلك المصيبة قد جابوها هم على انفسهم وذلك لجهلهم المبادىء الأَوليَّة المتعلقة بالتربية الصحيَّة والذهنيَّة او لاهمالهم اياها وتقاعدهم عن القيام بها فما جنى احدٌ عليهم بل على نفسها جنت براقش

ولقد سبق لنا القول في الاسطر السابقة من هذا الفصل بل في اماكن عديدة من هذا الكتاب ان التربية تنقسم الى قسمين هما التربية البدنيَّة والتربية الذهنيَّة . ومعلوم ان التربية البدنيَّة مقدمة على التربية الذهنيَّة لانها ينبغي ان تبدأ مع الجنين وهو في بطن أُمهِ في حين ان التربية الذهنيَّة لا سبيل الى الأَخذ فيها قبل ان يترعرع الولد في مهدهِ

وقولنا ان التربية البدنيَّة ينبغي ان يُشرع فيها والولد جنين في بطن حاملهِ ليس من قبيل الغلوّ والمبالغة بل هو من قبيل الحقائق التي يجب ان ترسخ في عقول الوالدين بل في عقول الأُمهات بنوع خاص لان

المعيشة التي تجري عليها المرأة وهي حامل تأثيراً عظيماً في بنية الطفل الذي يتغذّى وهو في احشائها بالدم الذي تكتسبه سواءٌ بما تقتات بهِ من المآكل والمشارب او بما تستنشقه من الهواء · وكثيراً ما يحدث ان الولد يكون ضئيلاً كثير الامراض فاذا بحثت عن السبب فيما يقاسيهِ من الضعف والعلة وجدت سبب ذلك كله ما كان عليهِ ابوهُ قبل حمل أمهِ بهِ او ما كانت عليهِ أمهُ وهي حامل بهِ · وليس في استطاعتنا ان نوضح هذا القول ببيان اجلى من هذا البيان فليقرإِ الوالدون فيما بين السطور واللبيب تكفيهِ الاشارة

ثم ان كثيرين من الازواج يرزقون البنين والبنات فيتركونهم للطبيعة تنمي اجسادهم وتقوي ابدانهم على غير عناية منهم ولا نظر في حين ان الطفل في اول ايامه احوج الى المداراة والوقاية منهُ بعد ذلك لانهُ كضوء الشمعة في ضعفهِ وكما ان الشمعة تطفئ ضوءها نسمة السحر كذلك الطفل الصغير يؤثر فيهِ كل طارئ من العوارض بين جويّة وغير جوية ولذلك كان ينبغي للوالدين ان يحيطوا الطفل الصغير بسياج من الوقاية والتدابير الصحيّة يكون له بمثابة الزجاجة التي تحيط بنور المصباح فتمنع عنهُ الهواء وتبقيهِ متقداً مضيئاً

ذلك بعض ما يتعلق بالأمور الصحيّة في العيلة وبقي من المسائل العيليّة امران خطيران ونريد بهما التربية الذهنيّة والتربية الادبيّة في البيت اما التربية الذهنيّة فقد مرَّ بشأنها في الفصول السابقة كلام مستفيض

بيّنا فيه الخطة التي يجب على الوالدين والمربين ان يتبعوها مع الاولاد لترهيف اذهانهم وتثقيف عقولهم ومع ذلك فلسنا نرى بدّاً من الوقوف ههنا ولو قليلاً عند هذا الموضوع الخطير للإلمام على ايجاز واختصار بما لم نشر اليهِ في ما تقدم لنأمن الكلام في هذا المعنى

واول ما نطلق في ميدانهِ عنان القلم امرٌ لاحظناهُ ونبهنا اليهِ فيما كنا ننشرهُ عن موضوع التربية في جرائد البلاد ومجلّاتها وهو ان الامهات والمربيات بنوع خاص يربين الولد على الجبن والخوف فيكبر هيّاباً وجلاً خاضعاً لسلطان الوساوس والتخيلات الوهميّة وذلك انهنّ يبادرن لاقل حركة يأتي الولد بها الى تخويفه بالغول والضبع وبكل « بعبع » لهُ في هذا الكون وجود او لاوجود لهُ · وحجتهنّ في ذلك ان الولد لا يسكت ولا يسكن إلّا بالتخويف والإرهاب وهي حجة واهية ودعوى ما أنزل الله بها من سلطان · ولو علمت الأم او المربية انها تزرع بذلك بذار الجبن والاحجام في قلب ولدها وتمدُّ لهُ قيداً يمنعهُ الإقدام في المستقبل ويكون عاملاً على غلّ يديهِ عن السعي اذ انهُ يفقدهُ الجرأة اللازمة للنجاح لعدلت عن هذه الخطة المذمومة وعملت على بثّ عواطف الجرأة والشجاعة والاقدام والحماسة في فؤاد هذا الطفل الرضيع الذي عهد بهِ الى عنايتها لتجعل منهُ رجل العمل والاقدام

وقد عرفنا شباناً ورجالاً لا يجسرون على التماس غرض ولا يُقدمون على ارتياد مصلحة او طلب حاجة وهم مع ذلك على علم ومعرفة فتراهم اذا

كانت لهم حاجة لا يخطون نحوها خطوة بل ينتظرون ان تأتي هي من نفسها اليهم او ان يسعى فيها لهم نسيب او صديق

بل شهدنا رجالاً عديدين تسنح لهم الفرصة وتعرض لهم الحاجة فلا يعرفون ان يمدوا اليها يداً بل يمنعهم الخجل والجبن والخوف عن اغتنامها

لا بل عندنا كثيرون تضيع حقوقهم المقدسة الثابتة لجبنهم عن المطالبة بها

واذا نظرنا ولو قليلاً الى الخطة التي تتبعها العيلات مع اولادها وهم في سن الصغر اذ يؤثر اقل شيء في عقولهم تأثيراً يظهر فعلهُ في كل اطوار حياتهم حتى يُدرجوا في الاكفان ويغيبوا في ظلمات اللحد نجد في جملة ما يطمسون بهِ على اذهانهم طبع الخرافات في عقولهم والاعتقاد بالاوهام التي تحول دون التفقه وإرهاف الاذهان واستنارة العقول

ولقد رأينا كثيرين استولت عليهم الخرافات والاوهام في صغرهم فكبروا على عقائد ما انزل الله بها من سلطان ولا رضي بها عقل في زمن من الازمان

وكثيراً ما تكون الخرافات سبباً في خراب البيوت العامرة اذ تسهل باستيلائها على العقول سبيل التدجيل والمخرقة فيسير اصحابها بأولئك الذين خيمت الخرافات على عقولهم الى هاوية الخراب ولجة الفقر . ولولا تهامل الوالدين واهمالهم هذا الامر الخطير منذ صغر اولادهم لما وجد المخرقون والمشعوذون والدجالون سبيلاً الى الاحتيال وخراب بيوت العباد ولم

يكن يوجد من يبيع بيته ورياش منزله وحليّ أمهِ وامرأتهِ لينفق ثمن ذلك كله في التفتيش عن كنز والتنقيب عن لقية . ولكن سوء طالع الشرق قضى عليهِ ان يكون مهد الخرافات ومنبع الاوهام والاضاليل وان لا يقف هذا الداء الوبيل عند حدٍ بل ان يتفشى في كل احوالنا متنقلاً من الدين الى العلم الى العادة الى ما لا نهاية لهُ من أُمورنا وشؤُونا

ومن يصدق انهُ لايزال في بلادنا من يعتقد « بولاية » المجنون ومن ينذر النذور لشجرة ويوقد عندها المصباح على اعتقاد ان روح وليٍ من الاولياء تأوي اليها

فقد حدث لنا مرَّةً اننا ذهبنا في الرمل الى منزل في محطة صفر وكانت على مدخل المكان شجرة قديمة جرداء وقد اجتمع حولها ثلاث نساء من المصريات وهنَّ جالسات جلسة الملتمس المستعطي . فنظرنا الى الشجرة فاذا الشرائط الحمراء والخضراء والصفراء وسواها من كل لون مدلاَّة منها كألوان قوس السحاب وعند جذع الشجرة مصباحان او ثلثة مصابيح موقدة فحرنا في الامر ولما سألنا لم ينقص العلم بسبب تلك الحالة من حيرتنا ولم يقلل من دهشتنا اذ قيل لنا ان تلك الشجرة « وليّ » او هي مأوى لروح وليٍ وان الرجال والنساء يقدمون بالهدايا والنذور لذلك الوليّ فتأمل

ونحن لا نتعمد الدلالة ههنا على كل خرافة من هذا القبيل فلذلك لسنا نزيد على ما ذكرناهُ ولو شئنا ايراد كل ما سمعنا بهِ او شهدناهُ باعيننا

وتحققناهُ بانفسنا لضاق بنا مجال هذا الكتاب برمتهِ . وانما اشرنا الى ما اشرنا اليهِ عرضاً ليقاس على ما ذُكر ما لم يُذكر

والغريب من امر الخرافات في الشرق سواءٌ ما كان منها متعلقاً بالعقائد الدينيَّة مما هو منافٍ للدين منافاة تامة او ما كان منها عائداً الى العلم مما يخالف الاصول العلميَّة المقرَّرة وينقضها من اساسها بحيث يكون معها على طرفي نقيض انك لا تجد من كتَّابنا من يعنى باظهار فسادها ويجري قلمهُ في بيان مضارها وتعليم العامة نبذها واطراحها ظهرياً

بل انك قلمَّا تجد في الخاصة انفسهم من يضحك مستهزئاً من خرافة تذكر لديهِ او وهم يعمل بهِ امامهُ. ولعمر الحق اننا لا ندري مثلاً لماذا لا تُنبه العامة عندنا الى ان الحوت لا يأكل القمر وان القمر عند ما يُخسف تكون الارض قد توسطت بينهُ وبين الشمس فمنعت نورها ان يصل اليهِ اذ ان القمر يستمد نوره من الشمس فمتى حجبتهُ الارض عنها اظلم فلا دخل اذاً للحوت في المسألة ولا القرع على الصفائح يجدي

على اننا بدلاً من ذلك ترانا نشارك العامة بخرافاتها واوهامها حتى انك لتجد مجالس بعض الخواص والكبراء والاغنياء مجمعاً لعرض الخرافات ومجالاً لبيان الاضاليل والاوهام. فاذا حضرها الولد وابن العامة استولت الخرافات على عقله لان الولد الصغير يتعلم ممن هو اكبر منهُ وابن العامة والسوقة يتشبه ويقتدي في كل شيءٍ بمن هم ارقى منهُ حتى انهُ ليفكر مثلهم ويعتقد اعتقادهم

وكيف لا يحزن كل من يحب وطنهُ وشعبهُ حباً اكيداً ويغار على هذا الشرق غيرة حقيقيَّة عند ما يرى الاوروبيين مشتغلين في ساعات الخسوف والكسوف برصد الافلاك لاكتشاف المخبآت ويرى صغارهم حتى اولاد العامة والسوقة منهم يرصدون على سبيل التقليد ناظرين الى القمر المخسوف من وراء زجاجة سوَّدوها بالدخان ثم ينظر الى الاحياء الوطنيَّة في الشرق فلا يرى غير حملة الصفائح ولا يسمع غير قرعها والاولاد يقفزون ويصيحون كأنما قد قامت القيامة كل ذلك « إرهاباً للحوت الذي ابتلع القمر »

بل كيف نرجو ان تصلح أمورنا وتزول الاوهام والخزعبلات المتسلطة على عقولنا وقلوبنا اذا كنا نرى الكتبة وطلبة العلم الشريف عندنا لا يأنفون من نقل الخرافات في كتبهم دون دحضها وتفنيدها او على الاقل الدلالة على انها خرافة تنافي العلم الحقيقي والمعارف العصريَّة

أَوَلم نقرأ في كتاب لاحد شيوخ العلم في القطر وهو شابٌ من الشعراء الادباء الاذكياء ان في غياب الشمس اقوالاً جمة منها انها تتوارى في البحار ومنها انها تدخل جوف حوت فيبتلعها ويتم في الليل هضمها فتبرز في الصباح...

فاذا كان الشيخ الشاعر الاديب الذي قرأ العلم في الازهر الشريف ينقل مثل هذهِ الروايات دون الاشارة الى فسادها فهل يُلام العامي اذا صدقها واعتقد بها وهي مرويَّة لهُ عن لسان شيخ من طلبة العلم الذين يعتقد

بانهم فوقه بدرجات وانهم أبعد منه معرفة واصح اعتقاداً وعلماً بل انهم معصومون عن الخطإ في مثل هذه العلوم

وانها لجريمة ان يكون رؤساء العيلة وقادتها اول حائل دون تربية الذهن وشحذه وإرهافه وذلك بطبعهم العقائد الخرافية والخزعبلات الوهمية في عقول الأولاد

وقد قرأنا في بعض كتب التربية لاحد مشاهير كتاب فرنسا كلاماً عرّبه بعضهم بما خلاصته « ان تربية الذهن انما هي إعانة الطبيعة على إرهافه وشحذه وان ذلك لا يكون كيفما جرى واتفق بل بمقتضى نواميس طبيعية لايجوز للابوين ان يجهلا مبادئها ولا ان يحيدا عن طريقها. وكل والد يجهلها وكل أمّ تحيد عن طريقها لا يصلحان لاعانة الطبيعة على إتمام فعلها بل هما عدوّان لها يعملان على إحباط عملها . والولد اول ما يتخرّج ذهنه يتخرج بما يعيه شيئاً فشيئاً من تلقاء نفسه وتتنبه له فطنته عفواً من الخواطر البسيطة والمعاني المفردة حتى اذا اجتمعت له طائفة متجانسة منها في شيء بعينه تذرّع بها الى معرفة ذلك الشيء بمقدار ما يستطيع . فمن واجبات ابويه اذاً ان يسهلا لذهنه تحصيل تلك الخواطر والمعاني وذلك بان يعدّا له يوماً فيوماً من الاشياء والأمور التي تقع تحت حواسه ما تتنبه له فطنته ويفهم بعض امره بسهولة حتى اذا ادرك شيئاً من كنهه بالخبرة والمعاينة والملابسة بنفسه انتقش معناه في لوح ذهنه »

ومن ذلك يتحصل ان الأمور التي تعرض للولد في صغره والعبارات

التي تطرق أذنيه في نعومة اظفاره تنتقش على لوح صدره . وقد قيل العلم في الصغر كالنقش في الحجر فلذلك يجب ان يعنى الوالدون والمربون بانارة عقل الولد وانتزاع الخرافات والاوهام من ضميره

ولسنا نطيل الكلام فوق ما اطلناه في هذا الموضوع وان كان هو في حدّ نفسه يحتمل التطويل . على اننا مع التماسنا طريق الايجاز وشدة رغبتنا في الاقتضاب لانرى بدّاً من التنبيه قبل الخروج من هذا الموضوع الى مسألة قليلة الاهمية في ظاهرها بعيدة التأثير في حقيقة امرها وهي مسألة المراضع المربيات والخدم في العيلات

وغنيّ عن البيان ان المربين انما يعطون مما عندهم ويبثون في الاولاد اخلاقهم وادابهم وعاداتهم وتصوراتهم ويعلمونهم مبادئهم وعقائدهم وبالتالي انهم ينفخون فيهم من ارواحهم ولو استطاعوا لاعادوا خلقتهم وولادتهم ليوجدوهم على صورهم وامثلتهم . فمن الخرق في الرأي ان يترك الاهتمام بامر المربي والمربية وتهمل العناية بحسن اختيارهما والقيام على مراقبتهما والنظر في امر سلوكهما

وكثيراً ما كانت هذه المسألة سبباً في ضياع تربية الاولاد لقيامها منذ البدء على غير اساس متين . وعندنا انه خير للاب ان يقوم هو بنفسه وافضل للأم ان تعمل هي بيدها على تربية الابن والابنة اللذين رزقهما اياهما الله تعالى من ان يكلا هذا الامر الخطير الى من لا يعرف ان يقوم به او الى من يستصغر مهمته فيه ويلطخ ذمته بوصمة اهماله وعار

التقصير في شأنه

ذلك فيما يختص بالمربين والمربيات الذين سيأتي الكلام عنهم بالتفصيل في موضعه من هذا الكتاب · اما المراضع والخدم فليس امرهم بأقل اهمية من أولئك وكثيراً ما يحدث ان يكبر الطفل ضئيلاً نحيف البنية كثير العلل بسبب مرضعه وان يشب دنيء النفس غير ابيّها طويل اليد بذيء اللسان قليل المحاسبة لنفسه والاحترام لوالديه والوقار لمن هو اكبر منه شرهاً نهماً كارهاً للنظافة والترتيب الى غير ذلك من المعايب والنقائص ويكون السبب في ذلك كله خادم البيت او خادمته اللذين لا يعرفان لجهلهما مقدار ما يؤثر المثل في الاطفال ومقدار ما تفعل الكلمة الواحدة التي يُلفظ بها امام الاولاد

ولذلك قلنا في احد الفصول المتقدمة انه ينبغي التأمل في كل كلمة تُقال امام الاولاد والنظر في عواقب كل لفظة يُتلفظ بها امامهم ولا سيما في مجامع العيلة ومجالس الأسرة حيث تكون كلمة الأب قاعدة يُجرى عليها بلا شواذ واشارة الام خطة تتبع بلا استثناء وفعلة الكبير مثلاً للصغير يتبعه ويجري عليه بلا مراء ولا جدال

ولقد اطلنا في هذا الموضوع حتى اننا لنخشى ملل القارىء لولا ما نعلمه من شرف القصد الذي نقصده وسموّ الغاية التي نرمي اليها وهي تربية هذا الولد الصغير حتى يصبح رجلاً حقيقياً جامعاً للكمالات التي تؤهله للسعادة والهناء

ولما كانت السعادة لا تكون كاملة شاملة إلاّ متى قام المرء بواجبه قياماً تاماً ووفى الغرض الذي يُطلب منه من كل وجوهه كان اول ما ينبغي للعيلة ان تعرفه هو أن سعادة الولد موقوفة على التربية التي تمنحه اياها ليقوم فيما بعد بما يُفرض على الرجال ويكون سعيداً

وايّ أب وأم لا يريدان ان يبلغ اولادهما اوج السعادة واعلى قمم الهناء ولكن الوالدين لسوء الحظ يريدون السعادة لاولادهم ولكنهم لا يعرفون كيف يعدّون لهم اسبابها

ولذلك كان يجب على رؤساء العيلة ان يعلموا ان السهر على تربية اولادهم عهدٌ اتخذوه على انفسهم يوم شرعوا بانشاء هذه العيلة التي هم رؤساؤها · وان اولادهم اذا وجدوا التعاسة بدلاً من السعادة التي انما خلقوا لاجلها فالذنب في ذلك عليهم دون سواهم لانهم لم يحسنوا القيام بما يُطلب منهم

اما الوجه الادبي في الكلام على العيلة فقد رأينا ان نفرد له فصلاً برمته لنتمكن من ان نفي هذا الموضوع الخطير حقه من البحث والتنقيب والدلالة على مواضع الخلل والتماس وجوه الاصلاح والله الهادي الى سواء السبيل

الفصل الرابع عشر

كيف ينبغي ان تكون العيلة

لم يكن في النيَّة ان نجعل هذه العبارة عنواناً لهذا الفصل بل كنا قد جعلنا لهُ عنواناً آخر وسميناه ُ « الآداب العيليَّة » ثم عرض لنا حديث مع سيدة انكليزيَّة جاءَت القطر منذ اربع سنوات واقامت تشتغل فيه بالتربية والتعليم متنقلة من عيلة الى عيلة ومن بيت الى بيت بين الاجانب والوطنيين اي بين الغربيين والشرقيين وبالتالي بين المسلمين والمسيحيين والاسرائيليين فدار الحديث بيننا على التربية العامة والفرق بين التربية في بلادنا والتربية في بلاد الافرنج فكان من جملة ما حزنَّا لسماعهِ منها قولها « ان التربية في الشرق لا تستحق ان تسمى تربية » وقولها « ان الآداب العيليَّة عندكم لا وجود لها على الاطلاق بل ان العيلة تكاد تكون عندكم اسماً لغير مسمى »

ذلك ما سمعناه ُ من فم امرأة غريبة دخلت بيوتنا وجلست في منازلنا وخالطت عيلاتنا فاختبرت تربية اولادنا وامعنت في النظر الى كيفيَّة معيشتنا فحكمت بعد الاختبار والتروي ان « تربيتنا فاسدة وان الآداب العيليَّة معدومة عندنا وان العيلة نفسها تكاد تكون اسماً لغير مسمى » وما

امرَّهُ حكم على قلوب الشرقيين بل ليت بني الشرق يتخذون مثل هذا الحكم عبرة يعتبرون بها وقد قيل العاقل من رأى العبرة في غيرهِ فاعتبر فكيف لا نعتبر ونحن انما نراها بانفسنا

ومن وجهٍ آخر فقد درسنا نحن بانفسنا هيئة الاجتماع عندنا اياماً عديدة وسنين طويلة فلم يتضح لنا منها ولم يبدُ لنا من خططها ما يسهّل لنا دفع تلك التهمة ومحو تلك الوصمة بل رأينا التقصير في تربية الشعب واهمال السعي في ايجاد العيلة الحقيقيَّة ألصق بنا من ظلنا الذي كلما هربنا منه وجدناه ُ معنا كيفما التفتنا

ولذلك رأينا بعد إعمال الرويَّة ان نجعل لهذا الفصل عنواناً خاصاً يدلُّ على مضمونه ويشير بجلاءٍ الى القصد منه ُ فسميناه ُ كما رأيت في عنوانهِ « كيف ينبغي ان تكون العيلة » وجلُّ ما نرجوه ُ ان لا يجد مواطنونا في هذهِ التسمية وما سيأتي من الكلام في سياق هذا الفصل ما يجوّز لهم او ما يجوّزون معه ُ لانفسهم ان يرمونا من اجلهِ بسوءِ القصد او يتهمونا بالتحامل فانما القصد الذي نقصده ُ صالح والنيَّة بحمد الله حسنة وانما الاعمال بالنيات وبحسب نياتكم ترزقون

ذلك ما رأينا ان نذكره ُ في مفتتح هذا الباب توطئةً وتمهيداً لما سيأتي من الاقوال التي ربما ساءَ بعضهم الاطلاع عليها اما لعدم فهمهم حقيقة معناها واما لحملهم اياها على محمل الذم والتنديد غير ناظرين الى القصد الحقيقي من الاشارة الى كل ما نشير اليه وهو الدلالة على موضع الخلل

لالتماس وجوه الاصلاح

ومعلوم ان الامة تتألف من مجتمع عيلات وان العيلة تتألف من مجتمع افراد فالفرد الواحد اذاً مثال العيلة إلاَّ فيما شذَّ والعيلة الواحدة مرآة الشعب وصورة الأُمة إلاَّ فيما ندر

وعلى هذا المبدإ الذي لا يناقض ولا يمارى فيهِ يكون الذين يحكمون على أُممنا العربيَّة وشعوبنا الشرقيَّة بالتقهقر والانحطاط قياساً على احوال العيلات عندنا مصيبين في حكمهم تمام الاصابة · لانك اذا نظرت الى العيلة عندنا نظر المتأمل البصير الذي لا يقف عند حدّ الظواهر ولا يقنع بقولهم ان فلاناً هو من العيلة الفلانيَّة ليحكم بوجود العيلة في الشرق "كما ينبغي ان تكون" تجد ان العيلة عندنا انما هي شبه العيلة الحقيقيَّة لا هي بتمامها

وبيان ذلك ان العيلة عندنا انما هي عبارة عن رجل تزوَّج فاصبح ذا بيت يأوي اليه — وكان قبل ذلك يأوي الى بيت ابيهِ — وامرأة تستقبلهُ حين مجيئهِ الى البيت — او لا تستقبلهُ على حدٍ سواء — على شرط ان تدبّر منزلهُ وتهيئ طعامهُ — وسواء كان ذلك بهمتها او بعناية الخدم — وذا بنين وبنات يحبهم ويحبونه — او لا يحبهم ولا يحبونه فذلك ليس بالامر المهم ذلك من جهة الرجل اما من جهة المرأَة فيكفي في نظرها انها تزوَّجت · واما الاولاد فمساكين لا يعرفون ما هي الدنيا ولا يفهمون ما هي العيلة وعلى ما يرون يشبُّون ويكبرون فاذا جاء دورهم وتزوَّجوا أَلَّفوا العيلة على حسب النظام الذي عرفوهُ في صغرهم والهيئة التي طُبعت

عليها طباعهم

وليسوا لعمرك بملومين ولا هم يؤاخذون فانما نُعطي الذي أُعطينا وما كلَّف الله نفساً غير ما وسعت

ولرب قائلٍ يقول ان ارباب الأُسر ورؤساء العيلات الآن غير ملومين على هذا القياس ولا هم مؤاخذون بتقصيرهم لانهم هكذا كبروا وكما ربَّاهم آباؤُهم هم يربون اولادهم وكما كانت عيلات آبائهم هم يؤلفون عيلاتهم ولسان حالهم ينشد انما نُعطي الذي أُعطينا

نعم هكذا ربى اجدادنا رؤساء عيلاتنا ولمعذورون هم لولا انهُ لم يبقَ في عصر النور الذي نحن فيهِ وعهد التربية الحقيقيَّة والعلم الصحيح الذي وصلنا اليهِ عذر لمقصّر ولا حجة لجاهل مهمل · فالمثل امامنا والعبرة نصب اعيننا وقد اختلط بنا الاجانب حتى صار بعضهم كأَنهم منا فلماذا نتشبه بهم في كل ما يجلب الضرر علينا وعلى هيئتنا الاجتماعيَّة وآدابنا الشرقيَّة ولا نأْخذ عنهم الكمالات العيليَّة وطرق التربية الصحيحة النافعة التي تؤَهل الافراد لتأْليف العيلة والعيلات لتأْليف الأُمة العظيمة القويَّة ·

ونحن في وسعنا ان نجاريهم ولكن استمساكنا بكل شيء من التقاليد القديمة وتشبُّثنا بكل ضارّ من العادات السابقة يحولان بيننا وبين الاصلاح في احوالنا كلها حتى في شؤُوننا العيلية ومعيشتنا البيتيَّة نفسها ورحم الله القائل

ولم ارَ في عيوب الناس عيباً ... كنقص القادرين على التمامِ

ولعمري انك اذا شئت ان تعرف كيف لا ينبغي ان تكون العيلة او

كيف لا يليق ان تكون المعيشة البيتيَّة فأَدِر عينيك في الشرق ووجِّه نحو مصر نظراً خاصاً يتمثل لك ما نسميه ههنا بالخلل العيلي في اشنع هيئاته ويبدو لك فساد التربية العيليَّة في اقبح صورهِ فانك لا تجد بين الخاصة والعامة معاً إلاَّ ما ندر من نموذج العيلة الحقيقيَّة المتأَلفة من اب وام يدركان سمو مهمتهما ادراكاً تاماً واولادٍ يعرفون المبادئ العيليَّة

ولا ينكر علينا احدٌ ان هذهِ العيلة الصغيرة المركبة من الأَب والام وبضعة بنين وبنات انما هي مثال الهيئة الاجتماعيَّة التي يتأَلف منها المجموع الوطني وعلى هذا القياس كما تقدم لنا القول مراراً تكون العيلة الصغيرة مثال الأُمة الكبيرة ومرآة الوطن باجمالهِ فاذا لم يكن النظام والترتيب والسلطان والخضوع والحب والالفة والعفاف والنزاهة من صفات العيلة الصغيرة لم تكن هذهِ الفضائل والكمالات بحكم الطبع من صفات ذلك الشعب او تلك الأُمة التي تمثلها هذه العيلة

فانظر بعينك الى حقيقة الاحوال في بلادنا واحكم اذا شئت ان تحكم بنزاهة نفس وحريَّة ضمير وخلوٍّ عن الغرض والتشيع والمحاباة

انظر ترَ الرجل يعيش وحده والمرأَة وحدها والاولاد مع الخدم . ترَ الرجل في مجلس والمرأَة في مجلس والاولاد بين المجلسين . ترَ الرجل لا يعرف لامرأَتهِ مقاماً وهي لا تشعر من نحوه بعاطفة سوى الرهبة والخوف فهو السيد الآمر لا الرفيق الصديق وهي الامة الخاضعة لا شريكة حياتهِ وعشيرة ايامه وأم بنيه

انظر ترَ الرجال والنساءَ من اجل هذا التفرُّق لا يعرفون عاطفة الحب والاحترام لازواجهم ولا لاولادهم . وذلك امرٌ طبيعي فان الرجل الذي لا يحب امرأَته ويحترمها لا يحب اولاده وهكذا المرأَة التي لا تحب رجلها وتحترمه فانها لا تحب اولادها واول الروابط العيليَّة الحب والاحترام

انظر الى الاوروبيين حتى سوقة القوم والدرجة السفلى منهم تتمثل لعينيك حالة العيلة الحقيقيَّة اذ أَنك ترى هناك ما لا ترى لهُ اثراً عندنا من الائتلاف بين افراد العيلة من كبيرها الى صغيرها من الأَب الرئيس والأُم المسنَّة الى الابن الصغير الذي يدب على يديهِ ورجليهِ والفتاة الطفلة الرضيعة

بل انك ترى هناك المشاركة في الحياة على اجمل صورها وابهى هيئاتها وترى التضامن العيلي على ابدع اشكالهِ واسمى انواعهِ . واذا طرقت باباً لهم في ساعة العشاء مثلاً وجدت حول المائدة العيلة التي تمثل الهيئة الاجتماعيَّة وقد قام في صدرها الاب الرئيس واحاط سائر اعضاء تلك الهيئة بهِ ودار الحديث بين الكبار الذين يعرفون والصغار الذين يجهلون فأُولئك يفيدون وهؤُلاء يستفيدون والاب الرئيس يفتي وينصح ويشير ويدير نظام ذلك الاجتماع فما ابهى وما اجمل مثل هذا الالتئام . بل ما ابهى وما اجمل – على قول داود النبي والملك – ان ترى „ اولادك حول مائدتك كأَغراس الزيتون "

وكيف تصلح حال أُسرة لا يحب افرادها بعضهم بعضاً الحب العيلي

الحقيقي وكيف الوصول الى مثل هذا الحب السامي المقدس دون ان يعرف افراد الاسرة بعضهم بعضاً معرفة تامة حقيقيَّة واي سبيل الى هذا التعارف اذا كان لا اجتماع ولا ائتلاف وكان مجلس الرجل وحده ومجلس المرأَة وحدها والاولاد بين المجلسين

لعمري اننا اذا نظرنا بعين الامعان الى انحطاط الشرق وتقهقره وجدنا بين اسباب الحالة التي صرنا اليها المعيشة العيليَّة التي نحن فيها والتربية الفاسدة التي نتلقاها • ثم اذا نظرنا الى تقدُّم الغرب ونجاحهِ حتى اصبح رجاله يأمرون وينهون لا في بلادهم فقط بل في بلاد غيرهم ايضاً وصاروا يفكرون حتى في اقتسام الشرق فيما بينهم وفي تجزئته والاقتراع عليه وهو الذي عنه اخذوا تمدنهم ومن بحار علومهِ ومعارفه اغترفوا علومهم ومعارفهم وجدنا ان هذه القوة التي تعلي كلمتهم وترفع رؤُوسهم حتى تناطح السحاب انما هي مستمدة من التربية الجيدة التي يمنحونها لاولادهم والمعيشة العيليَّة الحقيقيَّة التي يتمتعون بها

ونحن مالنا وللغرب نضربه مثلاً ونذكر اهلهُ عبرة في حين اننا لفي غنى عن ذلك كله بما عندنا في الشرق نفسه من الشعوب والممالك التي كانت بالامس خاضعة لنا ففكت رباطها وحلت قيدها وخلعت عنها سلطتنا واصبحت ذات عروش والوية ولغة رسميَّة بل صارت تتطاولُ باعناقها الينا وتطلب ان تسير وايانا على قدم المساواة • فما الذي قوَّاها واضعفنا وما الذي رفعها وحطنا سوى ان العيلة عندها هي كما ينبغي ان تكون العيلة

بل مالنا ولتلك الشعوب الغريبة عنا وان تكن في حكم الشرقيَّة مثلنا • البعيدة منا وان تكن قريبة الينا ونحن عندنا الآن في بلادنا نفسها ما يكفينا مؤُونة التمثيل والتماس العبر • او لسنا نرى في مصر وسوريا خاصة فرقاً عظيماً وبوناً شاسعاً في احوال بعض العناصر والطوائف التي يتألف منها سكان هذه البلاد • فلماذا تختلف حالة طائفة من طوائف هذه البقعة عن الطائفة الأُخرى كل ذلك الاختلاف العظيم فترى ابن الطائفة الواحدة مثقَّف الخلق نيّر البصيرة جريئاً مقداماً راغباً في التقدم محباً للشغل ملتمساً للعلاء وترى الرجل منهم ينصر رفيقه ويشدُّ ازرهُ ويتهافت على مساعدته كأَنهُ شقيقه لابيهِ وأُمهِ • في حين انك ترى العكس في احوال بعض الطوائف الأُخرى فلا ادب في الخصال والعادات ولا فكر نيّر ولا جرأَة ولا إقدام ولا انكباب على العمل ولا مطمع في مراتب العلاء ولا ولاء قوميّ ولا ائتلاف شعبيّ بل ولا حب اخوي لا بل ولا عواطف والديَّة ولا شعائر بنويَّة والعياذ بالله

فما سبب هذه الحالة السيئة التي تمزّق قلوب الوطنيين الحقيقيين حزناً واسفاً لانها في حقيقة الامر ونفس الواقع تمزق قلب الوطن واحشاء الجامعة القوميَّة وتؤَدي بالمجتمع الشعبي الى التفرق وبالتالي الى الخمول والتقهقر والانحطاط ثم الى الدخول في ربقة الاجنبي

أَجل ما هو السبب ياترى في ما نحن فيهِ • سؤَالٌ لسنا نحوم كثيراً في مضمار البحث لنجد لهُ جواباً بل نحن نردُّ القارىء اللبيب الى مفتاح

هذا الفصل الى الكلام على " كيف ينبغي ان تكون العيلة " فيجد الجواب عليه

نعم ان علة العلل التي تنخر عظم هذا الشرق وتقتل في نفوس ابنائهِ عواطف الائتلاف والمحبة والاقدام والشجاعة والعفة والنزاهة وما سوى ذلك من العواطف الشريفة والشعائر السامية التي تمثل التربية الحقيقيَّة والعلم الصحيح وترفع الأُمة الى اعلى قمم النجاح والفخر انما هي كون العيلة عندنا على غير ما ينبغي ان تكون بل هي كون العيلة عندنا اسماً لغير مسمًّى

ونحن لا نستطيع الدخول ههنا الى مضمار البيان والإفصاح باكثر مما فعلنا مخافة ان يُعدَّ دخولنا في هذا الباب بمثابة الدخول الى ما لا يجوز لنا الاشتغال بهِ ولا الالتفات اليهِ · بل قد يحسب البعض كلامنا في هذا المعنى من قبيل التطفل والتطاول ولا سيما اذا عمدنا الى الكلام على هذهِ العلة بالتفصيل وبيَّنا الاسباب المؤدية اليها واوغلنا في البحث عن نتائج تعدُّد الزوجات والتشديد في الحجاب

ومع ذلك فلسنا نرى بدًّا من الالماع الى بعض نتائج هذا الامر الخطير ولاسيما وقد بدأ بعض مواطنينا من ادباء المسلمين واكابر كتبتهم بالتنبيه الى هذا الامر الجلل والخوض في عباب موضوعهِ · فقد قرأنا في الجرائد والمجلاَّت العربيَّة على اثر ما كنا ننشرهُ من المقالات الانتقاديَّة على هيئة الاجتماع في الشرق مقالات عديدة لكثيرين من اخواننا ادباء المسلمين في القطرين المصري والشامي ضمَّنها اصحابها ملاحظات جمة مبددة

في ذلك الموضوع الخطير وفي التربية العيليَّة بنوع خاص · وقد سمعنا ان عالمًا من جلة العلماء المسلمين وهو احد رجال القضاء في مصر قد شرع في وضع كتاب خاص في الزواج والحجاب فنحن نمسك القلم عن الجري في مضمار هذا الموضوع المهم لان اصحابه اخلق منا واجدر بالكلام عليهِ بما يقتضيه من التطويل والتفصيل · وانهُ ليسرنا ان يبدأ كتاب المسلمين بالتنبيه الى التربية العيليَّة لان البدء في ذلك فأل حسن وتبشير بقرب الوصول الى الغاية

واذا رأَيت من الهلال نموهُ   ايقنت ان سيصير بدرًا كاملاً

ومما يحسن ان نختتم بهِ هذا الفصل قول الفيلسوف مونتسكيو الفرنسوي " ان العيلة العفيفة الفاضلة هي بمثابة سفينة تشدُّ طرفيها في خلال الزوبعة بمرسيين هما الدين والتربية الجيدة " · ولعمري انهُ قول يجدر ان يكتب بأحرفٍ من ذهب على باب كل منزل من منازل العيلات فليتدبره أُولو الحجى وليتبعهُ ذوو الذكاء

الفصل الخامس عشر

الآداب العيلية

لم يكن الإكثار من الكلام في كيف ينبغي ان تكون العيلة ليمنعنا من تخصيص فصلٍ آخر بالكلام ولو بايجاز واختصار على الآداب العيلية فاننا كما تقدَّم لنا القول في الاجزاء السابقة لا نبرّئ آدابنا العامة من المغامز والمعايب .

ولسنا نتعمد الدلالة على كل عيب ومغمز في آدابنا العامة فانهُ امرٌ يطول شرحه ولا تكفيهِ عدة صفحات من هذا الكتاب فلذلك نأخذ الامر بجملتهِ على رجاء ان لا يرى احدٌ فيما نكتبهُ ونشير اليهِ من هذا القبيل سوى توخي الخدمة العامة والتماس وجوه الاصلاح

تقدمت لنا في الفصل السابق اشارة الى ان الهيئة العيليّة في الشرق تكاد تكون اسماً لغير مسمًّى وقلنا ان الرجل في مجلس والمرأة في مجلس والاولاد بين المجلسين . ولهذه الحالة كما لا يخفى على الناقد البصير نتائج وخيمة واضرار جمة لانها تنجلي عن ضياع التربية ضياعاً تاماً . وذلك ان الاولاد اذا لم يكونوا في الصغر تحت نظر والديهم او في عناية مربيهم مع

مراقبة الوالدين لهم بحيث يشعر الولد بان اعين ابيهِ وأُمهِ ترعاهُ على الدوام خرج عادماً كل صفة جيدة واحساس شريف

ولعمري ايُّ رادعٍ للولد عن الكلام البذيء وعبارات السفاهة والفاظ التجديف وعن النميمة والكذب والغش والاحتيال اذا لم يكن عالمًا بان عليهِ من ابيهِ وأُمهِ حارسين يرقبان حركاتهِ وينصتان الى كلماتهِ فيكافآنه اذا احسن ويعاقبانه اذا أساء

ثم كيف يجري الولد على المثل الصالح ويقتدي بالصنع الحسن اذا لم يرَ المثل امامه وصنع ابيهِ يتقدم صنعهُ . ومعلوم ان الولد يجب ان يكون لديهِ ما يقتدي بهِ فاذا أُخرج من مجلس أَبيه وأُمهِ لينشأَ في مجالس الخدم والغرباء لم يكن امامه إلاَّ كل مثل غير صالح

ثم من يعلّم الولد ان هذهِ الكلمة قبيحة فلا يجب ان يقولها وان تلك العبارة معوَّجة سقيمة فينبغي لهُ ان يصلحها وان ذلك الرأي خرافة ووهمٌ فلا يصح ان يعتقد بهِ . ومن يعلّمه كيف يسلّم على من هم اكبر منهُ وكيف يخاطبهم ويجلس في حضرتهم وكيف يجلس للاكل ويتناول الطعام وكيف يحمد الله على ما اسبغ من النعمة ويشكره على ما أَبعد من النقمة وكيف يتهيأُ للنوم وكيف يلزم في كل هذهِ الاحوال جانب النظافة التامة اذا لم يكن يرى المثل من ابيه وأُمه

بل من يوضح للولد ما أَشكل عليهِ فهمهُ مما يعرض من الأُمور ويفسّر لهُ الكلمة التي لا يفهم معناها ويشرح لهُ المسألة التي لا يدرك فحواها

اذا كان ابوهُ في مجلس وأُمهُ في مجلس وهو بين المجلسين لا في هذا ولا في ذاك

لا بل كيف يمتنع الرجال انفسهم عن ايراد القصص السافلة وسرد الحكايات التي حشوها الكلام البذيء والتفكه بالاقوال التي يخدش وقعها الآذان وتحمرُّ لسماعها الوجوه اذا لم يكن في المجلس من النساء او الاولاد من يتجافى الرجل عن مثل ذلك امامهم

ولا ينكر علينا احدٌ ان في وجود امرأَة واحدة او ولد صغير واحد في مجلس يضمُّ عشرين او ثلاثين رجلاً كفاية لتقييد أَلسنة أُولئك العشرين او الثلاثين عن التفوه بكلمة واحدة غير لائقة ولغلّ ايديهم عن الاتيان باشارة واحدة خارجة اقل خروج عن ظل الآداب. فلماذا اذاً نعمل نحن بايدينا على تهديم السياج الذي يقي الآداب العيليَّة من الضياع ونسعى بقدمنا الى الوهدة التي تهوي فيها الفضائل والكمالات وذلك بان نكون نحن في مجلس ونساؤُنا في مجلس واولادنا ضائعون بين المجلسين

ونحن نضرب لذلك مثلاً شهدناهُ بنفسنا وهو ان رجلاً من علماء الفقه في بيروت كان يلقي دروساً في حلقة لم يكن يحضرها غير الرجال فكان متى طرق باب الزواج والطلاق وغيرهما من امثال هذهِ الامور لا يسمّي الاشياءَ إلاَّ باسمها بل كان يذكرها باقبح اسمائها دون ان يكلّف نفسه عناءَ استبدال كلمة تحسب سفيهة وان كانت في وضعها تفيد المعنى بكلمة غير خارجة عن حدود الادب وهي تفيد المعنى بتمامهِ. فلما سُئل

في ذلك قال وممن تراني استحيي أَلست في حلقة رجال

ثم لم يمضِ على ذلك زمن طويل حتى استدعي الاستاذ الى القاء دروس في الفقه في منزل احد الاغنياء لتعليم ولدين لهُ كانا في غرَّة صباهما وكانت والدتهما تحضر الدرس. ولا تسل عن ارتباك المعلّم في بادئ الامر وتلعثم لسانهِ وذلك انهُ كان قد أَلف القاءَ الكلام على عواهنهِ دون التدبر واعمال الروية وانتقاء الالفاظ في التعبير لوجودهِ دائماً في حلقة من الرجال فلما جيءَ بهِ لتدريس فتيين صغيرين في حضرة امرأَة رأَى نفسهُ مضطراً الى محاسبة نفسهِ على كل كلمة تدور على لسانهِ وتخرج من بين شفتيهِ

اذن فوجود النساء والاولاد في مجالس الرجال شكيمة لهم رادعة عن كل ما لا اثر فيهِ للادب وكان بعيداً عن جمال الفضيلة والكمال. فلذلك كان من الواجب على روءَساء العيلات عندنا ان يجعلوا مجالسهم مجالس عيليَّة يرأَسها الاب وتخضع فيها المرأَة والاولاد خضوعاً مجازياً ادبياً اذ ان العيلة — كما قال تين الفيلسوف الشهير — تقوم بعاطفة الخضوع والطاعة من قبل المرأَة والاولاد في سياسة الزوج والاب

وهل يعتب السيدات ويحنقن على موءَلف هذا الكتاب فيقمنَ عليهِ القيامة كما فعلنَ مرَّة « بثعلبة » حين قال لهنَّ الحق على صفحات الاهرام في السلوك الذي يسلكنه والتربية الفاسدة التي يجري بعضهنَّ عليها اذا قال لهنَّ ههنا ان مجالسكنَّ ايتها السيدات المصونات لا تخلو اذا خلت من الاولاد والرجال من مغامز لا تليق بربات المنازل ولا تتنزَّه عن

عبارات لا يجوز ان تجري على السنة أمهات البنين

وليس من ينكر علينا ان النساء كالرجال فكما ان الرجال لا يعقلون لسانهم ولا يضعون شكيمة لجماح تصوراتهم اذا كانوا على خلوةٍ وانفراد في مجلس لايرى فيهِ غير ذوي الشوارب واللحى فكذلك النساء يطّرحن برقع الحياء الكمالي ويردنَ دون حساب موارد الخفة في الحديث والتصورات اذا خلت مجالسهنَّ من الرجال والاولاد

ونحن لا نلقي القول في هذا الموضوع على علاتهِ دون تجربة ولا اختبار ولو شئنا ان نورد عليهِ الامثلة والادلة لما عدمنا الف مثل والف دليل يثبت صحته ولكننا نكتفي باستشهاد الرجال والنساء وشهادتهم حق هي . فليقل لنا الرجال هل يقدمون على احاديث المجون السافلة اذا كانت نساؤهم بينهم . ولتقل لنا النساء هل يجسرنَ على التلفظ بكلمة بارزة عن حد الحشمة والادب امام رجالهنَّ او احد اولادهنَّ الصغار . معاذ الله ان يكون الجواب نعم نقدم ونعم نجسر . بل نحن نجلُّ عامتنا قبل خاصتنا عن مثل ذلك الانكار للادب الشرقي الطبيعي

وقد يقول بعضهم وهم لا يفكرون في ما يقولون ايُّ شرّ عظيم في ان يخرج المرء في بعض الاحيان عن جادة الجد الى فسحة المزاح والمزاح ملح الكلام . ولكن هل تعتبر المباحث المجونيَّة والاقوال السفسطية والعبارات البذيئة والكلمات السفيهة من قبيل المزاح الجائز يا حضرات المعترضين . وهل يجهل احد او ينكر ان مثل تلك الاحاديث تكون اعظم عوامل

الفساد واضمن الوسائل المؤدية الى ضياع التربية

لا لعمري انهُ ليس من يجهل ذلك ولا من ينكر حقيقته وهو خال عظيم في هيئة الاجتماع عندنا ينبغي ملافاته ونقص كبير في المجتمع العيلي في الشرق يجب اصلاحه

ومن وجهٍ آخر أفلسنا نرى القلوب حتى بين الاقارب والانسباء بل بين الاخوة والبنين والآباء على غير ائتلاف ولا حب حتى انك قلما تجد عيلة على رأي واحد واخوين على قلب واحد بل قلما تجد اباً برّاً بابنهِ وابناً غير عقوق لابيهِ واخاً مخلصاً لاخيهِ وابنة مقيمة على ولاء أمها وأمّاً تحب ابنتها كما يجب ان تكون محبة الأُم . فالخلاف ضارب اطنابه في قلب كل عيلة على التقريب وحب الذات مستولٍ على كل فؤاد دون استثناء والبغض حالٌّ محل الحب . والقلى والجفاء موضع الوداد والولاء

فما هو السبب في هذهِ المصيبة الدهماء التي تفرّق بين بني الشرق فتجعل اجتماعهم شتاتاً وقوتهم ضعفاً وعلمهم جهلاً وتمدنهم همجية . السبب كل السبب تفرق العيلة وبالتالي تفرُّق الحب العيلي فلا يعرف قلب الأخ اخاهُ ولا فؤاد الابن اباهُ . السبب في ذلك تفرُّق العيلة بحيث تضيع التربية العيليَّة التي هي اساس كل تربية وعلم يقوم بعدها فتأتي تربية المدارس على غير اساس معرضةً للاخطار مثل كل ما يبنى على غير اساس او كبيت بُني على الرمل فلما عصفت الريح وهطلت الامطار سقط وكان سقوطه هائلاً مخيفاً

نعرف في الاسكندرية أسرة كبيرة ذات القاب رفيعة وثروة وحسب وكان كبيرها متزوجاً بامرأتين ثم توفاه الله عن ثلثة اولاد ذكور· وجاءت ساعة اقتسام الميراث فتألب الشقيقان ولدا المرأة الأُولى على ابن الثانية واتخذا لحرمانه إرث ابيه إلاَّ جزءاً صغيراً منه كل طريق ووسيلة ولو غير جائزة ولا محلَّلة · وقد نجحا في سعيهما لعلة لا نعرفها وليس من شأننا التعرض لها في هذا الكتاب وفازا بمعظم الثروة واخوهما الآن يتقلَّب بين مخالب العوز وهما يقولان انهُ ليس اخانا وهو ما نشأ ولا تربى معنا

نعم انها حجة ولكنها واهية وانهُ لقول ولكنهُ سفسطي لان الرجل اخوهما ان لم يكن لامهما ايضاً فلأَبيهما وفي ذلك كفاية ولكن التفرُّق العيلي قد انتزع من صدريهما كل عاطفة اخويَّة فحسبا غير مباليين هذا الاخ غريباً وعاملاهُ معاملة الاجنبي بل معاملة العدوّ البغيض

واذا كان ذلك هو الشأن بين الاخوة فما الظن بما تكون عليه الحال بين ابناء الاخوة والاعمام والاخوال وسائر الاقارب والانسباء · بل ما الظن في معاملة الاهالي بعضهم لبعض وليس ثمت ائتلاف وولاء · اللهم اننا نعوذ بمحبتك للجنس البشري من هذه الشحناء والى كنف انعطافك على الانسان نلجأُ من هذه البغضاء

ولسنا نزيد على ما تقدم شاهداً واحداً وان كثرت الشواهد ففي ما سبق ايراده غنىً وكفاية ومنه يتضح لقرَّاء هذا الكتاب ان الاجتماع العيليّ ليس فقط حافظاً للآداب العامة من الضياع واقياً للاخلاق من

الفساد بل هو واسطة التحاب الخالص بين افراد العيلات والتعارف الحقيقي بينهم· وحيثما وجدت الاجتماع العيلي على قواعده وأُصوله وجدت الالفة الحسنة والحب النزيه بل وجدت النظام والتدبير والقوة والتقدم والنجاح

ومما لا نجد بدّاً من التنبيه اليه في هذا الفصل من كتاب العلم والتربية ما لا يزال شائعاً في بلدان كثيرة واماكن جمة من هذا الشرق الذي نحب ان نخدمه خدمة نافعة تنهض به من وهدة التقهقر والانحطاط الى قمة التقدم والفلاح ونريد به اعتبار الرجل للمرأة انها امة لهُ مسخرة لخدمته وقضاء مآربه فقط لا رفيقة لهُ في هذا العمر وشريكتهُ في هذه الحياة فلذلك تراهُ ينزل هذه المرأَة التي اوجدها الله لتكون شريكة لهُ ومدبرة لبيته ومربية لاولاده بل اوجدها لتكون ربيعاً لحياته وغرَّة في جبين عمره وكوكباً لامعاً في أُفق منزله منزلة الشيء والمتاع والملك الذي يشرى ويباع فهو يمتهنها متى اراد وينقص من احترامها ويشتمها ويسبها امام اولادها بل هو يرفع يدهُ لا بل يرفع الهراوة والعصا عليها

ولعمري ان امتهان المرأَة وسوء معاملتها والاساءة اليها امورٌ ذات عواقب وخيمة وهي قبل كل شيءٍ من اكبر العوامل على تفريق قلوب الأُسرة وتشتيت الجامعة البيتيَّة بل هي من اقبح ما خدش به وجه الآداب العيليَّة · لان البيت الذي تهان المرأَة فيه وتضرب تحت سقفه يخلو طبعاً من عاطفة الحب العيلي والولاء الزوجي والاحترام البنوي وبالتالي من كل العواطف السامية والشعائر الشريفة التي يجب ان تكون شعار

تبلغ العناية به والانعطاف اليه حد التدليل الذي نهينا عنه وحذَّرنا الآباء
منه في احد الفصول السابقة من هذا الكتاب · كلاَّ ثمَّ كلاَّ انه الرأي
الفائل وانه لمن وساوس الباطل فاننا من وجه نعلم انها غاية يستحيل البلوغ
اليها مع ما نحن فيه من المذاهب والتقاليد والعادات ومن وجه آخر اننا
نكره لتقاليدنا الشرقيَّة وعاداتنا العربيَّة ان تستبدل بما يخالفها من التقاليد
والعادات على خط مستقيم وبما هو معها على طرفي نقيض · ولأحب الينا
الف مرَّة ان نرى القديم باقياً على قدمه من ان نراهُ مستبدلاً بهذا الجديد
الذي اودى بالآداب الاجتماعيَّة او كاد

اذن فنحن لانحض على إطلاق حرية الاجتماع والاختلاط بين الرجال
والنساء بحيث لا يبقى باب مقفلاً ولا حجاب مسدولاً وبحيث تخرج المرأة
الى حيث تشاء دون ان تؤدي حساباً للرجل ويذهب الرجل مع تيار
الاهواء دون ان تعلم امرأته بذهابه ومجيئه بل جلَّ ما نرجوهُ لهذا الشرق
وندعوهُ اليه ان تتكوَّن فيه هيئة اجتماع سامية شريفة دالَّة على علوّ مقام
الشعب وارتفاع مكانة الامة وإغراقها في المدنيَّة والحضارة وبلوغها الغاية
التي وجد لها الانسان من ادراك ما لهُ من الحقوق ومعرفة ما عليه من
الفروض نحو خالقه ونحو قريبه ونحو نفسه ومتى بلغنا تلك الغاية السامية
وهي ادراك ما لنا من الحقوق وما علينا من الواجبات اصبحنا حينئذٍ في
غنى عمن يضع لنا الحدود لهيئة الاجتماع ويعلمنا كيف ينبغي ان تكون العيلة
وكيف تكون الآداب العيليَّة

فغنيٌّ عن البيان اذاً اننا لا نقصد فيما نحض عليه وندعو اليه الى
إطلاق حرية الاجتماع كإطلاقها عند الاوروبيين بحيث لا يبقى لهذا
الاطلاق حد بل جلُّ ما نبتغيه ونتمناهُ لبلادنا الشرقيَّة ان يعود اليها ذلك
الائتلاف العيلي الذي كنا نسمع به وهو قد اصبح الآن اثراً بعد عين حتى
ان بعضهم بالغوا في حجاب المرأة حتى حجبوها عن ابن عمها بل عن اخيها
بل حجبوها عن النسيم مخافة ان يبلغها السلام او مخافة ان تطير مع النسيم

اما توقير المرأة والعناية بالولد فيكفي فيهما ان يعرف الرجل ويعتقد
ان هذه المرأة شريكته لا امة رقيقة لهُ وان لها عليه حقوقاً تتقاضاهُ
اياها بحق تلك الشركة كما يطالبها هو بواجبات لا ندحة لها عن ادائها ·
فليعرف اذاً مقامها ويحترم حقوقها الزوجيَّة والوالديَّة لتبقى المساواة مرعيَّة
بينهما وبذلك يتم نظام المعيشة الزوجيَّة وتحفظ الموازنة البيتيَّة · ثم ان
يعرف ايضاً ويعتقد ان هذا الولد الذي رزقه الله اياهُ مدعوٌّ لان يصبح في
ما يأتي من الايام رجلاً مطالباً باعمال عظيمة منها خدمة الوطن ورئاسة
العيلة وإدارة شؤون حياته وحياة الموكول امرهم اليه وانهُ سوف يأتي
زمن يطالب هذا الولد فيه بان يعول والديه فهو يعيد لهما في ايام شيخوختهما
ما استودعاهُ اياهُ في ايام صغره

ولا مراءَ في ان الولد يبرُّ بابيه اذا اختط ابوهُ لهُ المثل الصالح ورسم
لهُ الخطة الحميدة وإلاَّ فبأي حق نطالب الولد بردّ ما لم نستودعهُ اياهُ من
الانعطاف والحب ونسألهُ ان يعتني بنا ونحن لم نبذل لهُ العناية عند ما كان

صغيراً فلا نعتبنَّ عليه اذا عاملنا ونحن شيوخ هرمتنا الايام بما كنا نعاملهُ به وهو صغير ضعيف فبالكيل الذي تكيلون به يكال لكم ومن يشابه أبهُ فما ظلم

ولسنا نظن ان مثل هذه الحالة تحتاج الى دليل يثبت صحتها لان ما لا ريب فيه من طبيعته ألاَّ يحتاج الى شاهد كما قال الشاعر

وليس يصح في الاذهان شيءٌ   اذا احتاج النهار الى دليل

ومع ذلك فنحن نضرب لذلك مثلاً رجلاً عرفناهُ في الاسكندريَّة رزقهُ الله ولدين انثى وذكراً فحسب ان حقوقهما كلها عليهِ ان يأتي لهما بالمراضع ويرسلهما بعد ذلك الى المدارس واهمل كل امر آخر من أمورهما فلا رقيب منهُ عليهما ولا اشتغال بحالهما ولا اهتمام بما يفعلانهِ في ساعات فراغهما من الدرس وسائر الاعمال

وكان يتركهما في البيت ويذهب مع امرأتهِ او يذهب وحدهُ الى الملاهي ومحلات المقامرة حيث يبذل ما في جيبهِ من المال وفي وجههِ من ماء الحياء غير مكترث بمن تركهم وراءهُ ولا مهتمٍ بشأن امرأته وامر ولديه

وكان اذا سألهُ صديق عن ابنه يقول ربيتهُ وعلمتهُ في المدارس فليدبر بعد اليوم نفسه. وفي الحقيقة ان ولديه دبرا نفسيهما فان الفتاة علقت شاباً من غير جنسها ومذهبها ولما تمكن حبه منها وجاء ابوها يحاول منعها من ان تراه كان جوابها لقد فات الاوان فاين كنت منذ اشهر

وايام . اما فتى هذا الاب الذي يضرب به المثل فانهُ كان اذا مرض ابوهُ لا يعودهُ كأن ليس لهُ ابٌ والعياذ بالله من مثل هذه الحال

وعلى الجملة فان العناية التي نبذلها للولد في ايام صغره انما هي دين نتقاضاه اياه مضاعفاً في ايام شيخوختنا فمن شاء ان يبرَّ به ولده متى كبر فليبرَّ هو به متى كان صغيراً محتاجاً الى عناية ابيه وانعطاف أمه

وشهد الله اننا في المسائل الثلاث التي تقدم لنا ذكرها وهي الاجتماع العيلي واحترام المرأة والعناية بالولد لسنا نشير بالتطرُّف في احداها والغلوّ فيها الى الحد الذي تعود معهُ النتيجة بعكس المقصود. بل نحن نريد التوسط في الامر فخير الامور الوسط

واذا نظرنا الى الامر وقابلنا فيه بين حالتنا وحالة الاوروبيين وجدنا كلا الفريقين قد اتبع في مذهبهِ جانب التطرُّف والغلوّ فان الاوروبيين اطلقوا حريَّة الاجتماع والاختلاط بين الرجال والنساء الى حيث لم يبقَ لذلك حد يعرف وبالغوا في توقير المرأة حتى جعلوها الهة تُعبد واكثروا من بذل العناية بالولد فاصبح مدلَّلاً فاقد التربية. اما نحن فخالفناهم في ذلك كله وبالغنا في مخالفتهم الى درجة غير محدودة فضربنا على المرأة حجاباً صيرها اسيرة وصيَّر منزلها سجناً وجعلها في وادٍ والجنس القوي في وادٍ وانقصها من احترامها حتى لم تعد هي تعرف لنفسها قيمةً وحتى انكرت هي نفسها مكانتها الزوجيَّة ومنزلتها الوالديَّة واهملنا الولد او اسأنا معاملته حتى صار لا يعرفنا او صار يعدنا اعداءً لهُ

ونحن اذا تدبرنا الامر وتبصرنا فيه ولو قليلاً نجد الشطط والافراط بالغين حدهما فيما يأتيه الذين تخالف طرائقهم وفيما نتبعه نحن من مخالفة تلك الطرائق بحيث لم يبق في الامر وسط بل هم تجاوزوا الحد في إطلاق الحرية وتجاوزنا نحن الحدَّ في التضييق وكل ما جاوز حده جاور ضده وخير الامور الوسط

اما الذين يتحدَّون منا الاوروبيين في طرق معايشهم كلها ويقلدونهم في تمدنهم وحريتهم المطلقة وهيئة الاجتماع عندهم فقد سابقوهم في هذا المضمار حتى سبقوهم وتركوهم وراءهم بمراحل فاضاعوا التربية البيتية والآداب الشرقيَّة والحياء الجميل والانفة الذاتيَّة والوقار الشخصي بل اضاعوا الدين والشرف والعواطف السامية كل ذلك بدعوى التمدن والحرية وحجة مجاراة الاوروبيين في طريق الحضارة العصريَّة

وقد كان يجمل بنا ان نفرد ههنا فصلاً خاصاً نضمنه كل ما يجب من الملاحظات على هيئة الاجتماع عند الشرقيين الذين يقلدون الافرنج في معايشهم فيأخذون منها الفاسد والمضر غير مكترثين بالصالح والمفيد لولا اننا لم نضع هذا الكتاب لذم الهيئة الحاضرة وبيان معايبها ونقائصها بل للاشارة الى ما يجمل ان يتخذ قاعدة للهيئة الناشئة المقبلة التي نرجو ان تنشأ على غير ما نشأت عليه هيئتنا الحاضرة من فساد التربية واختلاط الآداب العيليَّة

ومع ذلك فلسنا نجد مندوحة عن ان نشير ههنا ولو الماعاً الى آفة

منتشرة في البيوت وداء متفشٍ بين العيلات الشرقيَّة المتفرنجة ونريد بذلك علة كل خراب وهي المقامرة التي اصبحت لسوء الحظ في هذه الايام صفة من صفات التمدن فلا نكاد نزور عيلة او ندخل منزلاً دون ان نجد لها اثراً

ونحن انما نشير في فصل الآداب العيليَّة الى هذا الداء الوبيل لانهُ اكثر عللنا ضرراً بآدابنا الاجتماعيَّة واشدها تأثيراً في صفاتنا العيليَّة ٠ فالمقامرة ونعيذ قراء هذا الكتاب منها لا تنفذ سمها في الجيوب وتدس سمومها الى الاكياس فقط بل هي العلة الرئيسة في ضياع الآداب العيليَّة الشريفة وفقدان العواطف المنزليَّة السامية وحيثما حلت ضيفاً ثقيلاً بل داءً قتالاً وبيلاً انحلت معها عرى الادب الشرقي مهما كانت وثيقة وتزعزعت لها اركان التربية العيلية مهما كانت وطيدة

وقد حدا بنا الى ذكر هذا الامر ما نراهُ في كل يوم رأي العين من تعاظم هذا المصاب بحيث صرنا نخشى ان تعمَّ العدوى وان لا يبقى سبيل الى الخلاص ٠ ولعمري اننا اذا نظرنا بعين البصيرة ومقلة النقد الخالص عن كل غاية وغرض الى ما يجري في اجتماعات المقامرة في منازل العيلات وكيف يسقط برقع الحياء الشرقي ويرتفع ستار الانفة الذاتية والوقار الشخصي وكيف يختلط الحابل بالنابل ويمنع كل حديث ادبي ويُترك جانباً كل اهتمام بامر العيلة وبنيها لجزمنا دون مراء ولا جدال بانهُ ليس في الامكان المحافظة على الآداب العيلية الشريفة والتربية البيتيَّة المقدسة

مع المحافظة على هذه العادة السيئة القبيحة

ولا شك في ان المستمسكين بالعادات التقليديَّة القديمة استمساكاً شديداً يبلغ بهم الى حد التعصب لها والمغالين في تقليد حريَّة الاوروبيين وتمدنهم الحديث على مغامزهِ وكل غير صالح فيهِ مما لا ينطبق على اخلاقنا ومشاربنا سوف ينظرون شذراً الى هذا الفصل من هذا الكتاب وربما اخذوا الكتاب برمته بذنب هذا الفصل ولكن ماذا علينا اذا لم يرق في اعينهم ان نقول الحق ولم يعجبهم ان نجهر بالصدق فلهم شأنهم ولنا شأننا . انما نحن قد وقفنا القلم وعقدنا النية على خدمة الوطن الشريف والتماس وجوه الاصلاح الحقيقي للامة العربيَّة فليسمع من كانت لهُ اذنان سامعتان

هذا وقد رأينا قبل الخروج من الكلام على العيلة والآداب العيليَّة الى البحث في حالة المدارس وامر المعلمين والتعليم ولا سيما تعليم البنات ان نردف هذه الفصول بفصل في « الوطن » لان الوطن ولا مراء هو العيلة الكبيرة المتألف من مجموع العيلات الصغيرة بحيث كان الكلام في هذا الشأن غير خارج عن المعنى الذي نحن فيه والله المسؤول في تسديد خطواتنا الى سبيل الرشاد وجعل خدمتنا نافعة للاوطان بمنه تعالى وكرمهِ

الفصل السادس عشر

الوطن

من لنا باسمى فصاحة وابلغ تعبير لنصف الوطن بما يستحقه من الاوصاف وننعته بما يبين سمو مقامه من النعوت

الوطن واي اسم اشرف من هذا الاسم واية كلمة اسمى مقاماً من هذه الكلمة

الوطن وما ادراك ما الوطن . انهُ الاب والام والاخ والابن والملك والمال وكل ما يحبه الانسان ويميل اليه ويكلف بهِ ويعز عليه

الوطن شرف الرجل وعنوان فخره ومرجع عزه وموضع مجده وموضوع افتخاره

الوطن تثور عواطف النفوس لذكرهِ وتخفق القلوب لسماع اسمهِ وتراق الدماء في الدفاع عنه وتبذل المهج والارواح في خدمته ويسترخص كل غالٍ في محبتهِ

والوطنيَّة اعظم العواطف شرفاً واسمى الشعائر مقاماً وهي اقدس وجدان يختلج في صدور الرجال وافضل إحساس يدفع الى عظائم الاعمال

بل الوطنيَّة عاطفة سامية تعلّم المرء ان نفسه ليست له بل هي لهذه البقعة من الارض التي هو مولود فيها والتي ينتمي اليها ويعيش في ظل رايتها والتي عرف فيها اباه واحب فيها أمه ونادى اخاه ووالى صديقه وقرع فيها باب مدرسته وتعلم لغته وخضع لاستاذه وخدم ملكه واميره واستنصف فيها القاضي من ظلم لحقه

بل الوطنيَّة عاطفة شريفة تعلّم المرء ان حب الوطن من الايمان فمن لا وطن له لا دين له . وتعلمه ايضاً ان حب الوطن قبل حب الاب والابن وكم من اب قدّم ابنه فدى لوطنه وكان مشكوراً وكم من ابن خالف اباه من اجل وطنه ولم يسمه التاريخ عقوقاً

او لم نسمع بأولئك الأمهات والزوجات اللواتي يفضلن ان يرين اولادهن وازواجهن امواتاً من ان يشهدنهم متخلفين عن الدفاع عن الوطن في يوم الغارة . فما الذي يحمل الأم – ومحبة الأم لولدها لا يحيق بها وصف – على القاء ولدها الحبيب في وسط المعارك والمعامع حيث تستخرج القلوب وتنتهب الارواح

انما يحملها على ذلك ويدفعها اليه حب الوطن المقدس الذي لا يعادله حب ولا يجب ان يعادله حب . فالأم تحب ابنها ولكنها تحب وطنها اكثر منه والابن يجل اباه ولكن يجب ان يجل وطنه اكثر منه

ونحن نوصي بالطاعة للوالدين ومع ذلك فنحن بكل جرأة وحرية ضمير نقول لكل ابن اذا امرك ابوك بما يعود على الوطن بالضر فاعصه

ولا تطع له امراً فالوطن قبل ابيك بل قبل نفسك ايها الانسان

وقد كان احد الاقدمين يوصي اولاده في كل صباح بمحبة الوطن والتفاني في خدمته والموت فداءً عنه وكان يقول لاكبر اولاده ليكونن اخلاصك الحب لوطنك عبرة لسائر اخوتك ولجيرانك ولكل من يسمع بذكرك . ويا بنيَّ اذا وجدتني في خطر وكان الوطن في خطر فبادر الى نجدة الوطن قبل نجدتي وانقذ الوطن من الخطر المحيق به قبل ان تنقذني لانك اذا انقذتني فقد بررت بابيك وحده ولكنك اذا بادرت الى انقاذ الوطن فقد بررت بابيك وامك واخيك واختك وسائر انسبائك واقاربك واصدقائك وصحبك وابناء امتك ولغتك اجمعين

ويحكى ان احد العقلاء شعر بدنوّ اجله فجمع اليه اولاده فلما اجتمعوا حول سريره قال انني ذاهب عنكم الى ملاقاة ربي . فبكى احد اولاده . فقال لا يبكينَّك يا بني دنوّ ساعتي فانني والحمد لله قد وفيت الغرض وقمت بالواجب واريد بهما خدمة الوطن . ثم قال لبكر انجاله اوصني يا ابي فقال اوصيك يا بني بحب وطنك فهو الاب لك من بعدي وهو امك التي تحبك وتحنو عليك فاذكره اينما حللت واخلص له الولاء اينما كنت واعلم ان من لا وطن له لا دين له ولا ذمة ولا شرف ولا ذكر

وقد قال افلاطون اذا كان الاضرار بالاب او الأم ذنباً عظيماً فالاضرار بالوطن ذنب اعظم . وقال شيشرون ان آباءنا وأمهاتنا واخوتنا واقاربنا واصدقاءنا اعزاء علينا ولكن هذا الحب لهم يمتزج ويجتمع كله في

حب الوطن . وقال هوراس ان اجمل موت واعذبه الموت عن الوطن وقال لامارتين الشعوب تحب اوطانها كما يحب الرجل الحياة . وقال احد كتاب العرب ما عزَّ عليَّ شيءٌ إلاَّ كان الوطن اعزَّ منهُ وكان هو فداءً عن الوطن

وكنا مرة في مجلس احد الحكام في لبنان فجرى الحديث في احب الأُمور الى الانسان فقال الحاكم احبها اليَّ ثلثة الاول الوطن والثاني الوطن والثالث الوطن

وكفى الوطن تعريفاً قول المثل العربي المأثور "حب الوطن من الايمان" وقول الآخر "من لا وطن له لا دين له"

ولقد اكثرنا من الاستشهاد وايراد الاقوال في هذا المعنى لا عن غير قصد بل لغاية عظيمة وهي اننا كنا نظن ان اقل ما كتب اجدادنا العرب فيه انما هو التربية فقط فاكثرنا من لومهم على اغفالهم ذلك الموضوع الخطير . فلما بلغ بنا الموضوع الى فصل الوطن وجدنا لسوء الحظ ان اهمالهم للكتابة في هذا المعنى الشريف قد فاق اهمالهم للموضوع الاول فانك اذا تصفحت قصائدهم الحماسيَّة وخطبهم التحريضيَّة قبل الدخول الى ساحة الحرب لرد هاجم على الوطن ومغير على البلاد لم تكد تجد فيها للوطن اسماً ولا للبلاد ذكراً وفي ذلك ما فيهِ من مواطن النقص والتقصير في التربية الوطنيَّة وترك الاثر الحميد من السلف للخلف . حتى اننا اضطررنا بعد ان نقلنا اقوال بعض فلاسفة الاقدمين وكتاب الافرنج

المعاصرين ان نوجد العبارات والامثال عن لسان كتاب العرب كي لا يخلو هذا الكتاب العربي من كلمة لهم في الوطن وحبه والاخلاص في خدمته . وهي حالة كان في ودنا لو لم نكن مضطرين الى الاشارة اليها ولكن اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون ورحم الله القائل

اذا لم يكن غير الاسنَّة مركب   فلا يسع المضطرَّ الا ركوبها

هذا ولنعد الى ما كنا فيهِ من ذكر الوطن وشرف الوطنيَّة فنقول ان من جملة ما يشرف به المرء في خدمة وطنهِ ووفاؤُه ما لهُ عليهِ من حقوق الخدمة العسكريَّة المقدسة المفروضة على كل رجل والتي يتوق اليها كل ذي نفس ابيَّة

ولعمر ابيك هل رأَيت عسكراً يمرُّ والرايات تخفق من حولهِ والموسيقى تعزف في طليعتهِ ولم يخفق فؤَادك في صدرك وتترقرق الدمعة بين جفنيك وينعطف قلبك الى كل فرد من أُولئك الجنود الذين لا تعرف منهم احداً ولم يكن لك فيهم صديق

اننا لا نظن احداً — اللهمَّ الا الذين تجردوا عن كل عاطفة بشريَّة وفقدوا الوطنيَّة — يرى الجيش يمر والعلم يخفق والموسيقى العسكريَّة تعزف دون ان يختلج قلبه بين جنبيهِ وترقَّ عواطفه حتى تترقرق الدمعة في عينيهِ

ولماذا تحنو ايها الرجل ولا حنوّ المرضعات على الفطيم على هذا الرجل الذي لا يفرق بسوى لباسهِ عن اي رجل سواه ماراً الى جانبهِ

وسيفه ولماذا تصفه باجمل الصفات وتنعته باحب النعوت الى الانسان
وانت لا تعرفه ولا تعرف اسمه ولا تعرف من ابوهُ وأُمه

ذلك لان هذا الرجل الغريب عنك المجهول منك انما هو المدافع
عن وطنك الحامي لعيلتك الحارس لشرفك وهو سياج بلادك ورافع منار
مجدك المخاطر بنفسهِ في سبيل دفع الخطر عنك المهرق دمه لصيانة
حياتك المتأهب في الليل اذ تنام ملء جفنيك وفي النهار اذ تكون مشتغلاً
بما يعود نفعه عليك للسير الى حيث يقيك كل شرٍّ طارىءٍ ويدفع عنك
غارة كل عدوٍّ طارق الى حيث يبيع نفسه رخيصة في الذب عن حياضك
ويريق دمه بلا ثمن ليرفع شرف رايتك الى حيث يدعوهُ صوت الوطن
ويناديهِ لسان الوطنية فما اشرف هذهِ الخدمة وما اسمى مقام الجندي
وارفع شأن الجنديَّة

فالسلام عليكم ايها الجنود البواسل يا حماة الوطن وسياج الدولة وعنوان
شرف الشعب وفخر الأُمة السلام عليكم من قائدكم الكبير الى « النفر »
الصغير فيكم والسلام عليكم في ساحة الحرب كنتم ام في ساعة السلم ويوم
تشهرون السيوف وساعة تغمدونها

وانظر رعاك الله الى البلاد التي تعرف قيمة الوطنية وشرف الجنديَّة
وارقب خروج الجيش فيها الى استعراض او الى قتال تجد الشيوخ يدعون
بالنصر والاولاد يصفقون ويتغنون بالاناشيد الحماسيَّة والنساء يهللن
ويصفقن والبنات ينثرن الازهار ويقدمن الهدايا . ثم عُد بنظرك الى

هذا الشرق وارقب يوم القرعة فلا ترى غير دموع النساء ولا تسمع
غير الولولة من كل فج كأن من وقعت عليه القرعة للخدمة في الجيش قد
انتخب للموت وقام السياف على رأسه

بل تأمل في الشبان انفسهم فلا تجد فيهم إلاَّ كثيرين قد اقتلعوا اعينهم
باصابعهم او اقتطعوا اناملهم من ايديهم للخلاص من الخدمة العسكريَّة والعياذ بالله

فلماذا يوجد هذا الفرق كله بيننا وبين الافرنج . أليسوا مخلوقين مثلنا من
لحم ودم ام ليست في اجسامنا نفوس مثل نفوسهم . بلى ولكنهم عرفوا
الوطن واحبوه . اما نحن فاننا ننكره ونجفوه . هم يجلون الوطن الى حدّ
العبادة ونحن نحقره الى حد الجحود . هم يستميتون في خدمتهِ ونحن
نميته في خدمة اغراضنا . هم يريقون دمهم الى آخر نقطة في سبيلهِ ونحن
نمتصُّ كل نقطة من دم الوطن . هم يبيعون انفسهم ويهبون ارواحهم من
اجل الوطن ونحن نبيع الوطن من اجل لقب نكتسبه او منصب نتوسده .
هم يقفون اموالهم وثروتهم للوطن ونحن نجرّد الوطن من ردائهِ وننهب
ما تصل اليه ايدينا من اموالهِ

ذلك هو الفرق فيما بيننا وبينهم وانه لفرق اذا تأملت عظيم وبعدٌ
اذا نظرت شاسع سحيق . وخليق بهم وهم يحبون اوطانهم كما يحبونها ان يعظم
جاههم ويفخم سلطانهم وجديرٌ بنا ونحن على ما نحن عليهِ من إنكار الوطن ان
نصير الى ابعد مما نحن فيه من الانحطاط والخمول

ولعمري هل سمعنا بمن قام في الشرق فترك ملذات المعيشة في المدن

الكبرى والعواصم الزاهية بالعمران الزاهرة بالحضارة وسار يقطع المفاوز
ويجوب القفار مخاطراً بحياته في كل ساعة يطوي الايام بلا طعام ويقطع
الليالي بلا نوم ويسير من قفر الى قفر ويخلص من قوم متوحشين ليقع بين
اقوام من الهمجيين ويفلت من وحش ضارٍ ليلاقي وحشاً مفترساً كل ذلك
في خدمة الوطن دون التماس مكافأة او رغبة في جزاء بل وفاءً لحق الوطن
عليه وقياماً بالفرض المقدس نحو البلاد التي اليها ينتمي وفي ظل رايتها يعيش

ولقد مرَّ بنا في هذا الفصل ذكر الراية مردداً فما هي الراية حتى
نشرّف اسمها الى هذا الحد ونعلي ذكرها بهذا المقدار

الراية ايها الشرقيون رمز الوطن المحبوب فهي على ما هي عليه من
كونها قطعة من النسيج اغلى ما ينافس فيه واشرف ما يفاخر بهِ واعزُّ
ما يدافع عنه

متى نُصّب ملك تنصب لهُ الراية واذا سار جيش يُرفع في طليعتهِ
العلم واذا قدم امير تزين الطرق التي يمرُّ فيها بالاعلام وكلما احتفل بعيد
كبير او بتذكار عظيم ترفع الرايات واذا مات قائد كفّن براية بلادهِ
ومتى حمل نعش جنديٍ غطّي صندوقه برايتهِ واذا أُهينت دولة طلبت
الترضية والتعظيم لرايتها تكفيراً عن الاهانة التي لحقت بها

ينشب القتال بين جيشين فيتفانى الجنود في الدفاع عن راية فرقتهم
ويفاخر المنتصرون منهم بغنمهم راية العدوّ . والموت احب الف مرّة الى
جيش من ان تؤخذ منه الراية او ينال العدو منه علماً . فالراية اذاً على

كونها قطعة من النسيج لا حدَّ لقيمتها ولا تقدير لثمنها فهي اكبر الاشياء
ثمناً وارفعها مقاماً واغلاها قيمة

واية راية اسمى مجداً من رايتنا نحن الشرقيين واي علم اعظم فخراً من
علمنا . أَلم تسر الوان رايتنا من الشرق الى الغرب . أَلم ينصب علمنا حتى على
ابواب « فينا » نفسها . فلماذا ترانا لا نعرف لهذا العلم قيمة ولا نؤدي لهذه
الراية ما تستحقه من التعظيم والاجلال

انظر الى الشرق وفتش منازل الشرقيين ولا سيما القرويين منهم
وقل لنا بعد ذلك هل تجد في احداها راية يرفعها الرجل فوق منزلهِ يوم
تذكار مولد سلطانه او جلوس اميره

بل ما لنا وللقرويين الذين لا يعرفون كيف تكون الراية ولا ما هو
الوطن ولا يعلمون متى يحتفل بتذكار مولد السلطان او جلوس الامير
فلندعهم وراء بقرهم وجواميسهم وبين جمالهم ونعاجهم وفي وسط حقولهم
وبساتينهم وهيا بنا الى المدن الكبيرة والحواضر الزاهية بالعمران وسل ابناء
الشعب ورجال العامة هل في منازلهم راية وفي بيوتهم علم ينصبونه يوم
تنصب الاعلام وترفع الرايات في بلاد الوطنيّة

بل نحن نجد الكثيرين منا لا يعرفون الوان رايتهم ولا يذكرون لها
رسماً فكيف ننتظر ممن لا يعرف رايته ان يعرف وطنه ويحبه ويخدمه
ويفتديهُ بدمه

ونحن لا نقتني في منازلنا راية ولا نعظّم لوطننا علماً لاننا لا ندرك

شأن الراية ولا نعرف قيمة العَلَم · ولسنا نجهل شأن الراية ونتعامى عن
قيمة العلم إلاَّ لاننا لا ندرك قدر الوطن ولا نعرف مقامه

نعم نقول ذلك ولسنا نخشى في الحق لومة لائم فاين الشرقيون الذين
يعرفون الوطن ويأتمرون بالوطنيَّة الحقة · اين الشرقيون الذين يفضلون
مصلحة الوطن على مصالحهم الذاتيَّة واغراضهم الشخصية · اين الشرقيون
الذين يفتدون الوطن بمالهم ولسنا نقول بدمهم · اين الحاكم الشرقي الذي
يقول لرعيته اذا رأيتم فيَّ اعوجاجاً فقوّموه بحد السيف واين الشرقي
الذي يقول لحاكمه اذا احتجت في خدمة الوطن الى ذراع فهذا ذراعي واذا
احتاج الوطن الى نقطة دم تراق في خدمته فهذا دمي بكليتهِ

فهل حلف الدهر ألاَّ يقيم لشرقي قائمة وألاَّ ينشيء لعربي نعمة · كلاَّ
بل حلفنا نحن الشرقيين ان نساعد الدهر علينا ونأخذ بناصر العدوّ على
اوطاننا فاذا وُلّي احدنا منصباً فلخدمة نفسهِ واغراضه ولو اضرَّ فعله
بالوطن وخالف عواطف الوطنية

ولقد انعمنا النظر في ما اصاب الشرق من النوازل وتوالى عليهِ من
الرزايا والكوارث في هذه السنين الاخيرة خاصة فوجدناها مسبَّبة عن
انحطاط العواطف الوطنيَّة عند الشرقيين وبلوغهم في ذلك الى الحدّ الذي
يصح ان يقال معه عنهم انهم انكروا الوطن وجحدوه

وايُّ إنكار للوطن اعظم من مساعدة الغريب عليه وايُّ جحود
للوطنيَّة اكبر من الميل عنها والعمل بما ينافي اوامرها ونواهيها · أَوَ لم

نرَ في الشرق رجالاً أُؤتمنوا على الوطن فخانوه وقُلّدوا الحسام ولكنهم
في وجه الوطن استلوه · أَوَ لم نرَ في الشرق رجالاً اتخذهم الوطن دروعاً
فكانوها ولكن للاعادي ورفعهم الى المناصب السامية والرتب العالية فجاروا
واستبدوا وظلموا ونهبوا ومدوا ايديهم الى كل ماتحرّمهُ الوطنيَّة وساروا في
كل طريق تنهى عن السير فيها وهم يدّعون انهم خدمة الاوطان الا انهم
الاعداء في زي الاصدقاء والذئاب المفترسة في ثياب النعاج

وقد يحسب بعضهم ان إنكار الوطن لا يكون إلاَّ بخيانة الوطن
خيانة عظيمة معروفة وهم واهمون فيما يحسبون فان كل إضرار بالوطن
مهما كان قليلاً يعد إنكاراً لهُ وجحوداً ويحسب جريمة لا تغتفر · وكل
رجل في الامة من ملكها واميرها الى اصغر فرد من عامتها وسوقتها مطالب
بفروض وواجبات نحو الوطن واي تقصير يقع في تلك الفروض يحسب
خيانة للوطن · حتى ان الرجل الذي لا يعمل عملاً ينفع بهِ الوطن يعدُّ
مقصراً في ما تفرضه عليه الطبيعة ويوجبه عليه الناموس نحو وطنه وبلاده

ولسنا نريد بهذا القول ان كل رجل من رجال الامة مطالب بعظائم
الأُمور والاتيان بما لم يأتهِ احد قبله ليكون وطنياً قائماً بما يجب عليه نحو
وطنهِ · كلا بل نحن نقصد في ذلك الى القول بان الرجل متى وفى الخدمة
التي دُعي اليها حقها فقد قام بفرضه الوطني

فالملك بحسن سياسته ورأفته بالرعيَّة والقاضي بعدلهِ وانصافهِ والجندي
ببسالتهِ واقدامه والصحافي بصدقه ونزاهته والعالم بعملهِ وتدقيقه والصانع

باتقانه واجتهاده والزارع بعنايته وكده والغنيُّ الموسر ببذلهِ وسخائهِ ورجل الدين بتنوير الاذهان والتأليف بين قلوب اهل الوطن على اختلاف مذاهبهم فمتى رأيت بلاداً يعمل فيها مثل أولئك الذين تقدم لنا ذكرهم بما هم مطالبون به طبعاً وشرعاً فقل انها البلاد التي يُكرم فيها الوطن وتعرف فيها قيمة الوطنيَّة

ولكن متى كان الملك يظلم والقاضي يأخذ الرشوة والجندي يأنف من حمل الحسام ويهرب من ساحة القتال والصحافي يتلاعب بالحقائق ويلقي الشقاق بين العناصر والعالِم يرسل الأمور العلميَّة على علاتها والصانع يقصر في عمله والزارع يهمل شأن ارضهِ ورجال الدين يطمسون على العقول بالخرافات ويدسون سم التعصب الديني في النفوس فيفرقون القلوب المتآخية ويشتتون كلمة الوطنيين والغني يضن بدرهم ينفق في سبيل علمي او عمل خيري ولسان حاله ينشد

اني اضن بدرهمٍ متصدقاً   واجود في قَدَحٍ بما ملكت يدي

فاعلم انها البلاد التي لا وطن فيها ولا وطنيَّة في صدور رجالها فعلى مثل هذه البلاد السلام اذ لا رجاء لها في حاضر ولا امل في مستقبل والعياذ بالله

بقي من وسائل إنكار الوطن الوطنيَّة الكاذبة التي يتصف بها كل مدَّعي الوطنية في بلاد مصر والعثمانية بل في سائر البلاد الشرقية والانحاء العربية وهي من اعظم الضربات التي ابتلي بها الشرق واكبر المصائب

التي نزلت به . فانك كيف ألفتَّ واين وجَّهت قدميك لا تجد إلاَّ كل من كانت دعواه في الوطنية وإخلاص النصح للوطن اطول من انكارهِ الوطن واعرض من جحوده اياه وهو اذا استطاع باع الوطن واهله لا بدينار بل بدرهم

وعندنا ان امثال هؤلاء اضرُّ بالوطن من اعدائهِ الاجانب لان العدوَّ الداخلي المتزيي بزي الصديق اشد فعلاً واكثر ضرًّا من العدوّ الخارجي الذي تعرف انه عدوُّك . ولذلك كانت دعوى الوطنيَّة لا تثبت إلاَّ اذا قامت عليها الشواهد من الافعال ورحم الله الشيخ اليازجي اذ قال

ان قلت ويحك فافعل ايها الرجل   لا يصدق القول حتى يشهد العمل

ونحن مردفون هذا الفصل بكلام وجيز في خيانة الوطن نرسل فيهِ القول هزلاً مبطناً بجد بياناً لقبح خيانة الاوطان وشجباً لعمل الخونة الاشرار والله يهدي من يشاء

الفصل السابع عشر

خيانة الاوطان

كنا نود لو نستطيع تنزيه هذا الكتاب عن ذكر خيانة الوطن كي لا يكون لهذه الفظاعة ذكر في انديتنا الشرقيَّة ومحافلنا العربيَّة ولكن ما نشعر بهِ من قبح هذه الجريمة ونشهده من إِنكار الشرقيين للوطن والوطنيَّة اضطرنا الى الايماء اليها ولو على سبيل الفكاهة والهزل ليعلم الذين يخونون الوطن انهم بما يعملون يحاسبون والجزاء الحق من جنس العمل

وقد سبق لنا القول في الفصل المتقدم ان خيانة الاوطان ليست فقط بيع الوطن للاجنبي وتسليم البلاد للغريب ولكن كل تقصير في خدمة الوطن وإِهمال للواجب العام يحسبان من قبيل الخيانة للبلاد . ونحن لا نحاول ان نفصّل في هذا الباب كل ما كانت له علاقة بهذا الموضوع بل نحن نجتزئ على ايراد حكاية «لثعلبة» رواها عن محاكمة رجلٍ خان الوطن وأَخلف رجاءَ البلاد فيه بزرع بذور الشقاق بين اهلهِ وتفريق كلمة الوطنيين وتبديد جامعتهم وهي اقبح خيانة للوطن وافظع طريقة تتبع في الإِضرار بهِ

وغنيٌّ عن البيان ان هذه الحكاية انما هي رمز مجازي لا نقصد بهِ إِلاَّ الى تمثيل فظاعة الخيانة وبيان قبحها باسلوب ينطبع في مخيلة القارئ فليست هي اذًا حقيقة واقعة يشار بها الى شخص معين او يقصد بها احد من الناس

هذا ويروى ان رجلاً غشي مجلساً لقوم بينهم رجل موثق الكتاف وهم يتشاورون في اية ميتة يميتونه وكان احدهم يقول عند وصول الرجل نربطه الى ذنب فرس جموح ونطلقه في الطرق والشعاب الوعرة . فقال الرجل واي ذنب جنى حتى يقتل هذه القتلة الشنيعة فهل سرق ارملة او يتيماً قالوا بل جنايته اعظم مما تقول قال فهل كفر بالله او غدر بجاره او خالف الناموس قالوا بل ذنبه اجسم من ذلك قال فهل قتل اباه او أُمه او اخاه قالوا ان وزره فوق هذا الوزر فلقد خان هذا اللئيم الوطن قال اذًا فاقتلوه شر قتلة ومثّلوا به تمثيلاً شنيعاً واذا كان مفتاح جهنم في يدكم فزجوه في اعمق دركاتها

ولسنا نبالغ اذا قلنا ان خيانة الوطن افظع جناية يجنيها الانسان في حياته وهي وحدها الذنب الذي لا يغتفر ووصمة العار التي لا تزول ولا تمحى

ونحن موردون الآن حكاية «ثعلبة» فيرى القارئ ان موقف المحاكمة على خيانة الوطن رهيب وان القصاص صارم شديد قال

خرجت مرَّةً استنشق هواءَ المساء وقد ترصع بساط السماء فقادتني رجلاي الى ضفة النيل فاقمت ساعة اتفرس الاشياء فاراها تتغير رويدًا

رويداً فكأن ذلك الموضع قد ارتفع وعلا حتى اصبح جبلاً شامخاً وانا جالس
على قمته ثم لم اشعر إلاَّ وقد زلزلت الارض زلزالها وعصفت الريح ولمع
البرق وهزم الرعد واستولى على الدنيا ضباب كثيف وما مضت على
ذلك برهة حتى انقشع الضباب وسكت الرعد وانقطع البرق وسكنت
الريح وهدأ الزلزال واستولى على المكان صمت هائل. كل ذلك والجبل راسخ
لا يتزعزع وانا واقف على قمته وقد جمد الدم في عروقي واخذتني الرعبة.
على ان الصمت لم يكد يستتب حتى تلاه دوي طبق اقطار الدنيا الاربعة
كأنما « تداول سمع المرء انمله العشر » حتى خيل لي ان قد نفخ في البوق
وقامت القيامة فاستعذت بالله من هول الموقف في اليوم الاخير

ورأيت كأن شعلة من النور تلتهب في ذلك الفضاء وهي تدنو مني
بين ذلك الدوي حتى وقفت امامي فانقطع الضجيج بغتةً وخرج من الشعلة
صوت كالرعد القاصف صارخاً في تلك البريّة « اعدّوا طريق الوطنيّة »
اما انا فكنت لا اجسر ان ابدي حراكاً وكنت اسمع ولا ارى للصوت
مصدراً فهالني الامر ولعنت في نفسي الساعة التي خرجت فيها الى ذلك
المكان على انني لم اتم الفكر حتى خاطبني الصوت من داخل اللهيب فقال
استغفر الله ياثعلبة عما تجدف به فان الوطن قد اختارك من بين الرواة
واصطفاك لان ترى ما لم يرهُ ولن يراهُ سواك. واعلم ان الموقف موقف
محاكمة وسترى لواء العدل والمساواة منشوراً منصوراً وجيش الظلم
والاستبداد مكسوراً مدحوراً فتنبه الى ما سيجري وكن شاهداً عدلاً

وما سكت الصوت حتى رأيت رجلاً قبيح الوجه شديد السمرة
صغير العينين رقيق الجثة وعلى رأسه عمامة وهو مرتدٍ بجبة طويلة تتدلى
الى عقبيه وكان يمشي على غير هدى كأن يداً غير منظورة تقوده بالرغم
عنه. فامعنت في النظر اليه فاذا هو رجل ولع بايقاع النفرة بين مواطنيه
وتهييج الخواطر وتفريق الكلمة فكان معززاً لدعائم البغي والفساد مقوضاً
لاركان العدل والاصلاح فاشفقت عليه من عدل القضاء وفكرت في ان
اشفع فيه لدى الديان ولكنني خفت ان اكون شفيع المفسدين فتلحقني من
العار وصمة لا اريدها ومع ذلك فانني كنت على يقين بان شفاعتي لا تفيد
في ذلك الموقف فاضربت عنها

ثم صاح الصوت بالرجل صيحة ارتجت لها اقطار العالم فقال الآن يأخذ
العدل مجراه فاستعدَّ ايها المجرم لتأدية الحساب ... وما كان إلاَّ كلمح
البصر حتى أحدقت بالتعيس اشباح مخيفة زادت الموقف هولاً واوقعت
الرعب في نفس الرجل فارتخت مفاصله وكاد لولا ان يتداركه شبح من
الاشباح يسقط الى الارض. ثم بدئ بمحاكمته فكانت محاكمة قانونيّة
عادلة اذ بسط له الصوت ما اتاه من المساوئ والجرائم في تفريق كلمة
الوطنيين وبث البغضاء في انفس الاصدقاء المتآلفين وحملهم على الاضرار
بالوطن ارضاءً للغاية الخسيسة وقيادتهم الى ما يعبث بمصلحة البلاد خدمة
لبعض الانفس الخبيثة وكلَّفه عن ذلك عذراً صحيحاً فلم يستطع اليه
سبيلاً فحكم عليه وشجبه وقال صارت النار لك مقيلاً. فبكى الشقي وقال

ندمت ولكن لات ساعة مندم وما تبرّد الندامة بعد الفوات غليلاً · وعقيب ذلك امر الصوت بالرجل فسيق مكبلاً مغلولاً · ورأيت فوق رأسه سيفاً من اللهيب مجرداً مسلولاً · فعلمت ان قد وقع القضاء وصار الخلاص مستحيلاً · وقضى الله امراً كان مفعولاً

قال ثعلبة فلما رأيت ذلك اعتراني الذهول واستولت عليّ الهواجس وتوغلت في التأمل والتبصر ورجعت الى ماضي اعمالي فرأيت ذاتي نزيهاً في الخدمة بريئاً فهنأت نفسي وقلت لها لا تحفلي بما يقوله الناس فانت في خدمة الوطن مخلصة ولسوف تعرفين وتكافئين · وكأن مخاطبتي لنفسي انستني ذلك الموقف فلم اعد انظر الا الى داخلي وضميري ولكن صوت الشعلة اخرجني من ذهولي اذ هتف بي قائلاً لقد رأيت بعينيك وسمعت بأذنيك كيف يصرع البغي صاحبه وكيف تقوم القيامة وينتصب الميزان لمحاكمة من يسعى في تفريق قلوب الاخوان ويدأب طمعاً في مصلحة نفسه على الاضرار بمصلحة الاوطان · ومن العبث ان يتصور المفسد ان حامياً يحميه وان يداً قوية تنقذه من عقاب الوطن · فاذهب عني الى القوم نذيراً فان احسنوا فلأنفسهم وان اساؤُا فاليها · وانا صوت الوطن أُحب من يحبني وأكافئه وابغض من يضرُّ بي واعاقبه فتزوَّد بما رأيته وسمعته وعظ الناس باسمي مبشراً الصادقين بحسن الثواب ومنذراً المخالفين بهول العقاب · ثم سكت وعدد الدوي واخذت الشعلة بالابتعاد وانا اتبعها النظر حتى توارت عن بصري وحينئذٍ ارتجت الارض فزلزلت زلزالها وهزم

الرعد ولمع البرق وعصفت الريح ثم عاد كل شيء بغتة الى السكون فلم اشعر الا وانا على الارض وقد غار الجبل ورجعت الاحوال الى مجاريها

فلما رأيت ذلك ايقنت ان الصدق في خدمة الوطن اولى من كل ذهب الارض وان للوطن ملاكاً يراقب اعمال الناس ويكافئ كلاً حساباً فمن احسن فللثواب ومن اساء فللعقاب · ولقد جئتكم باسم الوطن فلا تخالفوا له امراً ولا تعصوا له ارادة بل قولوا جميعكم سمعاً وطاعة للآتي باسم الوطن · · ·

الفصل الثامن عشر

اللغة والوطن

من الادلة على تقدُّم أمةٍ من الأُمم تقدم لغتها وانتشارها ومن الادلة على استمساك شعب من الشعوب بالوطنية واخلاصه الحب لوطنهِ حبهُ للغتهِ وتمسكه بها الى حدّ انه لا يحب ان يكتب او يتكلم بلغة سواها

ونحن الشرقيين ونخص العرب منا اذا اتخذنا هذا الامر قياساً على انفسنا حكمنا لاول وهلة ببعدنا عن الوطنية الحقة بعد الثريا عن الثرى اذ ليس في لغات الدنيا اجمع من الكلم والتعابير ما يكفي لوصف اهمالنا لامر لغتنا وتقصيرنا في خدمتها . بل ليس في لغات العالم كله من الالفاظ والمعاني ما يمكن الاكتفاء بهِ للدلالة على عظم الذنب الذي ارتكبناه نحو هذه اللغة العربية التي كدنا نودي بها ونقضي باهمالنا عليها

واذا شئت ايها القارئ العربي دليلاً على صدق هذا القول فارقب اجتماع جماعة لا اقول من عامة الشعب وسوقتهِ بل من اذكياء شبانهِ وخاصتهِ أولئك الذين يتخذون رمزًا عن الشعب ودليلاً على مقام الامة من الحضارة والمدنية واصغِ اذا وجدتهم مجتمعين يتكلمون متنقلين من

حديث الى حديث وانا الضمين لك بانك تحسب نفسك في البرج يوم تبلبلت الالسنة وتفرقت اللغات . اذ إنك بينما تحسب الحديث عربياً تجده فرنسوياً ثم لا تلبث ان تراه متحوّلاً وقد حلّت كلمات الايطالية او الانكليزية محل الفرنسوية والعربية . بل انك لا تكاد تسمع اثنين من ابناء الشرق انفسهم حتى من الذين نزل القرآن الشريف بلغتهم – اللهمّ الذين اخذوا منهم العلم وقضوا السنين في المدارس – يتمان حديثاً لهما بلغة الآباء والاجداد حتى اننا شهدنا مرّة اربعة اصدقاء احدهم مسيحي سوري والثلاثة الاخرون مسلمون مصريون يأخذون على انفسهم العهود بألاّ تجري على السنتهم كلمة عربية واكرم بهِ من عهد

وقد كنا نرجّي ان تصلح حال هذه اللغة مع عود المدنية الى الشرق وانتشار المدارس فيه وتنبه الامم الشرقية الى ما صارت اليهِ من الخمول والانحطاط بسبب اهمالها العلم ونهوضها الى الاستعاضة عما فات فاذا التمدن الذي نأخذه هو الضربة القاضية واذا الدواء الذي نلتمسه هو الداء القاتل لاننا لا نجد بين شباننا المتعلمين إلاّ من يأنف من ان يُرى ممسكاً كتاباً عربياً ويخجل من ان يُسمع متكلماً بلغة وطنهِ

ولسنا ننكر ان خطة التعليم في بلادنا هي العلة الكبرى في هذه المصيبة الدهماء ولكننا لا نجد بدّاً من الاقرار باننا نساعد بانفسنا على نجاح هذه الخطة التي يُقصد بها الى قتل اللغة العربية في بلاد المشرق

ولسنا نودُّ الدخول ههنا في موضوع الكلام على المدارس وطرق

التعليم في الشرق فان لذلك حديثاً خاصاً به سوف يأتي في مكانه من هذا الكتاب . ومع ذلك فاننا لا نجد مندوحة عن الجهر ههنا بان اهمالنا لامر لغتنا العربية قد اصبح متجاوزاً كل حدّ حتى اننا نرى الاجانب يتعرّضون لاستبدال اللغة العربيّة الفصحى باللغة العاميّة بل نراهم يسعون في استبدال احرفنا العربيّة باحرف افرنجيّة بحيث لا يبقى لهذه اللغة اثرٌ ماثل للعيون والابصار وهم ينفقون في هذا السبيل ما عزّ وهان من اللجين والنضار ونحن ناظرون اليهم نظر المتفرج كأن اللغة التي تضرب على أمّ رأسها لتقتل شر قتلة ليست لغتنا

بل نحن لانكتفي بالوقوف لدى هذا الامر الفظيع في موقف الفرجة وعدم الاكتراث ولكنك تجد عندنا في قلب مصر وهي ملجأ العربيّة وحمى الكاتبين بهذه اللغة الشريفة من يطبعون لاعداء اللغة كتبهم ويوزعون نشراتهم ويذكرونها في جرائدهم ويجادلون اصحابها في صلاحيتها واوجه النقص فيها

وليس ذلك فقط بل نحن نجد بين رجال الحكومة الذين يمثلون الهيئة الرسميّة من يناقش المشيرين باستبدال اللغة الفصحى بلغة العامة ويتبادل معهم الآراء في هذا الموضوع كأن الحديث فيه جائز مسموح

فهل مثل هذه الافعال مما يدلُّ على الوطنيّة وهل نرجو ان نقوم لشعب قائمة وهو يساوم على قتل لغته وطمس آثارها . لعمري ان الشعب الذي لا يحب لغته بحيث يفضلها على اية لغة سواها لشعب تقلُّ فيه المروءة

وتهون عنده الوطنيّة . والأمة التي تقلُّ مروءتها ويهون عليها وطنها ليست خليقة بان ترفع الى مقام الأمم الحيّة والشعوب المتمدنة

والغريب اننا نشهد في كل يوم مثلاً جديداً بل امثلة عديدة على حب الاجانب للغاتهم ومحافظتهم عليها ومباهاتهم بتمكنهم منها فلا يزيدنا ذلك الا تهاوناً فوق تهاونٍ بامر لغتنا بل لا يزيدنا ذلك الا امتهاناً فوق امتهان لها

ونحن عاملون على التشبُّه بالاجانب في كل امر يأتونه ومسلك يسلكونه فلماذا لا نتشبَّه بهم ونحذو حذوهم في حبهم للغتهم ومحافظتهم على تقاليدهم وعاداتهم . هل رأيت اثنين من الفرنسويين او الانكليز او النمسويين او الايطاليين يتكلمان فيما بينهما بلغة غير لغتهما . فلماذا نتهافت نحن في اجتماعاتنا على التكلم بكل لغة غير لغتنا ولماذا يأنف الواحد منا ان يُرى متصفحاً كتاباً عربياً او جريدة عربية ويخجل من ان يقال عنه انهُ يميل الى قراءة الشعر العزبي والتلذذ بسماعهِ في حين ان الشعر العربي من اجمل ما نطقت بهِ شعراء العالم وافصح ما جرى على السنة البشر بل هو السحر الحلال على ما قال فيه احد واصفيه

لعمري اننا اذا نظرنا الى ما نحن فيه من بوار سوق الادب في بلادنا واقفال النوادي العلميّة وانحطاط الجرائد والمجلات وقلة التأليف وخمول الذاكرة الشعريّة وندورة المكاتب وقلة عدد الشبان الذين تقودهم العاطفة الوطنية الى تعلُّم هذه اللغة على اصولها ورغبتهم في كل شيء الا في خدمتها

والاشتغال بها لا نجد لذلك سبباً آخر سوى اهمالنا لامر اللغة العربية وعدم اكتراثنا بها فكأنها ان عاشت او ماتت على حدٍ سواء

ولو تدبَّرنا الامر من اصحّ وجوههِ لحكمنا غير هذا الحكم وادركنا ان الاحتفاظ باللغة والغيرة عليها بمثابة الاحتفاظ بالجامعة الوطنية نفسها لان اللغة من جملة الروابط الوطنية بل هي اوثق عرى الوطنية وامتن دعائمها وامنع سياج لها

ولو كان الشرقيون يدركون هذا الامر لما وجدنا بينهم من لا يعرف لغته العربية وهو يتقن لغة بل لغات اجنبية الى حد انه يجاري اهل الفصاحة فيها ويسبقهم اذا سابقوه في مضمارها. وفي الحقيقة اننا لا نجد بين الناشئين من شباننا من لا يقول الشعر الافرنجي ويجيد فيهِ في حين اننا لا نجد بينهم إلاَّ ما ندر من يحسن قراءة سطر او سطرين من النثر العربي. وهي حالة قد ادَّت الى بوار سوق اللغة الى حدٍ لا نلقى معه كاتباً عربياً إلا وهو يعتقد ان العلم مقرون بالافلاس والشقاء ولا نجد معه بين كبرائنا واغنيائنا من يعرف شأن كاتب عربي او يعظّم لهُ قدراً

وقد اذكرتنا هذه الحالة رسالة كتب بها الينا استاذنا الفاضل العلاَّمة الشيخ ابرهيم اليازجي صاحب مجلة الضياء الغراء التي تصدر في القاهرة. بعث بها الينا من سوريا منذ نحو ثماني سنوات ردًّا على كتاب شكونا فيهِ اليهِ حالة الادب العربي في هذا العهد فرأينا ان نقتطف منها ما يجمل ان يكون رثاءً لآدابنا العربيَّة في هذا العصر وعبرة للذين لا يحسبون لها حساباً. قال

« اسأَلك اين الذي كنا نسمع عن نهضة الادب عندكم وغيرة الوطنيين في تلك الناحية وسخاء ايديهم على ادبائهم أَلم يكن في فضلات اموالهم ما يقوم بمجلة صغيرة في حجمها رخيصة في ثمنها قليلة المزاحم في خطتها تشغل فراغهم سلوة وتملأُ مجالسهم ادباً وتسوّد صفحاتها بذكر مآثرهم والذود عن حياضهم

وتقول ان في عزمك الرجوع الى مجلتك. كلاَّ ثم كلاَّ انه الرأي الفائل وانه لمن وساوس الباطل وقد بلوت من امرهِ اولاً وثانياً ما يغنيك عن اطالة النصيحة. وان كنت فاعلاً ولا بد فاصدر منها جزءًا واحداً تقوم فيه على ضريح الشرق خطيباً موءَبناً وشاعراً راثياً يستعير يراعة ارمياء في مراثي قومهِ وارضه حتى تبكي وتستبكي ان وجدت في تلك الرمم المتحركة قلباً يشعر او عيناً تدمع. ثم انقش ما تكتبه على لوح ذلك الضريح وشجَّ رأس القلم وادفنه في تلك الرمم الى ان يبعثه الله فيهم مرحوماً مترضى عنه

وان توخيت بعد ذلك وجهاً من المعاش فاستعر لك ثوباً من الجهل تتردى بهِ وبرقعاً من الخلاعة تستر حمرة وجهك امام عيني نفسك وتمسح ندى جبينك عن بشرتك الرقيقة ثم اتبع القوم في سبيلهم انهُ اليوم هو السبيل »

ثم قال في موضع آخر من تلك الرسالة « وانني لاراك الا متحاملاً على نفسك بما لا تحتمله جاهداً اياها في ادراك خطة ليس في وسع الايام

ان تماثلك على نيلها لانه ما دامت بضاعة الادب كاسدة واهله معدومين فانت اشبه بمن يطلب الثلج من الرمضاء ويلتمس العشب في ظهر الصفاة الصماء"

ونحن قد استشهدنا بما كتبه الينا الاستاذ منذ نحو ثماني سنوات للدلالة على ان آفة اهمال اللغة ليست بالحديثة العهد عندنا وانها قد اصبحت علّة مستحكمة وداءً دفيناً لا دواء لهما الا المثابرة جهد المستطاع على احياء اللغة بعد مواتها وذلك باقبالنا على كل ما هو عربي من الكتب والمجلاَّت والصحف والمراسح والنوادي وبتعليم ابنائنا لغتنا ولغة اجدادنا وآبائنا وبلادنا قبل كل لغة سواها ونحن بخدمتنا هذه اللغة انما نخدم انفسنا وبلادنا بما يعود علينا خيره ويؤُول الينا نفعه وبرهُ والله الموفق

الفصل التاسع عشر

الدين والوطن

لم يكن في النيَّة ان نعود بعد وضعنا فصل الدين والتربية الى مثل ذلك الموضوع ولكننا عثرنا في احد اعداد مجلة "الموسوعات" الغراء التي تصدرها في القاهرة لجنة من افاضل الكتاب المصريين بادارة حضرة الفطن اللوذعي احمد افندي حافظ عوض على بحث رائق في رابطة الدين لحضرة الاستاذ الالمعي الشيخ محمود ابو النصر استاذ اللغة العربيَّة في مدرسة اللغات الشرقيَّة في باريس وقرأنا فيهِ شذرة ذات علاقة بموضوع الدين والوطن والجامعة الوطنية فآثرنا نقلها ههنا للدلالة على ان ذوي المدارك السامية الذين يعرفون حقيقة الدين ويدركون ماهيَّة الوطن يحكمون حكماً صائباً عادلاً بان اختلاف المذاهب لا يؤَثر في الوطنيَّة الحقة ولا يجعل اختلافاً بين العناصر التي يتألف منها سكان البلاد

ونحن انما عدنا الى طرق باب هذا الموضوع الخطير لانهُ من اعظم المؤَثرات على تربيتنا العامة واكبر الاسباب في ما هو واقع من الانقسام

العظيم بين عناصر الشرق ولا سيما في بلادنا العثمانيَّة والمصرية التي وقفنا
لخدمتها هذا الكتاب

ولا شك في ان كثيرين من قرَّاء كتاب العلم والتربية لا يزالون
يذكرون المقالات والفصول المطولة التي خصصناها فيما مضى سواء في
جرائد القطر او مجلاته لدعوة الشرقيين عامة والعثمانيين خاصة الى الائتمار
باوامر الوطن ونواهيهِ ونبذ التعصب الديني الممقوت واحتساب العثمانيين
كلهم وطنيين على السواء مع غضّ النظر عن المذهب الديني الذي هم فيه
لان الوطن لا دخل لهُ في المذهب واختلاف الدين بين اثنين لا يمنعهما
ان يكونا وليديّ وطنٍ واحدٍ . ولقد عدنا الى تلك الدعوة في فصل التربية
والدين الذي تقدم ايراده في صدر هذا الكتاب ونحن عائدون الآن اليها
بلسان احد رجال المسلمين الافاضل الذين يوقّرون دينهم ويحترمون
شريعتهم ويجلُّون مذهبهم ولكن ذلك لا يمنعه عن الاعتراف بالجامعة الوطنيَّة
ووجوب نبذ التعصب المذهبي لخدمة الوطن والبلاد

ونحن ننشر هنا الكلام الذي وقفنا عليهِ في مجلة « الموسوعات »
مؤملين ان يحل لدى مواطنينا في المنزلة السامية التي هو جديرٌ بها وان
يقتفي الكتبة آثار صاحبه الفاضل في تنوير اذهان العامة وتبديد غياهب
الجهل والتعصب لان اجلَّ خدمة يؤديها الشرقي لبلادهِ في هذه الايام
التي كثر فيها عدد اعداء الشرق وخصومهِ ان يعمل على تأليف قلوب
ابنائهِ ويحضهم على نبذ التعصب الذي انتج التفريق والانقسام بينهم

وكان سبباً في تقويض اساس جامعتهم الوطنية وتفريق كلمتهم المجتمعة
اما قول الاستاذ فهو بمبناهُ الرائق ومعناهُ الشائق

« دع كلاً ودينه . دع المسلم يشهد ان لا اله الاَّ الله وان محمداً رسول
الله والنصراني يقول بالاب والابن وروح القدس وان كان لا يرى في
الحقيقة غير اله واحد وخلِّ اليهودي يوحّد بالله سراً وعلناً ويعبده على
شريعة نبيهِ موسى واتلُ اذا حمي وطيس الجدل « انا او اياكم لعلى هدى
او في ضلال مبين » ثم قُل ان جمعك بهم وطن « يا اهل الكتاب تعالوا
الى كلمة سواء بيننا وبينكم » نحن وان اختلفنا ديناً ابناء وطن واحد .
فليجعل كل قوم دينهم رابطتهم الخصوصية اولاً ثم المرشد الامين لسيرهم
مع الغير ثم لتجتمع طوائفنا أُمة واحدة فكما ان للدين علينا حقاً فللوطن علينا
حق وللجنسية علينا حق وللغتنا علينا حق ونحن عن هذه الحقوق مسؤولون
امام الله والناس وكفى بهِ داعياً الى وجوب الاتحاد بيننا فلنتحد من هذه
الجهة قلباً ولساناً ويداً كما اتحد غيرنا من الناس في خدمة بلادهم وان
اختلفوا مذهباً ومشرباً . هذا هو الوطن مرتع الآباء ومنبع السعادة
والشقاء وكانا فيه شركاء متجاورون

دخلنا ارضهُ فحنا علينا   حنوَّ المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظماٍ زلالاً   الذَّ من المدامة للنديم

فهل انتم فيه متفقون ولأماناتكم وعهدكم راعون . اذن لكنتم أُمة
واحدة ولسعدتم كما سعدت تلك البلاد الغربية التي اذا ذكر اسم الوطن

لدى اهلها انتبذوا اختلاف الاديان وراءهم ظهرياً واجتمعوا قلباً واحداً
كأنما دينهم الوطنية ليس الا . يبذلون في إعزازها الأنفس والاموال
ويجاهدون في سبيلها مجاهدة الابطال ان ماتوا فشهداء وان عاشوا فسعداء

كم بين قوم انما نفقاتهم   مالٌ وقوم ينفقون الانفسَ

أترى هؤلاء اقلّ درجة عند الله من مجاهدي الحروب الصليبية
مثلاً وعليه فاذا تعددت الاديان في امة وجاز ان يُستند من وراء وحدة
الدين الى شيء آخر فذلك الشيء هو وحدة الوطنية »

فليتدبر هذا الكلام الذين لا يزالون منا يذكرون الدين في ازاء
الجنسية والمذهب قبل الوطنية وليجعلوا نصب عيونهم ولينقشوا على صفحات
قلوبهم قولاً مؤداهُ ان الدين لا دخل لهُ في الجنسية وان العثماني عثماني
والمصري مصري مسلماً كان او مسيحياً او اسرائيلياً وانما الكل ابناء وطن
واحد ورعايا راية واحدة تجمعنا البلاد وتضمّنا اللغة وتقرّبنا العادات
وتقيّدنا التقاليد فلا نجعلنّ الدين الذي يأمر بحب الوطن والتفاني في
خدمتهِ سبباً في سقوط الوطن وضياعهِ وعلى الله الاتكال

الفصل العشرون

حب الوطن من الايمان

لله درّ قائل هذه العبارة وسقياً ورعياً لرجل ينقشها لا على ورق
وقرطاس بل على صفحات الصدر وفي ثنايا الضمير . ونحن لا نطيل الكلام
في حب الوطن بعد ما تقدم لنا ايراده في الفصول السابقة بل نضمّن هذا
الفصل قصيدة غراء لاحد امراء الشعر العربي في هذا العصر وهو صديقنا
المبكي ادبه المأسوف على شبابه المرحوم نجيب الحداد . وان في ما حوته
من العواطف الوطنية كفاية لها عن الوصف والتعريف وهي

يا بني الشرق اين ذاك الضياء   اين تلك النفوس والآلاء
اين ذاك المقام تحسدهُ الشمـ   ـس بهاءً واين ذاك العلاء
اين من طاولوا النجوم فودَّت   شرفاً انها لهم حصباء
اين ارض قد خصها الله بالوحي   م وجاءت من قومها الانبياء
اين من أسسوا الممالك منا   فاقتدت بعدهم بها الغرباء
قد عهدنا في الشرق مطلع انـ   ـوار فما بالهُ عراهُ المساء
ايُّ شيءٍ جرى على الكون حتى   م انقلبت عن نظامها الاشياء

فرأينا غرب البلاد منيراً   وغدونا وشرقنا الظلماءُ
لست اعني بالنور شمس سماءٍ   بل شموساً ما اطلعتها سماءُ
ابرزتها ايدي الرجال باآفا   قٍ ذكاءٍ تغار منها ذكاءُ
هي شمس العلى تمثلها الشمـ   ـس كما مثّل النجوم الماءُ
كتبت احرف المساواة فيها   فتلتها حريةٌ واخاءُ
كلمٌ كلها محبة اوطا   نٍ ورأس الايمان ذاك الولاءُ
عظمته ممالك الغرب حتى   بلغت منهُ في الورى ما تشاءُ
عرفت انهُ الدليل الى الخيـ   ـر وأنّ الضلال فيهِ اهتداءُ
فاراقت دماءَها وبنته   بجسوم لها ونعم البناءُ
واطرحناهُ نحن في الشرق حتى   صدّ عنا. وطال منهُ الجفاءُ
لا لعمري بل طال منا جفاءٌ   عنهُ واستحكمت بنا الاهواءُ
من تخلى عن حبهِ لم يكن للـ   ـب ذنب فالحب منهُ براءُ
ليس حب الاوطان في لبس خزّ   واختيال تغار منهُ النساءُ
واقتداء باهلهِ كيف جاؤا   في الذي لا يفيد فيهِ اقتداءُ
وانصراف عن كل علم وتفريـ   ـق قلوب بها يقوم النماءُ
واشتغال عن البلاد باهوا   ءِ نفوس قد صدّ عنها الحياءُ
واطراح الملا أُولي الفضل ميلاً   لغوانٍ تميلها الصهباءُ
واتخاذ المناصب الغرّ اسبا   ب عداءٍ ترمى بها الابرياءُ
ان حبّ الاوطان عدل وحلم   وثباتٌ وعزةٌ ووفاءُ

واصطبار على الزمان وتأليـ   ـف قلوب وغيرةٌ وإباءُ
وجهاد في كل فضل وحر   يةُ قول وانفس شماءُ
وقلوب لا تنثني في الذي تبـ   ـغي ولو حال فيهِ نارٌ وماءُ
وأكفٌّ تعاقدت تكتب المجـ   ـد لو انّ الحروف منهُ دماءُ
ذاك حب الاوطان يا ايها النا   س وهذي صفاتهُ الغراءُ
كم نادي يا قومنا ثم لا نسـ   ـمع غير الصدى وكم ذا النداءُ
أَولسنا العرب الأُولى ملكوا المدْ   نَ ودانت لديهم الغبراءُ
والأُولى سطروا المعارف واستـ   ـجلوا خفايا الورى فزال الخفاءُ
والأُولى طالما اعانوا سواهم   فلنعنْ نفسنا ففي ذا غناءُ
ليس نيل العلى بصعب اذا سا   رت اليهِ حميّةٌ عرباءُ
نحن ابناؤُها ومن نصر الآبا   ءِ تنصرْ بفضلهِ الابناءُ
كلنا واحد لنا وطن فر   د وان عُددت بنا الاسماءُ
انما نحن هيكل واختلاف الـ   ـإسم وهمٌ فكلنا اعضاءُ
وسبيل العلى قريب هو الا   إلفة فيها المنى ومنها الرجاءُ
وعلى الله نجحنا في ختام   ان ثبتنا وصحّ منا ابتداءُ

ولنردفنّ هذا القصيد بصلاةٍ نجعلها ختاماً للكلام في حب الاوطان فنردّدها في كل صباح وكل مساء ولتكوننّ بعد الصلاة الى الله اول ما نعلمه لاولادنا ونطبعه في ذاكرة ابنائنا وبناتنا هاتفين السلام ايها الوطن المحبوب. ايها البلد الذي فيه ولدنا وربينا وفي ظلاله نعمت وشقيت. السلام ايتها

الارض التي اول ما دبت رجلاي دبت عليها وايتها السماء التي اول ما ارتفع نظري ارتفع اليها . السلام ايها القوم الذين اول ما انفكَّ لساني من عقاله انطلق بكلمات لغتهم واول ما خفق فؤادي خفق لولائهم ومودتهم . السلام ايتها الماء والانهار التي اول ما سبحت فيها سبحت وايتها الادغال والاشجار التي اول ما في ظلالها استظللت . السلام على الوطن الذي ولد فيه قبلي ابي وجدي وأُمي وفيه اخي وخالي وعمي السلام على الارض التي اليها انتمي وبرايتها احتمي .

السلام ايها الوطن انت لا سواك الحبيب الى قلوبنا المسلط على النفوس انت الاب والأُم والصديق والرفيق والمرشد والحارس بل انت الكل ونحن جزء منك فان سلمت سلمنا وان اعتللت اعتللنا فهذه ذراعنا نوقفها لخدمتك وهذا دمنا نريقه في سبيلك . وليبارك الله من سمائه ويحل عليك نعمته من علائه . اللهمَّ امين

هكذا فلتكن صلاتنا من اجل الوطن ومن اتخذ له الوطن سيداً كان شريفاً فليقل كل منا المجد لله وللوطن

لا تدعني إلاَّ بياعبدهِ فانهُ اشرف اسمائي

والسلام على من عرف الوطن وأَحبه وادرك الهدى واتبعه

الفصل الحادي والعشرون

العلم في الشرق

أمَّا وقد تم لنا الكلام في التربية العامة والعيلة والوطن فلنأخذنَّ باطراف الحديث على العلم عندنا وحالة المدارس في بلادنا مختصين مصر بهذا الموضوع فهي البلد التي هصرنا فيها غصن الشباب واجتنينا ثمار العلوم والآداب فلا بدع اذا جعلنا هذا الموضوع وقفاً عليها ولا غرابة في ان نرجع بما نقصده من الخدمة اليها

ومن وجه آخر فان بين مصر وسواها من البلاد العثمانيَّة كسوريا مثلاً فرقاً عظيماً في ما يتعلق بالاحوال العلمية وذلك ان الكلام في هذا الموضوع يجب ان يوجَّه في العثمانيَّة الى الحكومة وفي مصر الى الأُمة نفسها ولسنا نظن ان احداً يخالفنا في القول بان الشعب في بلاد العثمانيَّة عامة وسوريا منها خاصة ارقى من حكومتهِ بخلاف الامر في مصر حيث الحكومة ارقى من الشعب بدرجات عديدة . ولذلك نحن نرسل الكلام في ضرورة العلم على وجهه العام ثم ننظر في هذا الامر الى مصر نظراً خاصاً لا نقصد فيه إلاَّ الى الخدمة العامة التي هي غايتنا من وضع هذا الكتاب فنقول

جاء في الحديث الشريف مجلس علم خير من سبعين سنة عبادة . وقد قيل ايضاً العلم خير من صلاة . وقال الامام عليٌّ العلم زين وتشريف لصاحبه اجل والعلم للمرء كالمطر للارض فمن لاعلم عنده ولا معرفة له كالارض القاحلة الجدبة لا يرجى له نفع ولا يؤمل منه خير

والعلم وسيلة الاسعاد وواسطة نجاح كل بلاد فلذلك ترى الحكومات باذلة جهدها في سبيل انتشاره تعضد كل مشروع علمي وتساعد المدارس وتحث الناس على طلب المعارف وتحصيل الفنون . وترى الرجال العظام مقبلين على إكرام العلماء ورفع منارهم وتعزيز مقامهم ومعرفة قدرهم والاقرار بحاجة البلاد الى العالم الحكيم اكثر منها الى صاحب السيف ورب الدينار . وشاهد القول نصب العين وتحت الناظر فانظر معنا ايها القارىء الى البلاد التي كانت في حالة الخشونة والتعاسة ايام كان الجهل فيها ضارباً سرادقه كيف اصبحت بعد ما نشر العلم فيها لواءهُ والى اية درجة وصلت من السعادة والرفاهة . ثم عُد بي نلق على ديارٍ كانت للعلم مهداً فنعمت به زمناً ثم اهملته وتخلت عنه فخسرت سعادتها ولحق بها الخراب والدمار فكأنما كان العلم لها حياة ولجسمها روحاً فلما جفَّ فيها ماء الحياة وفارقتها الروح ماتت وتلاشت

وانَّا اذا نظرنا بعين البصيرة الى حالة الوطن العلميَّة نراها منحطة الى درجة لا يؤمل معها نجاح ولا يُتوخى فلاح . فالعلم يقتصر عندنا منهُ في غالب الاحيان وعند اكثر الناس من قومنا على معرفة بعض قواعد اللغة العربيَّة

ومبادىء لغة أُخرى اجنبية غير ناظرين الى العلوم العالية ولا مهتمين بتحصيل الفنون وادراك الصنائع التي عليها يعوَّل واليها يرجع في إسعاد بلاد وانهاض وطن

ونحن العرب قد كانت لنا دولة علم باهرة دككنا قصورها وشمس علوم زاهرة فكسفنا نورها وارتضينا بعد العلم بالجهل وخالفنا طريق اجدادنا المتقدمين الذين بنوا للمعارف في بلادهم صرحاً مشيداً واقاموا للعلوم مناراً رفيعاً . فازهرت في ايامهم البلاد وسعدت العباد وراجت الاحوال وتحققت الآمال وابقوا لنا من بعدهم دستوراً لاتباع عملهم اثراً للعلم والهمة لا يضمحل وعرشاً من المجد والعز لا ينثلّ . اجل ذهبوا ولسان حالهم ينادي

ان آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا الى الآثار

فنظرنا الى الآثار ولكن بعين الفرجة لا بقصد الاتباع فاين الكتب التي الفوها والمكاتب التي شادوها واين التعاليم التي رسموها والطرائق التي اختطوها والصنائع التي ابتدعوها والفنون التي اخترعوها واين واين . . . غرَّقت بعضها الماء واكلت بعضها النار ولحق بنا من بعدها الخسران والذل والعار . . .

على اننا لسنا في موقف الانتقاد على الاهمال ولا في مقام التقريع على التقصير بل نحن نقصد الى بيان فوائد العلم في الوطن العزيز ليعلم الناس ان تقدم بلادنا ونجاحها متوقفان على تقدم المعارف وفلاحها . فكيف يرجى

اصلاح الاحوال اذا كنا نجهل وسائله . وكيف يؤمل شفاء الداء اذا
كنا لا نعرف الدواء . ولقد وضح وثبت بالاختبار ان بلوغ بلادٍ ذروة
المجد وقمة النجاح لا يتم الا بغزارة المال وعظم الثروة وان المال هو اساس
الاعمال . فبأية واسطة نجلبه وكيف يستدرُّ في هذه البلاد وابله . سؤال
تقف عنده الافكار وتحط لديه جاريات التبصر والافتكار بل امر كرّس
لهُ الباحثون معظم ايام الحياة فما وجدوا لهُ الا جواباً واحداً لا ثاني لهُ
فقالوا باجمعهم بالعلم

اجل فما اخطأوا ولا هم ممن يكذبون أفلا ترى رأي العين كيف
تنجح الصنائع وتزهو الفنون وتنمو الزراعة وتروج البضاعة ويكثر الاختراع
وتزهر الاعمال فتقوى هِمم الرجال وتجري بين اياديهم ينابيع الثروة والمال .
قف معنا وقفة المتفرج ترَ في بلاد العلم ما يدهش البصر ويبهر النظر
ويسر القلب والخاطر ويشرح الصدر والناظر من بدائع الاعمال وغرائب
الاشغال . أفتدري كيف يستطيع المرء التغلب على تلك الاهوال . يستطيع
ذلك بما ندعوك اليه مثابرين على حثك ايها الوطني عليه . يستطيع ذلك بالعلم
وما نكثر من المقال دون ابداء البرهان وبسط الايضاح والتبيان
فانَّ خير الكلام ما وضح وبان . . . لسنا نجهل اننا بافتقار كلّي الى ما يعضد
اعمالنا وينجح اشغالنا ويصلح زراعتنا وينهض ساقط صناعتنا بل نعلم علم
اليقين ان الحالة التي صرنا اليها لا تسر صديقاً ولا ترد كيد مبغض فلقد
ذهبت من ايدينا الصنائع والعلوم وقلت بذهابها ثروتنا بل ذهبت على اثرها

اموالنا واصبحنا كأنَّا لم نكن اصحاب الصنائع ومخترعي الاعمال فوجب
علينا بعد ذلك ان نسعى جهدنا ونصل الليل بالنهار سعياً الى تحصيل ما
كنا اربابه قبل فوات الوقت والوقت ثمين وقبل ضياع الفرصة والفرصة
لا تضاع فانها متى افلتت لا تعود . ولا ملجأ لنا غير العلم فمتى انتشر بيننا
انتشاراً عاماً اتقن الزارع فن الزراعة وتفنن الصناع في اعمالهم وظهر
المكتشفون والمخترعون وعادت الصنائع الى مجراها القديم واشتغل الكتاب
والمؤلفون بما هو مهمل لقلة الطلاب وعدم وجود الراغبين

ولقد اعجبتني من احد الوطنيين كلمة فاه بها يوماً وهو ممسك بقطعة
نسيج من الحرير فتفحصها ملياً وقلَّبها في كفهِ ثم قال " انظر الى هذا
النسيج فهو يخرج من بلادنا بارخص الاثمان ثم يعود الينا كما تراه فنبتاعه
بما عزَّ وغلا . فما ترى ينقصنا لاصطناعهِ في وطننا وبيعهِ بربح وكسب "
قلت " ينقصنا امران . العلم والمال " قال " اصبت ينقصنا امران ولكنهما
الارادة والوطنيَّة فلو وجدت الارادة وكنا ممن لهم على الوطن غيرة وفيهم
حميَّة لسعينا وراء العلم مجتهدين فادركنا منه ما يكفل لنا مباراة غيرنا من
الشعوب التي تباهينا بتقدمها وحضارتها واصبحنا بجدنا وهمتنا وبما نحن
مفطورون عليه من الذكاء والنباهة نفاخر سوانا من الأُمم اذ ندرك قمة
المدنيَّة واوج الفلاح ونعيش كسوانا في ساحة السعد والرفاهة تحت سماء
الحريَّة والعدل والمساواة والاخاء " وهو وايم الله كلامٌ جديرٌ بان يكتب
بماء الذهب وينادى بهِ على رؤوس الاشهاد ليكون عبرة للمتقاعسين من

قومنا المتقاعدين عن السعي وراءَ ما يكسبهم راحة ويوليهم اجراً ويبقي لهم ذكراً تفنى الدهور ولا تزول آثاره

وما نخص في كلامنا عن العلم جنسنا القوي بل لا بد من تعليم الجنس اللطيف ايضاً وترويض اخلاقه بآداب العصر لتكون المرأة مساعدة للرجل في اعماله وشريكته في اشغاله ومعينةً لهُ على تحمل الاتعاب والمصاعب وذلك بقيامها قياماً حسناً بتربية اولادها وتدبير شأن بيتها كما سيجيءُ

والحمد لله ان رجال الشرق ولا سيما في مصر وسوريا قد ادركوا فساد الخطة التي كانت متبعة في بلادنا الشرقيَّة من اهمال العلم والتقصير في مجاراة الغربيين في مضماره فتنبهوا الى ضرورة استبدال القديم بجديد تبدد انواره ظلمات الجهل فأقبلوا على بيوت العلم اقبالاً يحمد ولكن ليس من كل وجوهه لبقية فساد في نوع التعليم كما سنبينه في موضعه من هذا الكتاب . على انه مهما يكن من الامر نحمد الله على هذه اليقظة لانها فألٌ حسنٌ مباركٌ على حدّ قول الشاعر

واذا رأيت من الهلال نموهُ ايقنت ان سيصير بدراً كاملا

هذا ما قاله الشعراء وقد قالوا ايضاً « واول الغيث قطر ثم ينهمرُ » ثم قالوا « كل من سار على الدرب وصل » الى غير ذلك من الاقوال والمعاني السامية المثبتة ان من الشعر لحكمة

وقد اخطر هذه الاقوال ببالنا ما شهدناهُ في هذه البلاد من النهضة الباهرة ونريد بها نهضة الشعب من تلقاء نفسهِ الى ارتياد موارد العلم

الصحيح والتربية الحقة مما نذكر تاريخه بايجاز للدلالة على ان الهلال متى بدا لا يبطئُ ان يصير بدراً ولا يلبث ان يبلغ التمام

وذلك ان حضرات القراء يذكرون كيف كان يُساق ابن المصري من العامة بل من الخاصة الى المدارس عن غير رغبة منه وبالرغم عن ابيه وأمه كأَنه انما يساق الى السجن وموقف العذاب . ثم انتقل الشعب من هذه الحالة الى حالة أُخرى فصار اقل تصعباً في الرضى بارسال ابنائهِ الى المدارس ثم اصبح يرغب في ذلك ويسعى اليه ولم تمضِ على ذلك مدة حتى صار ينفق من اجل ذلك الدرهم والدينار ويطرق من تلقاء نفسهِ ابواب المدارس مسترحماً قبول اولاده بين صفوف المتعلمين وكثيرون من الاهالي كانوا ولا يزالون يتحملون النفقات الباهظة لارسال ابنائهم الى اوروبا حيث يتمون العلوم التي بدأُوا بها في هذا القطر ويأْخذون باطراف العلوم السامية التي لا وصول اليها في مدارسنا

وهي خطوة خطاها الشعب المصري في سبيل الحضارة والتقدم العصري في مدة لم يكن اقصر منها في تاريخ الشعوب . ومع ذلك فاننا نراهُ في هذه الايام ناهضاً ليخطو في هذا السبيل المحمود خطوة هي اعظم من الخطوة الأُولى وذلك انهُ لما رأَى الاحتلال الاجنبي قد اخذ يعيث في مدارسنا فساداً بحجة الاصلاح ويعمل على طمس آثار لغتنا العربية وقتل عواطفنا الوطنية بافساد طريقة التعليم بحيث يكبر اولادنا بين اساتذة من الاجانب ويشبُّون على غير ما يجب ان يشبوا عليه ليكونوا في الحقيقة

رجال الوطن القادرين على خدمتهِ والاخذ بناصره مما اشرنا اليه ونبهنا عليه للمرة بعد المرة قام يسعى الى الاستغناء عن المدارس التي اوجدتها لهُ الحكومة وقلب الاحتلال نظامها فانعكست الغاية المقصودة منها

وهو سعي لا نرى اجمل ولا اسمى منهُ بل هي نقطة بيضاء في تاريخ الشعب المصري في ختام هذا القرن الذي يسمونه عصر العلم والمدنية ٠ اجل وأيُّ سعي اجمل بل أيُّ عمل اسمى من ان تسعى أمة الى تعليم نفسها بنفسها وتعمل على ان تتولى تربية ابنائها بيدها ورحم الله القائل

ما حكَّ جلدك غير ظفرك فتولَّ انت جميع امرك

ذلك ما شعر بهِ المصريون في هذه الايام فهبوا الى القاء نير التعليم الذي يريد المصلحون ان يلقوه على عاتقهم ونعم ما فعلوا ٠ ولقد كنا في مقدمة المنبهين الى هذه الحالة المنادين بالأمة الى ان تتولى كل امرها وتحكّ جلدها بظفرها قبل ان يفوت الاوان وتضيع الفرصة ٠ والحمد لله ان صوتنا قد سُمع وكان لهُ دويٌّ نبتهج له ونفرح به ٠ وبذلك صار الهلال بدراً وتمَّ تاريخ النهضة العلميَّة فبعد ان كانت الأمة تهرب من المدارس كأنها السجون اصبحت تتأهب لتشييدها على حسابها وبنائها على نفقتها

ونحن نقابل بالمسرة والابتهاج مطالع هذه النهضة الشريفة لاننا نعتبر ان الأمة التي تضع كل اتكالها على الحكومة في تعليم ابنائها وتربيتهم دون ان تشاركها في ذلك العمل العظيم بانشائها المدارس الحرة ومجالس العلم المستقلة لهي أمةٌ لا أمةٌ او شعب لا يأهل لان يكون في مصافّ الشعوب

وغنيٌّ عن البيان ان العلم هو دون سواه واسطة الى ترقية الشعوب وسُلَّم تبلغ بها الأمم قمم المدنية والحضارة ٠ وهو الميزة الكبيرة التي تفرق بين الشعوب الحيَّة والشعوب المائتة ٠ فالأمة المتعلمة هي الامة الحية والأمة الجاهلة هي الامة الميتة في الحقيقة ٠ وذلك ان العلم هو حياة الاقوام والقوة التي يتذرعون بها الى تسلق المعالي التي يريدونها والى كبح جماح الصعوبات التي تعرض لهم في ادوار هذه الحياة وهو الحسام الذي تجنى به ابعد غايات الشرف والمجد والآلة التي تستخرج بها معادن الثروة والغنى فالامة المتعلمة اذاً هي الأمة الحيَّة قياساً على ما لديها من اسباب العمران ووسائل التقدم لانها بالعلم تزيل كل عقبة تقوم في سبيل نجاحها وتقدمها ٠ اما الأمة الجاهلة فانها بالطبع عادمة كل اسباب التقدم وبالتالي كل اسباب الحياة ولذلك فهي محكوم عليها بالتأخر وبمعنى اوضح بالدمار والموت

ولا مراءَ في أن موت الشعوب لا يكون فقط بابادة الشعب ومحو آثاره من الوجود بل يكفي لان يحسب الشعب ميتاً ان يكون جاهلاً خاملاً لا تجارة له ولا صناعة عنده ولا ادب يؤخذ عنه وان يكون محتاجاً في أُموره الى الشعوب الأُخرى يأخذ منها كل شيء ولا يعطيها سوى المال الذي لديه

ولكن الشعب يحسب حياً مهما كان صغيراً اذا كانت لديه مادة يبادل بها الشعوب الاخرى موادها فلا يكون كالبقرة الحلوب يعمل لغيره ويستثمر لنفع سواه

ولعمري انه يخلق بالمريدين الخير للشرق الطالبين اصلاح حاله وانتشاله من الوهدة التي هو واقع فيها ان يمعنوا النظر في امر بالغ غاية الشأن وحد الخطارة وهو ان الامة لا تكون أمة والشعب لا يسمى شعباً الا اذا كانا يعرفان ما لهما من الحقوق فيطالبانها وما عليهما من الواجبات فيقضيانها وغنيٌّ عن البيان ان هذه المعرفة الواجبة لرفع الامة الى مصاف الامم لاتنال الأ بالعلم واقتباس انوار المعارف واول ما يُشرط في هذا الشأن معرفة لغة ذلك الشعب وتاريخه وحقائق دينه . ولنأخذنَّ مصر قياساً نقيس عليه في هذا الموضوع لنرى اذا كانت بلادنا سائرة كما ينبغي في طريق النهضة العلمية فنقول

اننا اذا نظرنا الى عدد الذين يعرفون القراءة البسيطة في هذا القطر نخجل لهذه الأُمة التي يوشك عدد ابنائها ان يبلغ العشرة ملايين . واذا احب القراء برهاناً على هذا القول فلينظروا الى هذه الارقام الرسمية الواردة في حساب الاحصاء الاخير

فقد جاء فيه ان عدد سكان مصر يبلغ ٩ ملايين و ٧٣٤ الفاً و ١٤٠٥ انفس وعدد الذين يعرفون القراءة من هذه الملايين ٤٣٥،٩٩٣ نفساً من الذكور اي بمعدل ٨٫٨ في المئة و٣١٨،٩٣ من الأُناث اي بمعدل ٦ في المئة وجملتهم من الجنسين ٤٦٧،٨٨٦ نفساً فتأمل . ومعلوم انهم ليسوا كلهم من المصريين بل بينهم الاجانب على اختلاف اجناسهم . والبلاد التي لا يعرف القراءة من سكانها اكثر من نصف عشرهم لخليقة بان تجول همها العلم

وتوجه كل عنايتها الى تكثير عدد المتعلمين وتقليل عدد الأُميين فيها

ولسنا نريد بالعلم في هذا الموقف العلوم العالية والمعارف السامية بل نقصد به تعليم القراءة والكتابة لابن الشعب بحيث يعرف لغته وتاريخ بلاده وقواعد دينه وبحيث اذا وقع تحت يده كتاب او جريدة فيها ذكر الوطنية او الواجبات القومية يكون في وسعه ان يتصفحها ويفهم معانيها . فالذي نطلبه الآن اذاً بالحاح عظيم كما يلتمس العليل الكثير الالم دواء يخفف به ألم العلة ويدفع به مخاوف الموت انما هو تعليم ابناء الشعب وتربيتهم تربية شرقيةً وطنية . اما العلوم السامية التي لا تأهل الا للخاصة فالامل وطيد في ان اغنياء الأُمة وكبراءها يتخذون لتعليم ابنائهم الخطة التي يجب على وجوه كل أُمة ان يتخذوها

وليس لبلوغ الغاية التي تقدم لنا بيانها انفع من تكثير عدد المدارس الاهلية لتعليم ابناء الشعب وتهذيب اخلاقهم بل هي الطريقة الوحيدة التي تصل بها الامة الى هذه الغاية الحميدة وكلما زاد عدد الذين يعرفون القراءة في القطر زاد عدد الذين يعرفون واجباتهم وحقوقهم وبمقدار ما يزيد عددهم يزيد عدد الأُمة المصريةً

وخير طريقة للوصول الى هذه النتيجة قيام لجنة وطنية تنشر المدارس في البلاد حتى في القرى والكفور بحيث لا يبقى الشعب أُمياً كما هو الآن ولا يكون عدد الذين يعرفون القراءة البسيطة من اهل مصر قاطبة من اجانب ووطنيين ناقصاً عن نصف عشر عددهم

وبالاجمال ان سبب تأخرنا جهلنا ودواء هذا الداء العلم فهو حاجتنا الكبرى واليه كل احتياجنا وهو وحده السبيل الى نهوضنا من السقطة التي سقطناها والانحطاط الذي وصلنا اليه

وقد طُلب الينا مرّة ان نقف في مجتمع دُعي اليه قوم كثير عددهم ونخطب في حاجة الشرق الكبرى بجرى على اللسان ما لا يزال مدوناً في الخاطر من الحض على اقتباس المعارف وورود مناهل العلم. ونحن موردون ههنا شذوراً من ذلك الخطاب الذي كلما تقادم عهده تجددت حاجتنا الى اعادته لان في الاعادة افادة وذكّر ان نفعت الذكرى وهو

« ايها الاخوان والاعوان — لقد جمعناكم الى هذا المكان حيث تجمعنا الوطنية واللغة والقصد على تفرق المذهب والبلد والرأي رجاء ان نكون الواسطة في ضم قلوبكم ورأب ما انصدع من انفسكم وتوحيد ما تفرّق من كلمتكم وتوجيه انظاركم الى محجة واحدة وارسال سهام افكاركم الى الغرض الاعلى والغاية القصوى ألا وهي خدمة الوطن العزيز خدمة صادقة لا تشوبها الاغراض ولا تدنسها الغايات والاهواء

ناديناكم وانتم خير من اجاب فلبيتم الدعوة واجبتم النداء اذ علمتم ان اجتماعنا لامر جلل وحالٍ ذي بال فاكرم بكم من قلوب شبت على حب الاوطان فدانت به وانعطفت بكليتها اليه لا تدخر جهداً ولا تضنّ بنفيس فلا عدمتكم الاوطان. أما الذين تقاعدوا عن حضور هذه الحفلة متخلفين عنها إما إلى الملاهي السائدة على عقولهم وإما لرهبة ممن يكرهون

الخير للبلاد الشرقيّة العربيّة فلندعهم في ظلمات ضلالهم وسيريهم الغد انهم هم الخاسرون اما نحن فلنا شأننا ولكل من دنياه حال يعمل بها فلنعمل اذا بما انتدبتنا اليه العناية ووقفنا له النفس من إعلاء شأن البلاد متكلين في ذلك كله على انفسنا من بعد الله واياه نسأل الهداية في السبيل الذي نسلكهُ وهو المسؤول في ان يسدّد خطواتنا إلى ما بهِ الخير لبلادنا وسائر عبادهِ آمين

وبعد فان من نكد الدنيا على الحر الصادق ان يرى الانحطاط قد استولى على وطنه العزيز وهو لا يجد الى دفعهِ عنهُ سبيلاً. ولقد اجمعنا في الاجتماع الاول رأياً واتفقنا كلمة وعقدنا النية ووطدنا العزم وتألفت قلوبنا الملتهبة بحب الاوطان — وحب الوطن من الايمان — على ان نجعل وجهة حديثنا وموضوع اهتمامنا في اعمال هذا المجلس النظر الى الواسطة الفعّالة في دفع المكروه ودرء المفاسد عن البلاد التي هصرنا فيها غصون الانس في حدائق الصباء ثم استنباط الحيلة لرأب صدع تلك الاوطان وجبر كسرها فاننا مكلفون في ذلك مطالبون بهِ ولا عذر لنا في اهماله اذ كانت لنا بمثابة الأم وكنا البنين. واي ابن يرى جرح أمه يسيل فلا يغسله بالدموع بل اي ابن يسمع أنة أمهِ من فؤادٍ عليل فلا تنشقُّ منهُ الضلوع. ولقد تفضلتم فكلفتمونا النظر في الامر اعتقاداً منكم اننا لذلك اهل وعهدتم الينا البحث والتنقيب فشمرنا عن ساعد الجد والاهتمام ولم نخلف ظنكم بنا مع ما نحن عليه من قصر الباع وقلة المتاع. فلقد فُتح علينا — ونحمد الله على ما اولانا اياه ونحن احقر

عبيده من الفتح الذي يؤهلنا لخدمة الاوطان — فجمعناكم الى هذا النادي لنزف اليكم بضاعتنا فانظروا اليها بعين الحلم وأصلحوا ما فسد منها فالانسان موضع الغلط وما نحن في الأرض بمعجزين

موضوعنا ايها السادة والاخوان البحث عن علة تأخر الاوطان والسعي وراء الواسطة التي تنيلنا الامنية والنجاح . اما علة تأخرنا فمعروفة مشتهرة عنا ألا وهي الجهل الذي خيم فوقنا والاهمال الذي تسلط علينا مع عدم النظر في العواقب وما افيض في الكلام على هذا الموضوع اذ ليس فيكم إلاَّ من يدري بامره ويذوق الآن مرارة عاقبته

واما وسيلة النجاح فهي النقطة التي ينبغي ان نوجه اليها الابصار والمحور الذي يجب ان تدور عليه الافكار ... لا يتم نجاح شعب الا باستقلاله ولا يكون استقلاله الا بعلمه وغناه ولا سبيل الى العلم والغنى الا بالجد والسعي والاصلاح ولا اصلاح الا مع الحريَّة ولا حرية الا متى عرف الشعب مواجبه وحقوقه وهنا نقطة المسألة

وكأنَّنا بكل فرد منكم ينتظر ان نطيل الشرح عن كل هذه المواد ونفصّل كلاً منها على حدتها ونعرّفها تعريفاً يدنيها من فهم الجميع من السيد العالم الى العامل والحارث والصانع والجاهل . ولكن قد طاش سهم من ظنَّ ذلك واخطأ الغرض فان الثمرة لا تُقطف إلاَّ متى نضجت ونحن نرى شعبنا — وسيف الاسف يمزّق احشاءنا — لا يزال بعيداً عن التفكر بحراثة ارض هذه الشجرة والعناية بها ورعايتها كي تنضج ثمارها بحسب شريعة الارتقاء

وناموس التقدم فمن الواجب اذاً في بادىء الامر ان نفتح ابصار الشعب بالتعليم الابتدائي العام فمتى تلقنه واحسن فهمه نقوده الى ما لا ندحة عنه للشعب الذي يسعى وراء الكمال ألا وهو اعتبار نفسه في المنزلة الحقيقيَّة التي هو فيها ومعرفة ما للمرء من المقام في هيئة الاجتماع وان الرجل حر الارادة غير مقيد إلاَّ بسلاسل الشرائع الطبيعيَّة والقوانين الوضعيَّة المدنيَّة والنواميس المتعاهَد عليها المتعامل بها . ومتى عرف ذلك ادرك من نفسه الحاجة الى ما فوقه مما هو اسمى منه من معرفة الحقوق والواجبات فيسعى اليها سعي عارف بما يجب عليه عمله للوصول الى مبتغاه وحينئذٍ فلا خوف من المناداة امامه بالحريَّة والمساواة وفتح ابواب العلوم العالية والمعارف السامية والفنون والصنائع الجميلة التي هي مصدر الثروة ومنبع الفخر والمجد عند كل أُمة من أُمم الحضارة

هذه هي القواعد والأُصول التي فُتح بها علينا والتي لا سبيل لان نرومها الآن برمتها من عامة الشعب فان بلادنا ليست في حالة البداوة فنسير بها على هذا النمط التدريجي ولا هي في درجة الحضارة التامة فننهض نهضة واحدة للمطالبة بحقوقنا وصيانة مصالحنا ولا في طاقة خاصتنا ان تبدّل اخلاق العامة مرة واحدة وتبث فيها روح المدنيَّة وتسقيها العلم كالماء والظفرة محال فالتأني اذاً اولى وهو خليق بنا في هذه الحالة الصعبة والمقام الحرج . على ان ذلك لا يعفيكم — وانتم خاصة الشعب وعيونه — من أُمور يتوقف عليها مجرى التقدم في الحال . فاعلموا ان لا بدَّ لكم من

بذل بعض ما في ايدي اغنيائكم من المال المتجمع والذي لا فائدة من خزنه في زوايا الخزائن بل من الواجب صرفه في الأمور التي تعود بالفائدة على الوطن من انشاء المدارس والمكاتب والمعامل والمطابع ومساعدة الكتاب ونوادي الادب وتهذيب الاحداث وتعليم الشبان وتشغيل الفقير القوي واغاثة الملهوف ثم اعطاء كل ذي حق حقه واعتبار كلٍّ في درجته ومعرفة حقيقة الاحوال الادارية والسياسية والعلم بان الرئيس كالمرؤوس تجاه هيئة الاجتماع وان لكل منهما حقوقاً كما ان على كل منهما واجبات . وما نكتمكم أن من وسائل التقدم في البلاد ان يكون وجوه الشعب وخاصته وعلماؤه ذوي اهتمام بشأنه وسهر على مصلحته واصحاب رأي في احواله وان يكونوا منتقدين عليه ما يجري فيه غير خائفين سطوة ولا عارفين غير صوت الحق . ومن مواجبهم ايضاً ان يقودوا الشعب الى الخير بآرائهم السديدة وان ينصفوا الضعيف من القوي ويأخذوا للفقير من الغني وان يكونوا يداً واحدة ويسعوا في ضم كلمة العامة واستئصال الشقاق ويؤلفوا حزباً وطنياً من شأنه المعارضة في كل ما ليس هو من مصلحة الوطن العامة ويشجعوا كل ذي مشروع وصاحب اختراع ويدفعوا بالوطني الى مباراة الاجنبي ويفضلوه عليه في المعاملة وان لا يحقروا شأن الصغير ولا يدعوا للكبير سبباً للاستبداد ولا سبيلاً الى الظلم وان يكونوا على استعداد دائم لأن يقوّموا أود الحكام ولو بحد السيف

هذا ولما كنا الآن في مركز حرج وقد حُظر علينا الاستقلال الذي

هو خير راحة للأمة واعظم الغايات والاماني التي تطمح اليها قلوب الشعوب نرى من الواجب علينا نحن الذين نصبتمونا للبحث عن الواسطة الفعالة في انتشال البلاد من الورطة التي وقعت فيها والبلايا التي صُبَّت عليها ان نذكر لكم في هذا الموقف اننا لا نصل الى ما نريده الا بتقوية الشعب وما نقويه الا اذا علمناه ان له حقوقاً يقدر بل يجب عليه ان يطالب بها وههنا عقدة المسألة

أجل مشكلة يا قوم فكيف نحلها . . .

قيل ان نهراً عظيماً طغى على بعض القرى فقام اهل القرية المجاورة لرد شره فلم يتمكنوا من مقاومة طغيانه وكانوا كلما اقاموا في وجهه سداً اخذته مياهه وطغت على ما وراءه وخربت وهدمت فراع البلاد شره واجتمع الناس يتداولون فيما يجب ان يفعلوه ليكفوا انفسهم شر الغرق وفيما هم في جدال واخذ ورد يريد ان يقيم كلٌّ حجته ويعمل برأيه هجمت عليهم المياه فابتلعتهم عن آخرهم وغرقت ديارهم

ونحن نخشى ان يجيء امرنا نحن العرب مصداقاً لهذا المثل اذ نلهو بمعارضة بعضنا بعضاً عن سير التيار فما ندري الا وقد قبضت علينا يد لا يبقى لنا منها مناص ولا خلاص . ولكننا نذكر مثلاً آخر نرويه لكم كما عرفناه ونرى اننا اذا عملنا به كان لنا التوفيق والنجاح

فلقد قيل ان نهراً عظيماً طغى ايضاً على بلاد أخرى فلم يضع اهلها الوقت بالجدال الفارغ ولكنهم اجتمعوا مرة واحدة فخطب فيهم احد

روؤسائهم فقال ياقوم ان البلاد في خطر الغرق ولا طاقة لنا بردّ المياه فان كان لاحدكم رأي يكفينا بهِ شرها فليبدهِ . فقام من بين الجمع فتى لم يلبس الخزّ ولم يتشح بالديباج وقال ارى ان نحوّل مجرى النهر الى اوسع منهُ ونفتح لهُ مجاري وسواقي أخرى كثيرة ينفذ منها . فقالوا باجمعهم احسنت احسنت وبادروا في الحال دون مراء ولا جدال فاحتفروا للنهر مجرى جديداً واسعاً وكان بذلك خلاصهم

واننا نرى ان نتشبه بهم فلا نضيع الوقت بالمجادلة والمجازفة وتقريع بعضنا بعضاً بل الاولى والأخلق لنا ان نبادر الى تحويل مجرى الأمور واستبدال الاحوال وخلع الثوب القديم على ما سبق لنا بيانه في صدر هذا الكلام وان كان ذلك لا يتم لنا على سبيل العجلة فلا بأس من التأني فان الاهميَّة متوقفة على البدء في العمل فلنبادرنّ اذاً الى اثارة الخواطر بقتل القديم لاحياء الجديد . واننا انما نطقنا بما يختلج في صدر كل منكم وما هو إلاّ بخار الوطنيَّة يتصاعد من نيران الحميَّة العربيَّة . ونحن آملون بكم واثقون من غيرتكم معتمدون عليكم في تحقيق الامنيَّة وبلوغ الرجاء حتى اذا دنا اليوم السعيد الذي يتم فيه عملنا المجيد نرفع روؤسنا المنخفضة ونقول بتيه وافتخار ألا ياقومنا لقد فتحت لكم ابواب الحريَّة فادخلوها بسلام آمنين

واذا سألتمونا كيف تنفتح البصائر وتنار الاذهان وتجتمع الكلمة وتعقد الخناصر وتوجد الجامعة الوطنية وتعظم الشعوب وتعلو مكانة الامة وينال الاستقلال ويغزر المال بين ايدي الرجال اجبناكم ان ذلك حاصل

بالعلم وان العلم يحيي الامة والجهل يقتلها فلا ترضوا ايها السادة والاخوان بان تكون أممنا الشرقية أمماً ميتة وشعوبنا العربية شعوباً خامدة بائدة والسلام على من اتبع الهدى »

ولسنا بعد كل ما تقدم نشعر بالحاجة الى مزيد من الحض على تعليم ابنائنا وانشاء المدارس في هذا القطر الذي لا نهضة لاهله من عثرتهم الا بتعليم الشعب وتربيتهِ وتهذيبه الى حد يصبح معهُ قادراً على مجاراة سواه من الشعوب المتمدنة وأُمم الحضارة والصناعة

هذا ولو لم تكن الحالة في مصر على ما هي عليه الآن من وجود الاحتلال الاجنبي القابض بيد حديديَّة على عنق البلاد وحكومتها لكان حديثنا موجهاً بعضه الى الحكومة ولكانت لنا كلمة في التعليم الاجباري ولكن الحالة ههنا لا تشبه احوال الشعوب الأُخر في شيءٍ فان القابضين على زمام الامور أَحب ما اليهم ان يفسد التعليم فساداً تاماً بل ان تقفل ابواب المدارس ويغوص الشعب في لجة من الجهل لا قرار لها . فلذلك نحن نوجه الخطاب الى الشعب مرددين لكل مصري آية احدى الكتب المقدسة « خلاصك في في يدك يا اسرائيل » وانت يامصر خلاصك بيدك والعلم وسيلة نجاتك « وقد تبين الرشد من الغيّ فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فانما يضلُّ عليها »

ذلك فيما يتعلق بمصر اما العثمانية التي ننتمي اليها ونغار عليها غيرة الوطني الصادق الذي يلتمس لوطنهِ الاصلاح ويرغب له كل رفعة وعز

ونجاح فاننا نلقي اللوم كل اللوم في انحطاط الآداب والمعارف فيها على حكومتها لا على شعبها. لان الشعب في العثمانية ولا سيما الذين لغتهم العربيَّة من اشد الناس رغبة في تلقي المعارف والعلوم واتباع طريق المدنيَّة العصريَّة والحضارة المفيدة حتى انك لا تكاد تمر في شارع من شوارع الحواضر الكبيرة في سوريا ولا تكاد تذكر قرية ولا دسكرة ولا كفراً دون ان ترى بناء مدرسة او باب «كتَّاب» واذا عددت الشعراء والكتبة في سوريا عددتهم بالمئات واذا حسبت الذين يعرفون القراءة وكلهم من اهل البلاد وجدت عدد المتعلمين يتجاوز عدد الأُميين تجاوزاً عظيماً ويفوقه كثيراً

ومع ذلك فانك تجد الآداب العامة منحطة وسوق العلم في كساد لم يشبهه كساد في مكان او في زمن من الازمان . والسبب في ذلك خطة الحكومة في التضييق على الشعب والضغط على الافكار وسعيها في حبس الاقلام ومنع الالسنة الكلام بحيث صرنا على وشك ان نحكم بانها تعمل عمداً على قتل العلوم والمعارف لقتل العواطف الشعبية ومنع ترقية الامة ونجاحها وليس ذلك بالشأن الذي يجب ان يكون شأن الحكومات بل من الواجب على الحكومة في تلك البلاد التي توشك ان تخلو من كل صاحب قلم وفكر ان تخالف طريقتها الحاضرة وتذكر أَن العمران لا يتم إلاَّ بالعلم وان البلاد التي لا ينشر العلم فيها رايته تُنشر فيها راية الجهل وبالتالي ان التأخر والانحطاط والفقر مع الظلم والاستبداد والخيانة وكثرة الجرائم وامتلاء السجون

وشهد الله اننا لم نكن نود ان نخط من هذا الكلام حرفاً عن بلادنا ولكن ليست في اليد حيلة وقد احرجنا القوم حتى اخرجونا عن جادة الاعتدال ولنا في ذلك عذر اننا نرى الوطن المحبوب يذبح بسكين الجهل فلا بدع ان صرخنا صرخة الأَوَّاه

وحبذا لو تنبه ولاة الشأن والشعب معاً الى حقيقة ثابتة لا ريب فيها ولا مراء وهي ان السجون لا تفرغ حتى تمتلئ المدارس وان المدارس في العثمانية لا تمتلئ كما يجب وكما ينبغي الا متى اخذت الحكومة بيد الشعب وعضدها هو ايضاً في عمل التربية العظيم

نعم ان الحكومة العثمانية آخذة بانشاء المدارس وتكثير عددها ولكن ذلك وحده لا يكفي بل ينبغي ان تكون طريقة التعليم من الطرائق التي تحبب مدارسها الى الناس فيلوون عن مدارس الافرنج اليها ويلجأون الى كنفها . ثم يجب عليها ان تنظر في جعل التعليم الزامياً وحفظ مقام المتعلمين وايجاد الطرائق التي ينفع العلم معها بحيث لا يفضل احد في البلاد الجهل على العلم كما هي الحالة الآن

ولو شئنا ان نفيض في هذا الموضوع لاضطررنا الى اختصاصه بمجلد في حجم هذا الكتاب فنحن نقف منه عند هذا الحد مؤملين ان يفتح رجال العثمانية ابصارهم وبصائرهم وان يتلافوا الحالة بالتي هي احسن قبل ان نصل الى يوم ننشد فيه قول الشاعر «أُعطيت ملكاً فلم أُحسن سياسته» والله المسؤول في تسديد خطواتنا جميعاً الى ما به الخير والصلاح ان شاء الله

الفصل الثاني والعشرون

فجر الحرية في الديار العربية

اثبتنا في الفصل المتقدم ان حاجتنا الكبرى هي العلم على شرط ان نقرنهُ بالتربية · لانه كما ان الداء الذي أُصيب الشرق به هو الجهل الذي مُني بهِ الشرقيون فأوقف تيَّار المدنيَّة والحضارة في بلادهم كان من البديهي ان يكون العلم الدواء الشافي من هذه العلة التي استحكمت فينا الى حد يخشى معهُ ان تكون سبباً في ضياع بلادنا وأُمتنا

انظر الى الشرق الاقصى ترَ فيهِ دولتين من دول الأُمم الصفراء احداها تسمي نفسها المملكة السمويَّة وتدعو ملكها ابن السماء ولا يحصي عدد سكانها إلاَّ الله وقد قيل في عام ١٨٧٧ اي منذ اثنين وعشرين عاماً انهم يزيدون على اربعمئة وثلاثة وثلاثين مليوناً ونريد بها مملكة الصين· والثانية مملكة الشمس المشرقة وعدد سكانها في الاحصاء الاخير ٤٢ مليوناً وهي اليابان

فاذا قيل لك ايها القارىء ان الحرب اورت زناده وتطاير بين الصين واليابان شررها أَفلا تظن بل أَلا تحكم حكماً باتاً دون اقل تحفظ

بأن ابن السماء يظفر بصاحب الشمس المشرقة وان الصين تأخذ اليابان في أَسرع من لمح البصر وتُنتصر عليها نصراً مبيناً

بل هكذا كان ظن الناس جميعهم عند ما ثارت الحرب منذ نحو خمس سنوات بين الصين واليابان لاعتقاد الجميع ان الكثرة تغلب الدربة وان الاربعمئة المليون من الصينيين اذا اندفعت على الاربعين مليوناً من اليابانيين داستها دوساً وحطمتها بارجلها تحطيماً كما يدوس الفيل برجله ضفدعاً ويهشمها دون ان يشعر بذلك

ولكن النتيجة اخلفت ظن الجميع وظهر بنو اليابان وهم اقلُّ من اربعين مليوناً على بني الصين وهم يزيدون على اربعمئة مليون وفازوا عليهم فوزاً عظيماً وأَجلوهم عن اعزّ مواطنهم واخرجوهم من امنع حصونهم ومعاقلهم واسروا جنودهم وقوادهم وحطموا بوارجهم واحرقوا اساطيلهم ولو لم تدخل دول اوروبا فيما بينهم لدخلت اليابان عاصمة الصين عنوة وبزغت انوار «الشمس المشرقة» في عرش «المملكة السمويَّة» ليستنير بها «ابن السماء»

والسرُّ في ذلك ان العلم جعل القوة في جانب القلة كما ان الجهل جعل الضعف في جانب الكثرة · ولا بدع في ذلك فان الرجل الجاهل كالولد الصغير ونحن اذا اخذنا رجلاً قوياً وجمعنا عليه خمسين ولداً واكثر فانهم ينهزمون امامه في اقل من رجع الصدى ويهربون متشتتين تشتت جيش من الجرذان امام هرٍ واحد

وقد قرعت اليابان ابواب العلم ففتحت لها وهكذا كل من يفتش

يجد ومن يقرع يفتح له ودخلت رحابه مشمرة عن ساعد الهمة والعزيمة فنهضت في أقصر مدة نهضة عظيمة تُضرب بها الامثال حتى في اوروبا نفسها وأعدت بذلك سبيل تقدمها وهيأت بالعلم اسباب نصرها على الصين وتحكيمها السيف الياباني في رقاب الصينيين

واليابان تباري الآن بصناعتها صناعة اوروبا نفسها فما الذي رقى بها هذا الارتقاء الباهر وحط الصين ذلك الانحطاط العائب. أو ليس اليابانيون والصينيون ابناء جلدة واحدة صفراء أو ليس كلا الفريقين من طينة سائر الناس فهم قابلون لناموس الارتقاء والانحطاط على حسب التربية التي يتلقونها والهمة التي يظهرونها

بلى ولكن الياباني خلع ثوب الجهل القديم واستبدله بلباس العلم القشيب في حين ان الصيني بقي مرتديًا ذلك السربال الرث البالي راضيًا بالتعثر باذياله مفضلاً العمى الذي هو فيه على النور الجميل الساطع

فلا نكوننّ كالصين التي على كبرها نالت منها جارتها الصغيرة ذلك المغنم بل فلنتشبهنّ باليابان في خلع رداء الجهل القديم لنتشح ببُرد العلم الذي هو وحده مورد الحريّة والاستقلال والثروة والحضارة وكل ما يُحسب فخرًا للشعوب الحية والأُمم النامية

ونحن نردف هذا الكلام بقصيدة وضعناها ايام كان غصن الصباء رطيبًا وجعلنا عنوانها عنوان هذا الفصل وفيها من الحض على اقتباس انوار المعارف والعلوم ما نرجو ان يؤثر في نفوس القراء وتعود فائدته على

الوطن العزيز وهي

يابني عمنا سلامًا فإنّا   قد وردنا مناهل الحريه
وغدونا اهلاً لان نتكنى   بجميل المآثر العربيه
وسلامًا يا ايها الفجر إنّا   قد رأيناك تبعث الذريه
انت نورٌ فاقبس لنا منك نارًا   ذات نورٍ يضيء ليل البريه
انت تحيي العظام وهي رميمٌ   كيف لا تبعث النفوس الأبيه
قد جهلناك ثم عدنا فعد فالـ   عود حمد وللعلى اريحيه
مهدك الشرق ايها الفجر فاحفظ   عهد مهدٍ وارعَ العهود الوفيه
عدْ الينا كما نعود وندعو   لا تخيب آمالنا الشرقيه
نحن قوم لم نرع قدر المعالي   فارتدينا الهوان والسخريه
ودعونا عليك جهلاً ولكن   قد ندمنا الندامة الكسعيه
فأجرنا مما جنيناهُ واذكر   جيرةً قد مضت وكانت هنيه
يا لقومي لقد تألق في الشر   قِ هلالٌ باحرفٍ ذهبيه
فأميطوا عنها اللثام ونادوا   ايها الناس غيرة وطنيه
واستنيروا بنور فجرٍ جديدٍ   لا تظنوا انواره سريه
فهو بادٍ دون الحجاب فمدوا الط   رف تلقوا اشعة شفقيه
هي بشرى لكم بانوار مجدٍ   دونهنّ المطالع الشمسيه
يالقومي فينا المنادي ينادي   فافيقوا لنجني الأُمنيه
رنّ في مصر صوته حين نادى   فأفاقت على الصدى سوريه

فالى ما نلهو ونغفل عنهُ ولنا منهُ كل يوم عطيه
أَولسنا العرْب الكرام الأُولى قا دوا جميع الشعوب للمدنيه
وتسامى بفضلهم كل فضل وتعالى بعزّهم والمزيـه
من اقاموا للمجد صرحاً مشيداً فوق كسرى والدولة القيصريه
نهضوا فامتطوا متون المعالي حين ملوا امتطاءَ متن المطيه
فهم القوم من يحدّثْ ومن يسـ ـكتْ فآثارهم لدينا جليه
تلك آثارهم تدل عليهم من حساميةٍ ومن قلميه
فاتبعوهم في إثر كل يراعٍ وأَعيدوا المعالم العلميه
فبخط اليراع ادراك ما تعـ ـجز عنهُ البواتر الخطيه
وخذوا كتبهم كتائب نجحٍ فتحها في السطور لا المشرفيه
فبها تبلغون ما تتمنو ن من الارتقاء والحريه
واجعلوا بدءَكم مطالع سعي نقتفيها الخواتم العنبريه

الفصل الثالث والعشرون

طرائق التعليم

نظن اننا استوفينا الكلام في الحضّ على نشر العلوم في البلاد وانشاء المدارس والمكاتب وبيان الفرق بين الأُمة المتعلمة والأُمة الجاهلة غير مدّخرين جهداً في اظهار فضائل العلم الذي هو حياة كل أُمة وشعب . فبقي علينا ان نطلق عنان هذا القلم في التماس وجهٍ من وجوه الاصلاح العلميَّة ونريد بذلك اصلاح طرائق التعليم المتبعة ليس في مصر فقط بل في سائر بلاد الشرق ايضاً

ونحن عند ما نقول بلاد الشرق انما نقصد بلادنا العثمانيَّة والمصرية لا كل قطر شرقي اذ لا تهمنا من كل شرق وغرب غير مصر والعثمانيَّة . ولا ينكر علينا القراءُ ان طرق التعليم في بلادنا فاسدة إلاَّ ما كان منها متعلقاً بتعليم ابناء الافرنج في المدارس التي أُنشئت في البلاد لنا ولهم ولكن اصحابها يجرون في التعليم على الخطة التي توافقهم وحدهم دون ان تنطبق اقل انطباق على احوالنا وما نحتاج اليه

وقصارى ما يمنحوننا اياه كأَنما هم يجودون علينا بالنعمة التي ليس

وراءَها نعمة انهم يعلموننا على يد اساتذة من الاجانب ايضاً شذوراً من لغتنا العربيَّة يلقنوننا اياها في فترات من الزمن غير متتابعة ولا متلاحقة بحيث نخرج من مدارسهم بعد قضاء السنين الطويلة ونحن لا نعرف ان نكتب بلغتنا سطراً واحداً . واذا عرض لنا حديث ترانا نمزج فيهِ بين الكلمات العربيَّة والالفاظ الاعجميَّة ونرطن بلغات لا يفهمها إلاَّ المتخرجون منا في مدارس الاجانب

ولا يخفى ان اول شروط التعليم ان يُعلَّم التلميذ مبادئ لغته وأُصولها قبل كل لغة وعلم وان يدرس تاريخ بلاده وجغرافيتها وقواعد دينه ومذهبهِ ليكون لهُ ذلك سلماً يرقى بها الى العلوم السامية والمعارف الكماليَّة

ونحن اذا نظرنا الى حالة التعليم في كل بلاد المشرق نراها على غير ما يجب ان تكون فان اول ما يُلقى على التلميذ من مبادئ العلوم دروس في اللغات الاجنبيَّة وآخر ما يختم بهِ علمهُ كتب في اللغات الاجنبيَّة ايضاً حتى انك اذا التمست كتاباً في العلوم العصريَّة مكتوباً باللغة العربيَّة فقد لا تجدهُ وذلك لا لقلة المؤلفين والكتبة عندنا بل لانصباب المدارس حتى الاهليَّة منها على تعليم كل علم خارج عن علم اللغة بكتب الافرنج بل ان بعض المدارس قد اتخذت لتعليم اللغة العربية نفسها كتباً وضعها بعض الاوروبيين كما يعرفون لا كما يجب ان تكون ودفعوها الينا قائلين « خذوا لغتكم من رجال اعاجم »

ولا مراءَ في ان هذه الطريقة من اعظم الطرائق تسهيلاً لقتل العلم

في البلاد وطمس آثارهِ لأن التعليم على هذه الصورة لا يمكن ان يكون إلاَّ فاسداً ومتى فسد التعليم ضاع ضياعاً تاماً وعاد بعكس النتيجة التي تنتظر منهُ بل كان الجهل افضل منهُ

وغنيٌّ عن البيان اننا لا نقصد بما نلتمسهُ من اصلاح طرق التعليم ان نُقدم فقط اللغة العربيَّة على سواها في مدارسنا فاننا وان نكن نعدُّ هذا الامر ذا شأن عظيم وتأْثير بعيد في كل ما هو متعلق بنا نرى ان جعل التعليم باللغة العربيَّة لا يكفي وحدهُ لاصلاح احوال مدارسنا وجعل العلم الذي يتلقاهُ ابناؤُنا عائداً على البلاد بالفائدة والنفع

والذي نراهُ للوصول الى هذهِ الغاية انهُ لا بدَّ من قلب نظام التعليم باجمالهِ واستبدال الطرائق المتبعة الآن بما يكون اكثر انطباقاً على احوالنا وشؤُوننا . لان تعليم ابناء العامة ما لا يفيدهم ولا ينفعهم من مسائل الفلسفة الوضعيَّة والفلسفة العقليَّة مثلاً لا تكون نتيجتهُ سوى نفخ روح الكبرياء في رؤُوسهم بحيث يصبحون متى دارت على السنتهم مسأَلة من هذهِ المسائل وهم لا يفهمون رأسها من ذنبها كالضفدع التي رأَت بقرة سمينة فاحبت ان تقلدها فانتفخت حتى تفزَّرت

واذا شئت ان نضرب لك مثلاً شاهداً فأَجِلْ نظرك بين صفوف المدارس في هذا القطر الكبيرة منها والصغيرة تجد نفس العلوم تُلقى على ابن الوزير والتاجر والخضريّ والنجار والحداد والكناس كأَنهم معدون كلهم لتحصيل العلوم السامية والمعارف الكمالية وكأَنهم من ابن الوزير الى

ابن الكناس الغني منهم والصعلوك الفقير سوف يشتغلون في درس القوانين
والطب والهندسة والتصوير وما شاكل ذلك من العلوم العالية والفنون الجميلة
على اننا لو تدبرنا لعلمنا ان هذه الطريقة لا يمكن إلاَّ ان تعود بالضرر
على هؤلاء الاولاد الموكولين الى عهدتنا لما ان ابن الفلاح الذي نلقنهُ
نفس العلم الذي لقنته ابن الوزير الغني يأنف متى خرج من المدرسة ان
يشتغل بارضهِ ويعمل كما كان يعمل ابوهُ وجدُّهُ

ونحن نرى في كل يوم رأي العين من الشواهد على صحة هذا القول
ما يكفينا مؤونة الافاضة في الكلام عن هذا الموضوع

فلو كان المتولون عندنا امر التدريس والتعليم وبالتالي إعداد ابناء
الأمة لان يكونوا فيما بعد رجالاً ينفعون انفسهم وبلادهم ويخدمون عيلتهم
ووطنهم يتنبهون الى هذهِ المسألة الخطيرة لما بقيت الحالة على ما هي عليهِ
الآن ولما كان العلم في اغلب الاحيان آفة الشرق وسبب الضرر الذي
يلحق بهِ

ولسنا نخاف في هذا القول ملاماً فاننا اذا نظرنا الى بعض شباننا
المتعلمين بعين التبصر والتروي وددنا الف مرَّة لو بقي هؤلاء دون علم
وكان الجهل افضل لهم من هذا العلم الذي لم ينتج إلاَّ الضرر والاذى
كالشوك الذي ينبت في الحقل فلا يترك الارض مستريحة ولا يجني منهُ
صاحب الارض ثمرة

وليس فينا علي ما نظن من يجهل ان من اعظم فضائل العلم انهُ

يعرّف الانسان قدر نفسه . ولكنه متى كان على تلك الصورة لا يمكن
ان يكون إلاَّ ناقصاً . ومتى كان العلم ناقصاً فهو انما يعلّم الانسان جهل
قدر نفسه وتلك غاية التعاسة في هذهِ الدنيا

نقول ان العلم على تلك الصورة لا يمكن ان يكون تاماً وذلك
لاسباب جمة اهمها ان ابن الفقير الذي تأتي بهِ من وراء البهيمة في الحقل
او من وراء كور ابيهِ في حانوتهِ وتجلسهُ الى جانب ابن ذي ثروة
ويسار لا يستطيع ان يفهم شيئاً مما تلقيهِ من الدروس وتشرحه من القواعد
العلميَّة حتى الابتدائيَّة منها . بل انك اذا بدأت بتعليمهِ حروف الهجاء
فانهُ لا يستطيع ان يتعلمها كما يتعلم رفيقهُ من بني النعمة وذلك امر طبيعي
لا يحتاج الى دليل . فيضطر للسير مع رفاقهِ الى القفز من درس الى
درس دون ان يفهم شيئاً . او انهُ يفهم بعض الشيء ولكن حالة والديهِ
لا تسمح لهم بتركهِ في المدرسة يقضي فيها السنين والاعوام وعلى كلتا
الحالتين يكون علمهُ ناقصاً لا فائدة منهُ ولا نفع

ولذلك قلنا انهُ ينبغي تعديل طرائق التعليم عندنا تعديلاً تاماً تنقلب
معهُ عما هي عليهِ الآن وتصبح منطبقة على احوالنا فيتلقى كل واحد منا ما
هو في حاجة اليهِ من العلوم او ما يساعدهُ على تحصيل معاشهِ سواء بالاشتغال
في ارضهِ او العمل بصناعتهِ

وإلاَّ فما زلنا متبعين طريقة التعليم التي نجري عليها منذ سنين فاننا
نستمر على ما نحن عليه من الجهل مع اعتقادنا في انفسنا العلم والجاهلي

الذي يحسب نفسه عالمًا اضرُّ كثيرًا بنفسهِ وببلادهِ معًا من الجاهل الذي عرف نفسهُ جاهلاً

ومن الشواهد على هذا الامر انك لا تجد في الشرق ولا سيما في الناشئين من ابنائهِ في المدارس التي تلقن العلم نصفيًا إلاَّ كل صاحب دعوى وغرور بنفسهِ · وانك لا تجد فينا الا كل من يأنف من الاشتغال بحرفتهِ او العمل بصناعتهِ بحجة انهُ متعلم فلا يليق بهِ ان يحمل سوى اليراع

ولا مراءَ في ان هذه الحالة مضرة من كل الوجوه وقد كان في ودنا لو نستطيع بيان اوجه الضرر كلها فنثبت لكل مرتاب بفساد طرائق التعليم في الشرق ووجوب اصلاحها ان الاستمرار على هذه الطرائق واجتناء ثمار العلم الحقيقي امران لا يسير احدهما مع الاخر ولكننا نشهد في كل يوم دليلاً على اضرار هذهِ الطريقة بحيث لا نجد حاجة الى سوى التنبيه اليها ولو إلماعًا فيكون كلامنا بمثابة تذكرة لقوم لا يجهلون

الفصل الرابع والعشرون

تعليم المرأة

اشبعنا الكلام في الفصول المتقدمة عن ضرورة التعليم بوجه الاجمال وشدة حاجتنا الى العلم الذي نضب في بلادنا معينهُ او كاد بحيث اصبح الوطن مفتقرًا الى اهم موارد الحياة وامسى على وشك ان يبتلى بالدمار والبوار اذا لم يتداركه السكان بنهضة ينسخون بها آية الماضي ويستبدلون الثوب القديم بلباس العلم الجديد او ينسخون آية الليل بآية النهار انها كانت مبصرة

وقد جعلنا البحث في الفصول المتقدمة دائرًا على تعليم الرجال دون ان نتعرض لمسألة تعليم المرأة لعلمنا بما لها من الشأن ورغبتنا في إفراد فصل خاص نحيط فيهِ باطراف هذا الموضوع الخطير

أَلمعنا في فصل العيلة الى خطارة مقام المرأة ولا بدع فانها الزوجة والأُم وهي اول من يُعهد اليهِ بتربية الولد ويوكل اليه امرهُ ليصير رجلاً حقيقيًا فمن العبث ان نتركها في حالة الجهل التي هي فيها ثم نطالبها بإحسان التربية وتتمة عمل الخلق العظيم

وليس في وسع احد ممن اطلعوا على المقالات التي نشرناها فيما مضى سواء في مجلتنا « الراوي » التي اخنى عليها الدهر وا أسفاه لاسباب ليس هذا موضع ذكرها اوفي جريدة « الاهرام » الغراء . أن ينكر اننا نناضل منذ سنين واعوام في سبيل تعليم المرأة وتربيتها تربية صحيحة تصبح معها مساعدة حقيقيَّة للرجل في كل الشؤون التي تطلب منهُ . ونحن لا نقول ذلك من قبيل التظاهر بل للدلالة على ان الموضوع الذي نحن فيهِ ليس بالجديد وان المطالبة بتعليم المرأة الشرقيَّة ليس بالبدعة التي ينبغي رفضها واستنكارها

وقد كنا دائماً نتحفظ في الكلام على المرأة المسلمة ونمسك القلم عن الجري في مضمار الحض على تعليمها وتربيتها وبالتالي على تحريرها من ربقة الجهل ورفعها من الدرجة التي انحطت اليها الى مقام المرأة الحقيقيَّة وهو مقام الزوجة التي يحق لها الحب والأُم التي يجب لها الاحترام ومن يتصفح فصل العيلة من هذا الكتاب تتضح له حقيقة هذا القول الى ان صدر في هذه الاثناء كتاب حضرة الفاضل عزتلو قاسم بك امين المستشار في محكمة الاستئناف الاهليَّة بعنوان « تحرير المرأة » وهو الكتاب الذي أشرنا اليهِ في ذلك الفصل دون ذكر عنوانه واسم مؤلفه فلم يبقَ لنا عذر على السكوت بعد صدور ذلك المؤلف الجليل الذي اثبت ما قلناهُ في فصل العيلة من تنبه افاضل الكتبة المسلمين الى النظر في امر المرأة وإدراكهم ان معظم الفساد الذي لحق بتربيتنا ناجم عن سوء تربيتها واسترقاقها

وانحطاطها الى درجة لم تنحطَّ اليها امرأة من قبل حتى كأنها من الامتعة التي تباع وتشرى ولا تقتنى إلاَّ للذَّة الرجل وخدمته

ولسنا نفيض هنا في بيان الاسباب التي اوصلت المرأة الشرقية والمرأة المسلمة بنوع خاص الى تلك الدرجة التي تقدم لنا ذكرها بل نحن نحصر الاسباب كلها في سبب واحد وهو إهمال تعليمها وتربيتها بحيث اصبحت أمةً للرجل واضحت لا تعرف لنفسها قدراً ولا مقاماً

ولعمري اننا لولا روح الاثرة وحب الذات لما اتينا نحن الرجال ما اتيناهُ مع المرأة من تركها تنغمس في لجج الجهالة ليسهل لنا امتلاك قيادها واسترقاقها فلا تبقى لها ارادة ذاتيَّة . ولولا ذلك لكنا ندرك بسهولة ان بقاء نصف المجتمع الانساني في ظلمات الجهل مما يجلب علينا الضرر والتعب والخسران . وإلاَّ فكيف تحسن المرأة تربية اولادنا وتدبير شؤوننا المنزليَّة وترتيب احوالنا الداخليَّة وكيف نجد معها لذة الحياة تامة من كل وجوهها وكيف تشاركنا في أُمور الدنيا وتسهل علينا مصاعبها وتخفف اثقالها وكيف تقاسمنا الفكر والرأي وتستطيع البقاء على ولائنا والامانة لنا اذا كانت جاهلة على غير علم ولا تربية ولا أدب

ومن تراهُ يبثُّ في الولد الصغير روح الادب والتربية والميل الى العلم والعمل اذا كانت تلك الأُم التي دُفع الولد الى عهدتها جاهلة لا تعرف للتربية قيمة ولا للعلم قدراً

وأَية قدوة تكون لاولادك ايها الرجل اذا كانت امهم لجهلها وقلة

تربيتها لا تعرف من احوال الدنيا سوى التبرج والتدخين وصرف الوقت في
كل ما من شأنه ان يميت العواطف الشريفة ويفسد الاخلاق الغريزية الحسنة
ومن ينكر ان البطالة التي يقضي على المرأة بها جهلها عندنا لا تقودها
الى كل ما لا يُستحب لها ولا يُحب منها بل الى كل ما لا تحمد عقباه ولا يكون
الا قدوة سيئة لاولادها والناظرين الى اعمالها للجري على خطتها والاقتداء بها
هذا ولسنا نطيل الكلام في هذا الموضوع بل نعمد في الحال الى
تضمين هذا الفصل فصولاً نشرناها في جريدة « الاهرام » الغراء وفي
مجلة الراوي الدالة على اننا على اتفاق تام مع حضرة صاحب كتاب
« تحرير المرأة » في وجوب تعليم المرأة الشرقية وتهذيبها مفتتحين هذه
الاقوال بآخر فصل نشرناه في الاهرام في موضوع تعليم البنات وقد
صدر في العدد ٦٢٢٣ بتاريخ ١٢ سبتمبر من عام ١٨٩٨ وهو كما نشر في
حينه دون تغيير فيه ولا تبديل

تربية البنات

« وقد وجدت مجال القول ذا سعة

فان وجدت لساناً قائلاً فقلِ

تقدمت لي تحت عنوان « العلم والتربية » مقالة في عدد سابق بحثت
فيها بحثاً مستفيضاً في مسألة ذات اهمية لا تخفى على ناقد بصير وهي كثرة
الأُميين من الاهالي الذين يبلغ عددهم نحو عشرة ملايين وليس فيهم من

يعرف القراءة البسيطة غير عشر هذا العدد ثم وجهت الانظار الى وجوب
عقد الخناصر على مداواة هذا الداء بنشر المدارس الابتدائية وتعليم ابناء
الشعب مبادئ لغتهم وتاريخ بلادهم وقواعد دينهم الصحيحة ليتمكنوا
بذلك من معرفة ما لهم وما عليهم من الحقوق والواجبات
ويسرني ان هذا الكلام قد وقع احسن وقع في نفوس القراء وكان
له اجمل تأثير في نظر الذين ينظرون الى مستقبل البلاد اكثر مما يأبهون
بحاضرها مما شجعني على معاودة الحديث في هذا الموضوع ولكن من وجهة
أُخرى ومعنى آخر قاصراً الكلام اليوم على تعليم الابنة لتصبح امرأة قادرة
على ادارة شؤون المنزل ادارة حسنة والقيام بالفروض الطبيعية التي
يفرضها عليها الزواج والأُمومة
ولذلك رأيت ان اقتطف من كتاب « العلم والتربية » الذي أشتغل
في وضعه شذوراً من فصل في تعليم الابنة الشرقية عامة والمسلمة خاصة
وانا مع إقراري بالعجز والقصور في مثل هذا الموضوع الخطير اسأل
حضرات الكتاب من السادة المسلمين عذراً على تطاولي الى الاخذ بهذه
المسألة التي كان يجب ان يكونوا هم فرسان مضمارها ولكنني اكتب عن
الشرق عامة فلا يحسن بي ان أقصر الكلام عن فئة من اهله دون أُخرى.
ومن وجه آخر فقد رأيتهم احجموا فأقدمت وسكتوا فتكلمت بحيث
ينطبق عليَّ قول الشاعر

وكم قائلٍ مالي رأيتك « راكباً » فقلت له من أجل انك « راجل »

وعلى كل حال فانني اسأَل الله الصواب في القول والهداية في العمل وهو المسؤُول في جعل هذه الخدمة نافعة لهذا القطر الذي اتخذته وطناً آمن اليهِ ويحنو عليَّ ثم اقول

ان اجلَّ خدمة يسدّد نحوها اصحاب الاقلام اقلامهم ويصرف اليها رجال البلاد عنايتهم انما هي الاشتغال للمستقبل وبمعنى اوضح ان يمهدوا السبيل امام هذا الشعب الذي ليس في وسعنا ان نعدَّه على قدمه وبعد عهد نشأَتهِ إلاَّ شعباً وليداً بين شعوب العلم وأُمم الحضارة ويسهلوا لهُ طريق الارتقاء في سلم المدنيَّة العصريَّة ولا يكون ذلك إلاَّ بتربية الأُمة ولا تكون تربية الأُمة كاملة إلاَّ اذا شملت الرجل والمرأَة معاً

ونحن اهل المشرق قد لهونا عن العلم زمناً ولما تنبهنا لهُ ورجعنا اليهِ كان تنبهنا نصفياً بحيث قصرنا التعليم على اولادنا الذكور كأَنهم وحدهم اصحاب الحق فيه وحرمنا البنات اياه كأَن الجمال غنيٌّ عن حلية الادب. ثم لم نلبث ان ادركنا خطأَنا في الامر فأَخذ كثيرون منا يرسلون بناتهم الى المدارس ولما لم يكن في البلاد مدارس لتعليم البنات غير مدارس الافرنج لم نرَ بدّاً من طرق ابوابها ومن شاءَ ان يعرف النتيجة التي جنيناها من هذهِ التربية الجديدة فليراجع مقالات «ثعلبة» عن الزواج في السنة الماضية من الاهرام

ولست ارى حاجة للتعريض ههنا بالاسباب التي تدعو الى تعليم الابنة وتربيتها بل اكتفي بالالماع الى امر واحد وهو ان الرجل والمرأَة

يرقدان لا يفترقان في كل اطوار الحياة فالمرأَة رفيقة الاخ في صباه وشريكة الرجل في الحياة الزوجيَّة ومربية الولد في طفوليته . ونحن رجال المشرق احوج الى رفيق صالح وشريك حسن الاخلاق والتربية ومربٍ كامل الآداب منا الى استاذ واسع العلم غزير المعارف

ولعمر الحق كيف تحسن المرأَة تدبير شؤُون منزلها وتجري في الطرق التي تعود بالراحة على اهل بيتها بل كيف تحسن تربية اولادها في الصغر واعدادهم للتربية المدرسيَّة التي تأْتي من بعد تربية الام اذا كانت هذه المرأَة نفسها قد خرجت من بيت ابيها الى منزل زوجها وهي لا تعرف من أُمور الدنيا غير التزين والتبرج

واذا كانت الأُم لا تعرف كيف تربي اطفالها فمن المكلف بذلك وهي المربية الطبيعيَّة لهم والرجل مطالب بواجبات أُخرى لا مندوحة لهُ عنها ولا مفرَّ منها . ونحن اذا نظرنا الى فساد اخلاق كثيرين من شباننا وسوءِ سيرة عدة من رجالنا نرى السبب في ذلك إِهمال التربية فان الولد كالغصن اذا قومته استقام ولكنهُ اذا شبَّ على خُلقٍ شاب عليهِ

ولست أُطيل الكلام في وجوب تعليم المرأَة فان ذلك امر لا يختلف فيهِ اثنان فتعليم المرأَة لازم ضروري كتعليم الرجل نفسه وعندي ان بعض العلم اوجب للمرأَة منهُ للرجل لانها كما تقدم لنا القول اول من يدرب الولد ويربيهِ ويبث فيهِ المبادئَ ويعمل على ترويض اخلاقهِ فاذا كانت جاهلة كانت أُمومتها ضرراً على اولادها وبالعكس

واذا نظرنا الى المسألة من وجهٍ آخر رأينا ان الهيئة الاجتماعيَّة متألفة من جنسين الرجل والمرأة فتعلم الرجل مع بقاء المرأة جاهلة يبقي نصف الهيئة الاجتماعيَّة منفصلاً عن النصف الآخر في حين انهما وُجدا لان يكونا جسماً واحداً . وقد نظرت الى هذا الامر بعين التبصر والروية فوجدته حقيقة واقعيَّة ووجدت العيلة عند بعضنا اسماً بلا مسمى فلا هيئة اجتماعيَّة ولا إلفة عائليَّة . وقد اوصلتنا الى هذه الحالة صولة الجهل التي كانت تصول فوق رؤوسنا وليس للدين فيها يد خلافاً لما يزعم الزاعمون

وانني اتحامى الخوض في عباب هذا الموضوع لئلا أُتهم بما لا أُحب ان أُتهم بهِ . وشهد الله انني انما التمس خدمة وطني والنفع لابناء بلادي . ونحن الشرقيين يخلق بنا بعد ما صرنا اليه من التأخر في حلبة الحضارة العصريَّة والتقهقر في ميدان العلم والمدنيَّة ان نطرح التحزبات المذهبيَّة والعادات التقليديَّة التي كانت آفة الشرق في ماضيهِ وهي لا تزال علتهُ في حاضره وربما بقيت داءً عضالاً لمستقبلهِ اذا لم يتلافها عقلاؤنا بالتي هي احسن ورحم الله عبداً سمع ففهم وعلم فعمل

واذا كان من الثابت بالبداهة ان تعليم المرأة واجب فلننظرنَّ قليلاً في الطرق التي يجب ان نتخذها للوصول الى هذهِ الغاية . ونحن الشرقيين لاحاجة بنا الى تعليم بناتنا نفس العلوم التي نعلمها لبنينا او التي يعلمها الافرنج لبناتهم لان نساءنا لا يسلمنَ الوظائف الحسابيَّة ولا يشتغلن في المسائل الكتابيَّة وبالجملة ان نساءنا لا يشتغلنَ كما تشتغل نساء الافرنج اللواتي

يزاحمنَ الرجل في كل الاشغال حتى لقد اصبح قسم كبير من وظائف الحكومة التي لا تقتضي من القوة ما لا يوجد إلاَّ عند الرجل محصوراً بين ايديهنَّ ووقفاً عليهنَّ . فتعليم المرأة الشرقيَّة ينبغي اذاً ان يكون مختلفاً عن تعليم الغربيَّة الاوروبيَّة لان ما يُطلب من هذهِ لا يُطلب من تلك . والذي اراهُ ان الافرنج قد تجاوزوا الحد في ما يتعلق بهذا الامر حتى اذا استمرت الحال على هذا المنوال اصبحت المرأة عندهم رجلاً ثانياً وفقدت كل صفات الانثوية التي لا تكون المرأة بدونها امرأة ضعيفة بل تصبح امرأة « مسترجلة » والفرق بين الاثنتين ظاهر

واراني قد حدت عن الموضوع وخرجت عن دائرة البحث الذي وجهت اليوم يراعي اليهِ ونحن ما لنا وللافرنج في تربية نسائهم فلهم في ذلك شأنهم ولننظر نحن في شأننا فنعود الى القول بان الطريقة التي اتبعناها الى اليوم في تعليم بناتنا ليست بالطريقة المحمودة لاننا — والمسلمين منا خاصة — اذا بعثنا بناتنا الى مدارس الاجانب فكأننا نرسلهنَّ اليها على قصد قلب نظام تربيتنا العيليَّة وتقاليدنا الوطنيَّة قلباً تاماً على غير رجاء في اكتساب تربية وتقاليد جديدة اكتساباً تاماً فتخرج ابنتنا من المدارس لا شرقيَّة ولا غربيَّة كالغراب اراد ان يتعلم مشية الحجل فلم يستطع ونسي مشيته

وغاية ما تتعلمهُ بناتنا في هذه المدارس التكلم بلغة اجنبيَّة والتطريز على المناديل والضرب على البيانو — والميل الى احتقار كل ما هو عربي

او شرقي – وناهيك ما في ذلك من المضار بل ان ذلك مفسدة لحالتنا
نحن الشرقيين واية مفسدة ... في حين اننا نحتاج في تعليم المرأة عندنا
الى امر هو اسمى من تعليم لغة اجنبية وضرب آلة موسيقية . فاننا في
حاجة الى ان يصير عندنا نساء يقبضن على زمام المنزل ويتولين تربية
الاولاد ويرسلنهم الى المدارس ثم يراقبن حالاتهم وكيفية تعليمهم الى ان
يصيروا رجالاً اكفاء لمراقبة احوالهم بانفسهم

ولا يسخطنّ عليّ حضرات الوطنيين اذا انكرت وجود مثل أولئك
النساء بين نسائهم ومن الغريب انهم يعلمون ان وظيفة المرأة في الهيئة
الاجتماعية اشرف واسمى كثيراً من وظيفتها الآن في الشرق ثم تراهم
ساكتين عن ذلك غير مقدمين الى تغيير هذه الحالة رِجلاً

وكيف تتغير الحالة وتصبح المرأة عندنا كما يجب ان تكون اذا لم
نعلمها التعليم الواجب الضروري لها المنطبق على احوالنا واخلاقنا وطبائعنا .
وكيف نلقنها هذا العلم وليست لنا مدارس ترد بناتنا فيها هذا المنهل
العذب وما لدينا من بيوت علم النساء غير مدارس الاجانب حيث
لا تدرس لغة البلاد ولا تاريخها ولا قواعد دينها فلينظر الوطنيون الى
هذه المسألة بعين الاهمية والاعتبار وليعلموا ان تربية الشعب لا تتم إلاّ
بتربية الرجل والمرأة معاً ليكون الرجل قادراً على مباراة سواه في كل عمل
والمرأة صالحة لادارة شؤون المنزل وتربية الاولاد بالحكمة والتدبير
والله المستعان »

ذلك آخر ما نشرناهُ في جريدة الاهرام في هذا الموضوع الخطير
وكنا قد نشرنا قبل ذلك على صفحات هذه الجريدة الغراء مقالة أخرى في
هذا الموضوع اشرنا فيها الى فساد الطريقة التي نجري عليها في تعليم بناتنا
فيضرُّ بهنَّ العلم من حيث نرجو لهنَّ النفع بهِ ولسنا نرى بدّاً من نشر
بعض شذور من تلك المقالة تتمة للفائدة ووفاءً بحق الخدمة فقد كتبنا في العدد
٥٩٦٠ من جريدة الاهرام الصادر في يوم ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر)
من عام ١٨٩٧ ما يأتي

« اول ما نفكر فيه اليوم نحن الشرقيين متى أُنيطت التمائم عن فتاة لنا
ان نعلمها التلفظ بكلمات اجنبية فالفرنسوية او الانكليزية اول ما تنطق
باحرفها بناتنا – هذا بعد ان نكون قد سميناها باسم اعجمي قد لا تدور
مقاطعهُ على ألسنتنا وانني اعرف آباء وأمهات لا يحسنون التلفظ باسماء
بناتهم فاللهمَّ لطفك يا رحيم – ومتى ترعرعت الفتاة بعثناها الى احدى
مدارس الافرنج لتحسن تعلم لغتهم والضرب على البيانو والغناء والتطريز
والتخريم على غير اهتمام ولا عناية بالأمور البيتيَّة الاخرى وبحسن التربية
وفن تدبير المنزل والتوفير ومسائل الخياطة والطبخ وادارة شؤون الخدم
وغير ذلك من كل ما يجب ان يكون من صفات المرأة رفيقة الرجل في
رئاسة البيت بل رئيسته الحقيقيَّة في تدبير الشؤون الداخليَّة

ولو كان نوع هذه التربية منحصراً في الاغنياء وذوي الثروة واليسار
لصبرنا ولكنه قد تعداهم الى اهل الدرجة الوسطى بل الى الادنى من

الوسطى جرياً على خطة التقليد وناهيك عن اضرارها

ومتى خرجت بناتنا من المدارس فانما يخرجن متعلمات كل شيء إلاّ ما كان ضرورياً للمرأة فيقمن في الاندية وقاعات الاستقبال متصدرات للحديث في كل موضوع من مواضيع الكتب القصصية والروايات التمثيلية وحالة الأزياء وما تقادم منها عهده ليطوى وحات طلاوة جديده لينشر ... وليس بذلك تعمر البيوت ولا على هذا النحو تربي الفتيات ليغدون نساء فاضلات وأمهات قادرات على تربية الاولاد وتقويم اودهم واصلاح ما يختل من سلوكهم

ولقد اذكرتني هذه الحالة ما قرأته عن مدام منتينون التي تولت ادارة مدرسة كبيرة للبنات في فرنسا في اوائل القرن الثامن عشر اي منذ نحو ٢٠٠ سنة على التقريب فانها بدأت في ادارة المدرسة على طريقة التعليم التي نجري عليها اليوم مع بناتنا ولكنها لم تلبث ان ادركت خطأها فعدلت عنه الى التربية الحقيقية التي تجب للجنس اللطيف وذكرت ما قاله لها فينيلون الفيلسوف صاحب كتاب وقائع تليماك وهو « انه يجب ان تتولى المرأة تربية اولادها فتشمل الذكور منهم بعنايتها الى ان يخرجهم العمر من يديها ليدفعهم الى يد المدرس المربي والبنات الى ان يتزوجن او يعتنقن الرهبنة . وينبغي ان تتولى ادارة الخدم والنظر في سلوكهم وعاداتهم كي لا يكونوا آفة المنزل وان تهتم بأمر النفقة فتجتهد في اتباع طريق التوفير »

فلما تذكرت دي منتينون قول فينيلون استبدلت في مدرسة سان سير طريقة التربية والتعليم واول ما كانت تطالب به البنات الشغل اليدوي بدلاً من القراءة والمطالعة فكانت الكبيرات منهن يعتنين بالصغيرات كأنهن ضرب من الامهات لتعويدهن سلفاً العناية الوالدية فكان اول ما يبكرن اليه من العمل إلباس الصغيرات وتسريح شعورهن وتنظيفهن . ثم كان لكل منهن دور ونوبة في اشغال المطبخ وتنظيم الغرف والاسرة وقاعة الطعام واصلاح الملابس وجمع الفواكه وعصرها وعمل الشراب واصناف الحلوى وغير ذلك مما يؤهل الفتاة لأن تصير في مستقبل الايام ومدبرة حكيمة حازمة

وعلى هذا النحو خرج من تلك المدرسة نساء كنّ مثالاً حسناً وقدوة صالحة . واذا فرضنا ان ثروة بعض النساء لا تقضي عليهن بالاشتغال في شؤون المنزل فان علمهن بها يسهل عليهن مراقبة ما يجري في البيوت وما ذلك بالامر اليسير

ثم ليقل لي آباء هذه الايام بل لتقل الامهات اية فتاة من فتياتنا لها إلمام ولو الى حد محدود بالمسائل الصحية العامة التي يحتاج اليها في البيت واية فتاة من فتياتنا تعرف بعد ان يمر العام على زواجها ويرزقها الله مولوداً كيف تغسله وتلفه وترضعه بل اية فتاة واية امرأة من فتياتنا ونسائنا تعرف طرق العناية بالمريض بل طريقة تضميد جرح بسيط ولفه برباط ابسط . فلقد شهدت كثيرات من نسائنا اذا قمن بجانب سرير مريض يزدن

علّته ويضاعفن ألمه بجهلهن طرق الاعتناء والتمريض . فهل تصلح حالة
الأُسرة وتلك حالة المطالبات بالعناية بها واذا فسد الملح فلا يصلح الطعام

ثم مَن من فتياتنا مع ما نبذله من اجل تعليمهن تعرف طريقة لكسب
رزقها بيدها وان كنا نعمل على تقليد الاوروبيين في تعليم بناتنا فيجب ان
نحذاهم ليس فقط في تعليمهن اللغات الاجنبية والخفة والتزين والتبرج بل
ينبغي ايضاً ان يتعلمنَ العمل حتى اذا دار دولاب الايام على احداهن فلا
تصبح عالة على سواها بل تقوم هي باود نفسها

ولست ارى في ذلك غضاضة ولا موجباً للانفة فانه لخير الف مرة
ان تكسب المرأة ما تعيش بهِ بالكد والشغل من ان تحتاج الى السؤال
ولو من اقرب الناس اليها

واذا قيل ان عاداتنا الشرقية تحول دون ذلك فلنستبدلن هذه العادات
كما استبدلنا سواها بما لا فائدة منه ولا جدوى والا فلنقلعن عن خطة
تعليم البنات على الصورة التي تقدم لنا ذكرها فان الجهل عند المرأة خير
من العلم المضر . ولنقصرن هممنا على إعداد الفتاة لان تصبح رفيقة امينة
وأُماً حنوناً وامرأة مدبرة ذلك خير وابقى »

هذا ومن اقوال الغزالي الجميلة « الصبي وديعة عند والديهِ » . نعم
الصبي وديعة عند ابيهِ وأمهِ بل الصبي وديعة عند أمهِ اكثر مما هو عند
أبيهِ لانها هي التي تلزمهُ ليل نهار فاذا رأى الولد اباهُ ساعة رأى أمهُ
اياماً واذا أخذ عن ابيهِ شيئاً اخذ عن أمهِ اشياء فاذا كانت هذهِ الأُم

جاهلة فكيف ترد تلك الوديعة التي استودعتها كاملة سالمة

فيا ايها الشرقيون علموا بناتكم ليصبحنَ مدبرات لبيوتكم وزوجات
صالحات لكم وأمهات حقيقيات لاولادكم ومعتنيات رؤوفات بشيخوختكم

ايها الشرقيون ان القول بان العلم يضر بالمرأة اكثر مما ينفعها قول
هراء لم يقم عليهِ الى الآن دليل واحد . ونحن قد جربنا جهل المرأة
احقاباً وقروناً فلنجربن تعليمها سنين معدودة لنرى الفرق بين الحالتين

ولعمري ان في هذا القدر كفاية للدلالة على وجوب تعليم المرأة
وتربيتها ومع ذلك فاننا سنخص « المرأة » بفصل نضمنه شيئاً كثيراً مما
قيل في موضوع المرأة من كل ما يعزز قولنا بوجوب تحريرها وضرورته
ومنحها المقام اللائق بها لتكون كما ينبغي ان تكون شريكة نافعة للرجل في
كل اطوار الحياة

الفصل الخامس والعشرون

المدرسة

نريد قبل الخوض في موضوع المرأة وشؤونها ان نذكر كلمة عن المدارس واحوالها في بلادنا الشرقيَّة للدلالة على ان حالتها لا تنطبق في شيءٍ على الحالة التي يجب ان تكون عليها

ولسنا نتعرض في هذا الفصل للكلام عما يُعلَّم و يُدرَّس في تلك المدارس فان ذلك ليس من موضوعنا الآن ولا نريد بالمدارس التي ننتقدها مدارس الحكومة ومدارس الاوروبيين الكبرى فانها كلها خارجة عن معنى كلامنا وانما نحن نريد المدارس الاهليَّة والمكاتب الوطنيَّة التي كثر في هذه الايام عددها والتي نحسبها روح الشعب ومادة حياته فاذا فقدت هذه المادة فاية حياة تبقى للشعوب

والمدارس تدعى في بلاد المدنيَّة والحضارة بيوت العلم والادب فما الظن بها اذا كانت منازل للجهل والفساد واي ارتقاء وتقدم ينتظران للامة التي تكون مدارسها الاهليَّة مرسحاً للجهل والخرافة وقلة التربية والادب. وكيف تحسن حال شعب تكون مدارسه على تلك الصفة

لعمري ان البلاد التي تمتلئ مدارسها ولكن على غير ما ينبغي لهي كالبلاد التي تفرغ فيها المدارس فتمتلئ السجون

اجل ان السجون لا تفرغ في بلادنا والنفوس لا تصبح سامية ابية . والاخلاق لا تُثقَّف والصناعة لا تزهر . والثروة لا تغزر . والوطنية لا تتأَصل في القلوب حتى تمتلئ المدارس بالذكور والاناث من ابنائنا ولكن على الصورة التي يكون فيها العلم صحيحاً والتربية صالحة حقيقية والآداب مرعية الجانب محترمة المقام

والمدرسة التي تجهل ايها الشرقي مقامها انما هي منبع الحرية ومنبثق انوار النجاح ومشرق بدور الاسعاد ومطلع شموس الفلاح وهي مرضع الادب والعلم ومشحذ الذكاء والفهم بل هي امٌّ تخلق فينا ما لا تمنحناه أُمنا يوم الولادة من الاخلاق وتقوّم ما اعوجَّ فينا في زمن الصغر من العادات والاطوار وتعدُّنا لمستقبل يضمن لنا السعادة والرفاهية بما تبثُّه فينا من المعارف وتلقننا من العلوم وتعلمنا اياهُ من الفنون والصنائع وما تدربنا عليه من علم الواجبات والحقوق ومعرفتها فهي لذلك اجلُّ ما ينبغي ان تنصرف عنايتنا الى اتقانهِ واصلاحهِ حتى يبلغ درجة التمام

وقد ذكر الافرنج المدرسة في كل قول قالوه وكلام كتبوه فذهبت اقوالهم مذهب المثل واصبحت العبارات في هذا المعنى تؤثر عنهم وتحفظ في بطون الاوراق وعلى صفحات الكتب. ونحن ننقل عنهم بعض ما قالوه في هذا الصدد بياناً لشأن المدرسة واظهاراً لرفعة مقامها

قال مارتن لوثير ان عدم الاهتمام وقلة العناية بمدارس الشعب اشتراك مع الشيطان في عملهِ . وقال فولتير لا يؤْذن لغير القضاة بتعيين الكتب التي ينبغي ادخالها الى المدارس . وقال كيزو يجب ان تكون المدرسة ملجأ المساواة اي الانصاف . وقال فاشيرو لا يتعلم الولد الجري على خطة العدل والمساواة الا في المدارس الاهلية العامة . وقال ايضاً ان المدرسة العمومية مهد للمدنية . وقال جوردان ان فتح مدرسة اليوم هو اقفال سجن بعد عشرين عاماً

تلك نقطة من بحر مما قالهُ الافرنج في وصف المدرسة وتعريفها وهم مع ذلك يعدون انفسهم مقصرين في مديح المدرسة وبيان خطارتها

ونحن ما لنا وللاقوال المأثورة ننقلها بين اسطر هذا الكتاب في حين ان لدينا امثالاً حيَّة وشواهد حسيةً تتمثل لاعيننا في كل حين وآن

انظر الى اليونانيَّة مع ما تعاقب عليها من استيلاء الاتراك وضغطهم وبقائها السنين الطويلة خاضعة لسلطتهم بل مطأطئة رأسها تحت نير عبوديتهم ورقهم . ما الذي حفظها من الضياع وابقى كيان شعبها ثم اوجده على نوع ما من العدم فجدَّد هذا الشعب شبابه كالنسر . انما حفظ اليونانيَّة واقامها من سقطتها بل بعثها من لحدها امرٌ واحدٌ وهو المدرسة . فانك لا تجد محلة حلها ولو ثلاثة بدالين من اليونانيين دون ان تجد فيها مدرسة لتعليم ابناء هؤُلاء الثلاثة بلغتهم وتربيتهم على تقاليد شعبهم ومذهبهم

اما نحن فاننا ان اقمنا مدرسة وعمرنا للعلم بيتاً فانما نفعل على الغالب

دون إدراك خطارة المهمة التي نحن قائمون بها ونحسب ان المدرسة يكفيها لتكون مدرسة حقيقيةً ان يكون فيها كرسي للاستاذ ومقاعد للتلامذة وان يلقي المعلّم درساً فيتناولهُ الطالب كيفما كان وقُضي الامر

ولولا ذلك لما كنت اذا مررت بمكان فيهِ مدرسة من مدارسنا الاهليَّة ترى تلامذة تلك المدرسة منتشرين في الطرق والشوارع المجاورة للمدرسة وتسمع كلمات البذاء والسفاهة دائرة على السنتهم وتشهد من اعمالهم وحركاتهم كل ما يمجهُ الذوق السليم وينفر منهُ الطبع بل كل ما يخدش وجه الآداب العامة ويدل على فساد التربية وقلة التهذيب

وقد حدث لنا منذ مدة غير بعيدة اننا كنا نثني على النهضة العلميَّة في البلاد المصريَّة مظهرين سرورنا بذلك معربين عن حسن امالنا بالمستقبل وكان احد اصدقائنا الاوروبيين حاضراً فقال انكم تغالون في امتداح هذه النهضة فانها عندي سطحيَّة محضة . فاحببنا ان نحجهُ ونثبت لهُ انهُ مخطئ في رأيهِ فقال موعدنا غداً في الساعة الواحدة بعد الظهر لأُثبت لكم صحة زعمي

وفي اليوم التالي وافيناهُ الى الموعد فسار بنا الى مكان في احد شوارع الجمرك فقال انظروا واسمعوا . فشهدنا والاسف ملء الفؤاد مشهداً لم نكن نتصوره قط . شهدنا في الشارع تلامذة مدرسة لم نعد نحفظ اسمها وغاية ما نذكر عنها انها تلقب نفسها بالضوء او النور وما اشبه ذلك . وكانوا منتشرين في عرض الشارع يلعبون لقضاء فترة الظهر المدرسيَّة

ولعمري انك لو اتيت بأي انسان من اية بلاد متوحشة وأريته أولئك الغلمان واسمعته احاديثهم ثم قلت له انهم تلامذة مدرسة لقال لك على الفور انك كاذب فيما تقول وانهم ابناء الازقة لا اولاد المدرسة

ولسنا نكتم عن القراء ولا نحاول الانكار ان الناظر الى حال أولئك الغلمان لا يُلام اذا حكم عليهم ذلك الحكم وقال فيهم مثل ذلك القول . وعلى تلامذة هذه المدرسة ينبغي ان نقيس تلامذة مدارس كثيرة . ولا مراء في ان الذين يقضون ايام صباهم في مدارس تكون على مثل تلك المدرسة لا يشبون على الخصال التي تؤهلهم لان يكونوا رجالاً كما يجب ان يكون الرجال بل يكونون ممن يصدق فيهم قول الشاعر

اني لأغمض عيني ثم افتحها   على كثيرٍ ولكن لا ارى احدا

واذا قادك سوء حظك ودخلت الى داخل المدرسة فانك تجد هناك من دواعي الاسف والغم ما لا حاجة بهِ الى ظهير فانك تجد من قلة النظام وعدم الترتيب ومن القذارة والفوضى في كل شيءٍ ما تستحيي معهُ من إطلاق اسم المدرسة على ذلك المكان

ولا يظنن حضرات القراء اننا نغالي فيما نذكرهُ عن احوال بعض المدارس الصغيرة فانما نحن لم نذكر الا طرفاً مما يجب ان نذكرهُ عنها ولذلك نلتمس بكل قوتنا ونرفع صوتنا الضعيف بالمطالبة باصلاح هذه الحال لان "من الاشتراك مع الشيطان في عملهِ ان نهمل شأن المدارس الشعبية" ومما ينبغي توجيه العناية اليهِ ان المدارس يجب ان تكون في مكان

واسع فسيح وان تكون صحيةَ الوضع والبناء بحيث يتخللها الهواء النظيف وتتعهدها حرارة الشمس . والافضل لها ان تكون بعيدة عن محلات السكنى منفردة في مكانها . وينبغي ان يفصل الكبار من تلامذتها عن صغارهم وان يحافظ فيها على النظافة محافظة تامة

اما التلامذة فينبغي قبل ان نلقنهم المعارف والعلوم ان نصلح آدابهم اصلاحاً تاماً ونقوّم ما اعوجّ من تربيتهم تقويماً يجعل العلم الذي نلقنهم اياه نافعاً مفيداً حتى اذا رآهم وطني لا يملأُ الاسف فؤادهُ واذا رآهم اجنبي لا يقول هازئاً انهم ابناء الازقة لا اولاد المدرسة

وإلاّ اذا استمرّت الحالة على ما هي عليهِ الآن من بقاء المدارس ضيقة قذرة واهمال العناية بآداب التلامذة العامة فلا هذه المدارس تفيد ولا التعليم ينفع بل يكون سرورنا بانتشار الرغبة في العلم والتربية سرور الساعة فلا يلبث ان يحل محله الغم من فساد النتيجة والحزن على ضياع الجهد وحبوط الامل والرجاء

ثم انظر الى هذا الرجل الجالس في منبر التعليم افتعلم بعيشك من هو . نعم تعلم انه المعلم الذي يلقي الدرس ويوضح ما أشكل منهُ على التلامذة ولكن ليست تلك وظيفته فقط فان هذا الجالس في منبر التعليم هو القابض ايضاً على زمام مستقبل هذا الغلام الصغير الذي يتلقى العلم عنهُ اي على زمام الهيئة الاجتماعية وبالتالي على العيلة بكليتها والوطن باجمالهِ . وكما يصنع هذا المعلم التلميذ هكذا يكون الرجل فيما بعد لان المعلم هو المربي والمؤدب

وهو اب ثانٍ للولد بل هو ذو شأنٍ اعظم من شأن الاب الحقيقي لانه يبثّ في الولد ما لا يبثهُ فيهِ ابوهُ من العواطف والشعائر وينقش في فوءاده وذهنه ما لا ينقشهُ فيها والدهُ من الاخلاق والعادات ولله درّ القائل

أقدم استاذي على فضل والدي
وان كان لي من والدي الفخر والشرفْ
فذاك مربي الروح والروح جوهرٌ
وهذا مربي الجسم والجسم من خزفْ

ولذلك كان الاقدمون والمحدثون في كل بلاد توفر حظها من المدنيةً يجلون مقام المعلم ويقدرونهُ حق قدره ويرفعون منزلتهُ على منزلة سواهُ ويكثرون من احترامهِ . وكانوا يختارونهُ من اعلى طبقات اهل العلم والادب ولا يتخذون معلماً الا من كان ذا كمال في الاخلاق وعفة في النفس ونزاهة في الطبع ليكون المعلم مثالاً حياً للكمالات والفضائل تتمثل في شخصهِ لاعين التلاميذ الذين يقرأون عليهِ ويأخذون عنهُ

فلنحاسبنّ انفسنا قليلاً لنرى اذا كان المعلمون الذين نلقي اليهم هذهِ المهمة العظيمة ونريد بها مهمة جعل الولد رجلاً حقيقياً صالحاً لخدمة نفسهِ وعيلتهِ ووطنهِ خدمة صادقة حائزين كلهم للصفات التي توءهلهم لهذا المنصب الخطير وتعدهم للقيام في منبر التعليم والتربية

اننا اذا حاسبنا انفسنا حساباً مدققاً وتخيرنا قول الصدق والحق دون

تملق ولا تدليس وجدنا اكثر المعلمين عندنا اذا لم نقل كلهم ولا سيما في المدارس الاهليةّ الصغيرة لا يليقون ان يكونوا حجاباً على ابواب تلك المدارس التي يتولون ادارتها ويقومون بعمل التعليم والتربية فيها بل ترى كثيرين منهم كانوا السبب في فساد اخلاق التلامذة وضياع مستقبل الاولاد لانهم هم انفسهم غير ذوي علم ولا تربية ولا ادب ولا اخلاق . ومن لم يكن حائزاً صفات الكمال فكيف تطلب منهُ ان يمنحها غيرهُ والاناء لا ينضح الاّ بما فيهِ

فليتنبه الشرقيون الى هذه الحالة وليعلموا ان تربية البيت لا تتم وتثمر الثمر الجيد الا اذا جاءَت تربية المدرسة على الطريقة التي يجب ان تجيءَ عليها وان تربية المدرسة من اعظم الموءثرات في التربية الآتية وهي تربية المدرسة الكبرى اي مدرسة العالم والاختبار فقد قال الشاعر

وانّ من ادبتهُ في الصبى كالعود يُسقى الماءَ في غرسهِ
حتى تراهُ ناضراً مورقاً بعد الذي عاينت من يبسهِ

الفصل السادس والعشرون

بعد المدرسة

جرينا مع الولد في الكلام عن العلم والتربية منذ ولادته بل قبل ولادته الى ان كبر ونما ودخلنا بهِ الى ساحة المدرسة وذكرنا لهُ العلم والدين والوطن فليسمح لنا القراءُ الآن بايراد فصل كتبناهُ فيما مضى اجابة لطلب اديبٍ من أدباء العصر كان لهُ شقيق في المدرسة فاحب ان يخاطبهُ يوم اتمَّ الدراسة وختم العلم وخرج من المدرسة ناجحاً غانماً بما يكون لهُ تبصرةً في الحاضر وتذكرةً في المستقبل. وهو كلام نزفهُ الى كل ناشئٍ من طلبة هذه الايام ممن قضوا ايامهم في المدارس وهم يتأَهبون لدخول مدرسة العالم الكبرى راجين ان تكون نصيحتنا مقبولة وخدمتنا نافعة وهو

„ يا اخي. لقد بلغت السنة الثامنة عشرة من سني حياتك والسادسة من ايامك المدرسيَّة وهي العمر الحقيقي الذي عشته الى الآن اذ كفلك ابواك ومعلموك بآداب الدين والعلم وثقفا عقلك وفتحاهُ للنور فعرفت الواجب وادركت الحقوق وما ازيدك باهمية ذلك علماً

والواجب يا اخي عند المرءِ ينقسم الى اقسام وهي ما يجب عليه نحو هيأَة الاجتماع عموماً وما يجب عليه نحو وطنه وما يجب عليه نحو نفسه. وكما تنقسم فروضه تتجزأُ ايضاً حقوقه وكما ان واجباته ثلاثة اقسام فحقوقه ايضاً ثلاثة وهي حقوقه على الهيئة الاجتماعيَّة وحقوقه على الوطن وحقوقه على نفسه ويلي هذه الحقوق والواجبات حقوق وواجبات أُخرى اضافيَّة وهي حقوقه على ابويهِ وعيلته والافراد الذين يعاملهم وواجباته نحوهم. وهذه يتعلمها المرءُ بسنة الطبيعة وبدرس الشرائع اما الأُولى فلا يصل الى فهمها فهماً حقيقاً والعمل بها عملاً حسناً الاَّ من سمت مداركه وعلت افهامه وانني متوسم بك الذكاءَ والنجابة وبعد الفهم وكرم النفس وحب النظر في الامور ومعرفة ما يجب عليك ويحقُّ لك فلذلك ارجو ان ارى منك فتى يقوم بما يجب عليه ويستولي على ما يحق له فلا تخيب املي بك

ولقد كنت اود ان اشرح لك ماهيَّة ما ذكرته من الفروض والحقوق كل على حدته لولا ما اخشاه من ملل الحضور وما اعلمه من ذكائك وادراكك مما آمل معه ان تكون قد ادركت مغزى كلامي وان تبحث البحث الدقيق عما لم يتجلَّ لك معناه. فان السامع اذا لم يتروَّ معنى ما يُلقى عليه وينقب عن الغاية منه كان كالحجر الذي يسيل عليه الماءُ ماراً الى سواه فلا ينتفع بهِ واذا فهم المعنى وادرك المغزى ولم يعمل بهما كان كالوعاءِ المثقوب الذي لا يضبط الماءَ الا ريثما ينزف منه. ولقد ضربت لك هذين المثلين لتعلم ان الانسان انما وجد ليبحث ويدأَب فيعلم ويعمل فالعالم ان لم يكن عاملاً كان

كالشجرة التي لاتثمر والتي لا تستحق الاّ ان تقطع وتلقى في النار

وانني خبرت الايام ودرست الطباع والاخلاق فرأيت اكثرها قد فسد وتغير وصار الصالح بين الناس اعزّ من بيض الانوق والكريم الحر رابع المستحيلات فرأيت ان استلفت نظرك الحادّ واجتذب فؤادك الملتهب بدم الصباء الى وصايا أحب ان ألقيها عليك فاذا عملت بها نشأت بين قومك وآلك صالحاً كريماً حرّاً يشار اليك بالبنان

يا اخي · لقد كان يومك فريدة في عقد عمرك ظهر فيه من نجابتك وتوقد ذهنك وذكائك ما صفقت لك معه الايدي وشخصت به الابصار اليك وحامت الانظار حولك وانطلقت الألسنة تقول ما شاء الله · فلقد كللت مساعيك المدرسيَّة بالنجاح فكلل رأسك البهي باكايل الاستحقاق والظفر ولست اكتمك ان قلبي قد صفق طرباً وان عينيَّ اغرورقتا بدمعة الفرح لما سمعت اسمك العزيز ينادى به في مقدمة الناجحين ورأيتك سائراً في طليعة المجتهدين المفلحين وبصرت بالجم الغفير يصفق ويضج استحساناً لما كللك به الرئيس ولكن لا يستفزك هذا النصر ولاتأخذك الخيلاء والكبر واعلم ان العاقل من اغتنم يوم النصر وساعة الظفر لاعداد راحة المستقبل وهناء الغد المقبل والحكيم لايسكره الانتصار ولا يلعب به الكبر والافتخار نعم ان سبقك في مضمار الدرس يعدُّ سبقاً وفوزاً ولكنهما مجازيّان ليس إلاّ فان شئت ان تحققهما فافعل ما أُوصيك به

يا اخي · اول ما أُوصيك به السلوك بحسب القواعد والأُصول التي

ربيت عليها والآداب التي كفلك بها ابواك واساتذتك واحترام الاديان وعدم التعصب وليكن ضميرك قاضياً عليك وفطرتك قائداً لك وشاور في بدء كل أُمورك عقلك واستشر فؤادك ولا تصغِ كثيراً الى اقوال الناس بل اعمل بما جبلت عليه وبما تدلك اليه الفطرة الطبيعية فانها في اكثر الاحيان لا تخدع وقلما سقط من حسنت فطرته وكان متبعاً لاشارتها ·

وعليك بادمان المطالعة واستقصاء الاحوال التي تشغل الهيئة الاجتماعية والسعي ما امكنك وما سمح بهِ سنك الى حلها بالطرق السلمية وعليك بنصح من هو دونك واستنصاح من كان فوقك واحترام آراء الناس ومجاراتهم على ما يريدون مما لا يمس شرفك ولا يخدش اسمك ولا يقلق راحة ضميرك واياك ان تدخل فيما لا يعنيك امرهُ وان تشتغل بصغائر الأُمور لئلاَّ تلهيك عن العظائم ولا تطلب الشهرة والكسب الا من كل طريق محمود وطريقة شريفة · وأُحذرك الكلام عن الناس بدون الحرص الشديد والانتباه الدائم لئلا يستعدوك ويحطوا من قدرك ويصبح اسمك مضغة في افواه اللئام · واحذر معاشرة من لم يشرف عنصره وتسمُ غايته وتتنزه خلاله عن كل منكر واهرب من السكير والمقامر والنمام ولاتجالس الثرثار والمهذار ولا تستعمل الحيلة والواربة وكن كثير البحث قليل المراء واجتنب الحدة في جدالك وخطابك وكن كريماً جواداً ولكن لا تكن مسرفاً وانظر قبل ان تسخو بما عندك اذا كان من تجود عليه يستأهل جودك · واذا اعطيت فاكتم عطاءك ولا تفاخر بالحسنة فانَّ بهاء الاحسان

ان يكون سرًّا ٠ واياك ان تكون امام القوي المستبد جبانًا ذليلاً او ان
تسكت عن حقك متى كان لك حق ٠ وقابل الاساءة بالاحسان والعنف
بالملاينة فانك بذلك تقود الغير الى اخلاق حسنة وطباع مرضية واهجر
الخمرة وابتعد عن الملاهي ولا تكثر من العشراء والاصدقاء وابلُ قبل ان
تضع ثقتك ولا تستأمن على سرك غير صدرك فان ضاق صدرك عن
كتمان سرّك « فصدر الذي تستودع السر اضيقُ » ٠ وكن رحيماً شفيقاً
ولكن لا تكن ضعيف الطبع كثير الميل مع الهوى بل كن رجلاً ثابت
العزم قوي الطبع حر الارادة ٠ ولا تتقيد بغير الحق فانه سيف الحر
وترس العاقل ولأمة الحكيم ٠ واكبح جماح نفسك وضع شكيمة لشهواتها
وكن حارساً عليها فالنفس أمارة بالسوء ٠ وأُحذرك الدعوى فانها آفة العلم
ووصمة عار على المرء وكثيرًا ما تكون السبب في انحطاط شأن الرجل وسقوطه
وبغض معاشريه اياه ٠ واستقرِ اقوال الحكماء والفلاسفة واعمل الفكرة
في كل كلمة منها وافحصها فحصاً يكفل لك حسن فهمها ثم اعمل بما يبدو لك
فيها من الحكمة واتبع فلسفتها اذا كانت صالحة ٠ واياك ان تعجل في الحكم
او ان تحكم على وهم فانك لا تأمن بذلك ان تزلَّ فتذل وتندم حيث لا
ينفع الندم ٠ واذا طلبت فلا تكن مستعطياً واذا نهيت فلا تكن آمرًا بل كن
في كل احوالك رقيق الجانب لين العريكة حلو اللسان واذا حُكّمت فاحكم
بالعدل والانصاف وساوِ بين الكبير والصغير والغني والفقير فان حقوق
الانسان واحدة والغنى والفقر لا يؤثران في الحقوق وبالجملة فانني أُوصيك

بان تعامل الناس بما تريد ان يعاملوك بهِ ٠ ثم دفع اليهِ كتاباً في لغة لا يعرفها
وقال ٠ وهذا يا أخي رمزٌ عن ان الحياة كلها اسرار ومعميات وكلما
فككت رمزًا وكشفت سرًّا بدت لك من ورائهِ اسرار ورموز اصعب
منها وادقّ فاجهد في فهم ما أُلقيه عليك من هذا القبيل وتدبره والله
المسؤول في ان يكلأك ويرعاك بعين عنايته والسلام »

الفصل السابع والعشرون

المرأة

اشبعنا الكلام في مواضعهِ من هذا الكتاب في وجوب تعليم المرأة وتهذيبها وتثقيف اخلاقها بحيث لا تبقى متأخرة عن الرجل فلا يبقى نصف المجتمع الانساني جاهلاً منحطاً وتبقى فائدة تعليم النصف الآخر ناقصة

وفي ظننا ان كتاب العلم والتربية لا يجب ان يخلو عن فصل خاص نضمنهُ شذوراً مما قيل في المرأة بياناً لمقامها في هيئة الاجتماع وتأثيرها في العيلة واظهاراً للشأن العظيم الذي لها. فانها لما كانت اول من يحملنا في الاحشاء ويفتح اعيننا للنور ويقف عند وسادتنا ساعة الضعف والعلة ويغمض اجفاننا للموت وكانت شريكتنا في كل سرَّاءَ وضراء كانت ولا مراءَ ذات شأن خطير لا ينبغي ان نتجاهلهُ ونغضَّ الطرف عنهُ

وقد جاءَ في قول احد الحكماء "ان التي تهزُّ السرير بيمينها تهز الارض بيسارها" وهو قول اذا تدبرتهُ وجدتهُ بالغاً حدَّ الاصابة فان نهوض شعب او سقوط أُمة متوقف امرهما على حسن تربية المرأة او فسادها

والحقيقة التي لا مراءَ فيها ولا إنكار لها ان المرأة الحكيمة تعمر بيتها

والمرأة الجاهلة تجرُّ اليهِ الخراب . فمن هي المرأة التي لها مثل هذا الشأن العظيم في مجتمعنا الانساني ومن هي هذهِ المرأة التي يصحبنا تأثيرها فينا منذ الساعة التي نخرج فيها من ظلمات الاحشاء الوالديَّة الى الساعة التي نتوارى فيها في ظلمات القبور

انظر الى هذه الفتاة التي تلعب في فناء دارك قافزةً من مكان الى مكان مشتغلة بكل ما يهم وما لا يهم ضاحكة تارةً وباكية أُخرى او جالسة على المقعد تخلع عن "عروستها" ثوباً وتلبسها ثوباً وامارات الاهتمام بادية على محياها وسمات الاشتغال ظاهرة على جبينها. هذه الفتاة الصغيرة التي لا شأن لها الاَّ ما لكل ولدٍ من الشأن هي امرأة الغد التي يطلب منها ان تكون زوجةً وأُماً ورفيقة ومربية وشريكة في الحياة وامينة على الاسرار ومعزية وقت المصاب والتي يجب عليها ان تبسم للرجل وقت فرحهِ وتمسح دمعتهُ وقت حزنهِ وتسهر على اولادهِ وتبث فيهم العواطف الشريفة والشعائر السامية وتعرفهم واجباتهم وتدلهم على حقوقهم وتنير ابصارهم وبصائرهم وتفتح اعينهم للخير وتبعدهم عن طريق الشرّ وتنفخ فيهم روح الفضائل والكمالات . فهذهِ الفتاة التي لا تعبأُ الآن بها سوف تردُّ اليك متى بلغت سن المرأة كل ما استودعتها اياهُ ان علماً فعلماً وان جهلاً فجهلاً وبمعنى اعم واوضح ان خيراً فخيراً وان شراً فشراً

ونحن نحب ان نستشهد باقوال بعض العلماء والفلاسفة الذين وقفوا اقلامهم للبحث في حالة المرأة وما لها من الشأن والتأثير في المجتمع الانساني

واول ما نوردهُ من هذا القبيل كلام ورد في كتاب عنوانهُ " المرأة – الرجل " وضعهُ المرحوم اسكندر بن اسكندر دوماس الكاتب الفيلسوف الفرنسوي فقد جاء فيهِ ما تعريبهُ

" فلنجتهد الآن في الاحاطة بهذا الموضوع المهم من وجه الاختصار والجد. فهو كما لا نجهله موضوع كثير الاهمية بل هو اكبر المواضيع الحالية اهمية وشأناً. فان الانسانية افرادية كانت او اجمالية لا تزال تضطرب رهبةً امام ذلك القد الاهيف الهائل اعني بهِ المرأة التي نولد منها دائماً ونموت بها غالباً. فهي تبعث الحياة الى المرء طفلاً ولكنها تأخذها منهُ رجلاً. تلك حقيقةٌ لا يختلف فيها اثنان فاننا نسمع بها كل يوم ثم نراها رأي العين ونشعر بها حتى لم يبقَ فيها من ريب

ولقد زعم البعض ان الشرقيين فازوا بالمرام وسهلوا صعوبة الامر بسجنهم المرأة والاقفال عليها فيا للغرور... يظنون بما يفعلون انهم يضعفون قوة العدو ولكنهم يجمعون قواهُ لو يعلمون. وبدلاً من ان يتركوا الزوبعة تلاطم اقطار الدنيا تراهم يحصرونها معهم في مجال ضيق فتصب عليهم محنها وتلعب بهم دون رحمة ولا اشفاق وهم لا يشعرون. ويجهلون بل نكاد جميعنا نجهل ان الواسطة الوحيدة لإضعاف المرأة انما هي منحها الحرية فاذا شئت ان تكون سيدها ومالك امرها فاكسر قيود عبوديتها فاستعباد المرأة هو الدافع لها وهو ضمانها وقوتها وسلاحها والمرأة الحرة امرأة ميتة في عجزها عن الاضرار حيةٌ في انها حرة "

ولعمري ان الذين ينكرون على المرأة كل حق ويحرمونها كل مقام في المجتمع الانساني بحرمانهم اياها العلم والتربية والحرية ينبغي لهم ان يتدبروا هذا الكلام وينظروا اليهِ بعين التروي ثم يحكموا بعد ذلك اذا كانوا مصيبين فيما يفعلون

ومما يحسن ايراده هنا من اقوال كتاب فرنسا بشأن المرأة وتعريفها قول الكاتب الشهير اميل دي جيراردين اذ قال موجهاً الكلام الى اسكندر دوماس الذي كان يناظرهُ في موضوع المرأة ما خلاصته

" وما المرأة. انهُ يكفينا في تعريفها ان نقول انها الأمُّ والأُخت والابنة والحليلة واننا اذا كنا ذوي حياة أَفليس ان حياتنا من عندها وان كنا نفكر أَفليس بواسطتها. وان كنا نخلص في ايام الصغر من كل اخطار الموت التي تحدق بنا فنصير رجالاً ذوي لب وذكاء ومعرفة واحساس أَفليس كل ذلك راجعاً اليها "

ثم قال في موضعٍ آخر يخاطب مناظرهُ " فانا أُهنئك ايها العزيز دوماس بانك ارتضيت بان تكون من صف الذين يعتقدون بان اليوم الذي تصير فيهِ المرأة مساوية للرجل مساواة شرعيةً لهو يوم عظيم للانسانية والحضارة والمدنية وحينئذٍ يجري التقدم في مجراهُ الطبيعي ويسرع النجاح البطيء. حينئذٍ تُحلُّ عقدة المشاكل كالبحث عن الابوية والطلاق وما شاكلها وهي العقدة التي ظنت هيئة الاجتماع ان لا حلَّ لها لمرّ عليها من السنين والاعوام. حينئذٍ يقلُّ الفساد اذا لم نقل يزول. حينئذٍ يعود على المرأة

كل التبعة من حيث تربية البنين وصحتهم وتهذيبهم وترويض اخلاقهم »

وفي موضع آخر من هذا الكتاب النفيس « فكم كان في الزمن الماضي عقبات ومسالك وعرة أخرت سير النجاح وكانت حائلاً دون التقدم والارتقاء فزالت باعتناق مذهب او اتباع رأي . وكم من العقبات والموانع ستزول في المستقبل ايضاً على هذا النحو . ولعمري من لا يرى ان هيئة الاجتماع يمكنها دون خطر ان تبقى ساكنة غير متقدمة الى الامام

وكيف تبقى ساكنة والعلوم والمعارف تغير في كل يوم وبدون نهاية حالتها الحاضرة . كيف تبقى ساكنة والعالم الجديد عالم كريستوف كولومبوس غير منفصل عن العالم القديم الا بمسافة بضعة ايام . كيف تبقى ساكنة والبلاد تتدانى مادياً والرجال تتقارب ادبياً . كيف تبقى ساكنة وقد اصبح الغنيُّ والفقير في منزلة واحدة تجاه الاعمال يقلهما قطار واحد وتنقلهما سفينة واحدة بالسرعة نفسها . كيف تبقى ساكنة وابناؤُها يجهدون في الارتقاء بمقدار ما كان ابناء الزمن الماضي يجهدون في أن لا يسقطوا . كيف تبقى ساكنة وقد صار معظم القواد من الطبقة الوسطى والنبلاء المستبدون ينظرون خاسرين . كيف تبقى ساكنة وقد صار الامر في يد الشعب ولا رأي الا ما يراه بل كيف تبقى ساكنة ونحن نرى المرأة في البلاد المتمدنة سائرة امام الجميع تنادي بالحريَّة وتطلب مساواتها بالرجل »

ثم قال في موضع آخر « الشعب ما تريد المرأة ان يكون فانها بالعلم الذي تتلقاه ولو بعد حين وبتربيتها للفتاة منذ المهد تفتح للعادات والاخلاق

الجديدة باباً رحباً . والرعاع الجهلة من كل قوم يتناقصون في كل يوم . ولقد اصبح عددهم اقل كثيراً مما كان في بدء هذا القرن حين كان كثيرون يجهلون القراءة رجالاً ونساءً فالذي تحسن بنا ملاحظتهُ اذا انما هو المرأة الراقية سلم الارتقاء المتممة قتل الهيئة الاجتماعيَّة القديمة لتحيي بموتها مجتمعاً جديداً وهي التي تسترد بهمتها وسعيها المنزلة التي اغتصبها منها الرجل فانزلها عنها ظلماً واعتداءً »

وهو قول يدل دلالة واضحة على تأثير المرأة وعلو منزلتها في المجتمع الانساني كما يدل ايضاً على انها سائرة بسنة الطبيعة في الطريق التي تعيدها الى المقام الذي انزلها الرجل عنهُ بأثرتهِ وغباوتهِ معاً . ونحن وان كنا قد اطلنا في الاقتطاف من اقوال هذا الكاتب فاننا نحب ان نأخذ عنهُ ايضاً اقوالاً أخر حريَّةً بالاستبصار لانها وان كانت مسطرة بقلم رجل اوروبي عن النساء الاوروبيات فهي جديرة بالنشر بين صفحات هذا الكتاب للدلالة على استطاعة المرأة عندنا ان تكون غير ما هي الآن إلاَّ اذا انكرنا عليها انها من طينة سواها من نساء الغرب

ومما نقتطفهُ من كتاب « مساواة الرجل » للمسيو دي جيراردين كلامٌ احب صاحبهُ ان يثبت بهِ ضرورة منح المرأة الحريَّة التي يتمتع بها الرجل وانها قادرة على القيام بالاعمال التي يقوم الرجل بها وعلى مساواتهِ في كل امر . رأيٌ لا نتعرض لتأييدهِ او لنقضهِ ولسنا نطلب الآن لنسائنا كل ذلك بل غاية ما نطلبهُ ان تعطى المرأة المقام الذي يحق لها ويخولها

اياه' كونها أمنا وأم اولادنا

وهذا قول المسيو دي جيراردين

« ايُّ عملٍ بعد الغاء الرقيق يجب ان يفتخر بهِ العالم. أَليس هو الغاء الفرق بين الرجل والمرأَة. اليس الغاء عدم المساواة والتكافوء بين عضوين اوجدتهما الطبيعة متساويين »

ان الحريَّة التي لا تزال في مهد الطفوليَّة تنمو نموًّا سريعًا ولسوف تقلب نظام الهيئة الاجتماعيَّة وتبدل الحالة الحاضرة بحالة أُخرى. وهذا لا خلاص منه ولا مناص. وكيف يمكن اجتنابه ونحن نرى المرأَة تثبت مساواتها للرجل في المقدرة العقليَّة بتلقنها نفس الدروس والتعاليم التي يطلبها وبحصولها على نفس التربية ومطالعتها لنفس الصحف والمجلات والكتب وتحصيلها نفس الشهادات بعد تأْديتها لنفس الامتحانات والفحوص وبالجملة بسعيها وراءَ كل ما يسعى اليهِ الرجل ووصولها الى ما يصل اليهِ ومن كان في ريب مما اقول فليذهب الى اميركا حيث يلقى النساءَ العالمات والكاتبات والطبيبات والنائبات والقاضيات والمحاميات. حيث النساء يشتغلن بجدٍ ونجاح بكل ما يشتغل بهِ الرجال. حيث جمعيات النساء تترأَسها النساءُ. حيث مدارس الاناث تعطي الشهادات في العلوم العالية والطب والشريعة. او لم تروا ايها القراءُ كيف ان « مدرسة النساء الطبيَّة » قد اعطت من زمن قريب شهادة في الطب لعشر فتيات بارعات وانني اذكر لك ايها العزيز دوماس شهادات الرجال العظام في اميركا بشأْن انتخاب النساء في

أُمور النيابة والقضاء (واورد شهادات كثيرة يستدل منها على ان النساءَ قمنَ باعباء هذا الامر قيامًا حسنًا تفوقنَ بهِ اكثر الرجال) ومن تلك الادلة واحد افتتح بهِ رئيس المجلس الاعلى في « ويمنج » شهادته' حيث قال انني مع ما كنت ازعمه' من عدم امكان بلوغ المرأَة درجة الرجل ارى نفسي مضطرًّا الى الاقرار بحسب الذمة والصدق بان النساءَ قد قمنَ باعباء مناصب المحلَّفين قيامًا اكسبهنَّ ثناءَ الجمهور واحترام العقلاءِ. فلقد اظهرنَ من الانتباه والاعتناء والذكاء والصبر على العمل والسير على ما يقتضيه الضمير والناموس ما اضطر المعارضين الى الاذعان. ومما جاء ايضًا في شهادة المحترم كينجمان من رسالة بعث بها من ويمنج الى جريدة سندي هرالد قوله'. ان نساءَنا مهتمات بالامر اهتمام الرجال انفسهم. وكلهنَّ يقدمنَ على الانتخاب بحريَّة واستقلال ضمير ولسنَ كالرجال عرضةً للخروج عن الصواب والميل مع الهوى

هذا وانت تذكر ان رئاسة جمهوريَّة الولايات المتحدة عُرضت على امرأَة هي ميس فكتوريا وُدهال. ولم يتلقَّ الناس ذلك بالهزءِ والسخريَّة»

ولسنا نزيد القراءَ شيئًا من عندياتنا ولا من قول سوانا فلقد اثبتنا لهم على ما نظن ان للمرأَة تأْثيرًا عظيمًا جدًّا في حالة الشعب وان ارتقاءَ الامة او انحطاطها يكون بقدر ارتقاءِ المرأَة او انحطاطها

ولما كان اكثر ما تقدم لنا من الكلام اجماليًّا عامًّا فقد رأَينا اتمامًا لواجب الخدمة ان نخصَّ اخواننا المسلمين بكلمة عن المرأَة لا نقصد

بها إلاَّ النفع. ونحن لا نُشرع في هذا الموضوع قلمنا بل نتخذ لنا
عوناً في هذا الموضوع العسير قلم عزتلو الفاضل قاسم بك امين صاحب
كتاب «تحرير المرأة» — وصاحب البيت ادرى بالذي فيه — مقتطفين
من هذا الكتاب النفيس شذوراً نوجه اليها انظار قراء كتاب «العلم
والتربية» من المسلمين وعساهم ان يتنبهوا الى ان الزمن الذي نحن فيه زمن
اعطاء كل ذي حق حقه. فحق المرأة ان تكون في المجتمع الانساني ذات
مقام مرتفع ومنزلة سامية لانها أم الرجل وأم اولاده وشريكته في اطوار
حياته فكما ان لهُ حقوقاً عليها لها هي حقوق عليه. ولكن الرجل يمتهنها
ويحتقرها ويدوس حقوقها ويهتضمها لانهُ القويُّ وهي الضعيفة

وقد يقول بعضهم في الرد على هذا الكلام ان صاحبي كتاب تحرير
المرأة وكتاب العلم والتربية غير صادقين في ما يقولانه عن احتقار الشرقيين
عامة والمسلمين منهم خاصة شأن المرأة وجهلهم المقام الواجب لها لاننا نكرم
المرأة ونبالغ في إعزازها ونطعمها الذَّ ما عندنا ونلبسها انفس ما تصل اليه
ايدينا. على ان ذلك كلهُ ليس اعطاء المرأة حقها ولا شيئاً من حقها. وليس
احتقارها منحصراً في قلة اكرامها او في امتهان حرمتها واذلالها والتضييق
عليها في اسباب المعيشة ولكن ثمت أموراً كثيرة نأتيها عن غير اكتراث
وهي كلها احتقار للمرأة وغضٌّ من كرامتها. وان شئت ان تعلم ما هي
فاسمع ما ورد في كتاب تحرير المرأة بقلم رجل مسلم يحترم أمتهُ ودينهُ
ولكنهُ يعلم ان احتقار المرأة يضرُّ بالمجتمع الانساني ضرراً شديداً ويحط

من شأن الوطن والأمة حطّاً عظيماً. وهو قد جمع في الاسطر الآتية كل
ما كان من شأنه ان يوقف مجرى تقدم الجنس اللطيف في الاسلام وذلك
بجعل الرجل المرأة أمة رقيقة اقراراً منهُ بانهُ لا يركن الى امانتها ولا
يصدق بما قال

«ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضم الرجل حقوقها واخذ يعاملها بالاحتقار
والامتهان وداس بارجله على شخصيتها. عاشت المرأة في انحطاط شديد
اياً كان عنوانها في العائلة زوجةً او أماً او بنتاً ليس لها شأن ولا اعتبار ولا
رأي خاضعة للرجل لانهُ رجل ولانها امرأة. فني شخصها في شخص الرجل
ولم يبقَ لها من الكون ما يسعها إلاَّ ما استتر من زوايا المنازل واختصت
بالجهل والتحجب باستار الظلمات واستعملها الرجل متاعاً للذَّة. يلهو بها متى
اراد. ويقذف بها في الطرق متى شاء. لهُ الحريَّة ولها الرق. لهُ العلم ولها
الجهل. لهُ العقل ولها البله. لهُ الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن. لهُ
الامر والنهي ولها الطاعة والصبر. لهُ كل شيء في الوجود وهي بعض
ذلك الكل الذي استولى عليه

من احتقار الرجل للمرأة ان يملأ بيتهُ بجوارٍ بيض او سود او بزوجات
متعددة يهوى الى ايهنَّ شاء منقاداً الى الشهوة مسوقاً بباعث الترف وحب
استيفاء اللذَّة غير مبالٍ بما فرضهُ عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل
ولا بما اوجبهُ عليه من العدل فيما يأتي

من احتقار المرأة ان يطلق الرجل زوجته بلا سبب

من احتقار المرأة ان يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النساء من أم واخت وزوجة ويأكلن ما فضل منه

من احتقار المرأة ان يعين لها محافظاً على عرضها مثل آغا او مقدم او خادم يراقبها ويصحبها اينما تتوجه

من احتقار المرأة ان يسجنها في منزل ويفتخر بانها لا تخرج منه الاَّ محمولة على النعش الى القبر

من احتقار المرأة ان يعلن الرجال ان النساء لسن محلاً للثقة والامانة

من احتقار المرأة ان يُحال بينها وبين الحياة العامة والعمل في ايِّ شيء يتعلق بها . فليس لها رأي في الاعمال ولا فكر في المشارب ولا ذوق في الفنون ولا قدم في المنافع العامة ولا مقام في الاعتقادات الدينيَّة وليس لها فضيلة وطنيَّة ولا شعور ملي »

ذلك بعض ما استلفت نظرنا من كتاب تحرير المرأة ونحن قد استشهدنا به على الدلالة على اننا لسنا بمنفردين في هذا الرأي ولان صاحب هذا القول احق منا بايراده

وقد تقدم لنا في فصل العيلة كلام جهرنا فيه ببيان أضرار الحالة الحاضرة من انفصال المرأة عن العيلة « فيعيش الرجل في مجلس والمرأة في مجلس والاولاد بين المجلسين » ولم نجسر على ابداء رأينا في امر الحجاب لدقة هذا الموضوع وتفادياً من ان نتهم بالتعرض لما لا يعنينا ولا هو من شأننا في شيء . ولكننا نحمد الله على ان العالم المسلم صاحب كتاب « تحرير

المرأة » قد سهل لنا هذا السبيل بقضائه على الحجاب كما هو الآن قضاءً مبرماً مثبتاً مخالفته للشرع الاسلامي مخالفة تامة . ونحن نقتطف شذوراً من كلامه في هذا المعنى للدلالة على اضرار الحجاب المادية مع غضّ النظر عن اضراره الادبيَّة التي لا يحيط بها وصف واقل ما توصف به ان هذا الحجاب من جملة الاسباب في سقوط التربية عندنا بل في انحطاط الشرق الى الدرجة التي انحط اليها

وهذا ما اقتطفناه من كتاب « تحرير المرأة » في هذا المعنى نورده تبصرةً وذكرى لقوم يعقلون وهو

« خوَّلت الشريعة للمرأة ما للرجل من الحقوق وألقت عليها تبعة اعمالها المدنيَّة والجنائيَّة فللمرأة الحق في ادارة اموالها والتصرف فيها بنفسها فكيف يمكن لرجل ان يتعاقد معها من غير ان يراها ويتحقق شخصيتها

ومن غريب وسائل التحقق ان تحضر المرأة مغلفة من رأسها الى قدميها او تقف من وراء ستار او باب ويقال للرجل ها هي فلانة التي تريد ان تبيعك دارها او تقيمك وكيلاً في زواجها مثلاً . فتقول المرأة بعت او وكلت ويكتفى بشهادة شاهدين من الاقارب او الاجانب على انها هي التي باعت او وكلت والحال انهُ ليس في هذه الاعمال ضمانة يطمئن لها احد . وكثيراً ما اظهرت الوقائع القضائيَّة سهولة استعمال الغش والتزوير في مثل هذه الاحوال . فكم رأينا ان امرأة تزوجت بغير علمها وأجرت املاكها بدون شعورها . بل تجردت من كل ما تملكه على جهل منها . وذلك

كله ناشئ من تحجبها وقيام الرجل دونها يحولون بينها وبين من يعاملها

كيف يمكن لامرأة محجوبة ان تتخذ صناعة او تجارة للتعيش منها ان كانت فقيرة · كيف يمكن لخادمة محجوبة ان تقوم بخدمة بمنزل فيه رجال

كيف يمكن لتاجرة محجوبة ان تدير تجارتها بين الرجال · كيف يتسنى لزارعة محجوبة ان تفلح ارضها وتحصد زرعها · كيف يمكن لعاملة محجوبة ان تباشر عملها اذا اجرت نفسها للعمل في بناء بيت او نحوه

وبالجملة فقد خلق الله هذا العالم ومكن فيه النوع الانساني ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه في الوصول اليه · ووضع للتصرف فيه حدودًا تتبعها حقوق · وسوّى في التزام الحدود والتمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة من هذا النوع · ولم يقسم الكون بينهما قسمة إفراز · ولم يجعل جانبًا من الارض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهنّ وجانبًا للرجال يعملون فيه في عزلة عن النساء · بل جعل متاع الحياة مشتركًا بين الصنفين شائعًا تحت سلطة قواهما بلا تمييز — فكيف يمكن مع هذا لامرأة ان تتمتع بما شاء الله ان تتمتع به مما هيأها له بالحياة ولواحقها من المشاعر والقوى وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها وبين الرجال اذا حُظر عليها ان تقع تحت اعين الرجال الاّ من كان من محارمها لا ريب ان هذا مما لم يسمح به الشرع ولن يسمح به العقل · لهذا رأينا ان الضرورة احالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند اغلب الطبقات من المسلمين كما نشاهده في الخادمات والعاملات وسكان القرى حتى من اهل الطبقة

الوسطى بل وبعض اهل الطبقة العليا من اهل البادية والقرى · والكل مسلمون بل قد يكون الدين امكن فيهم منه في اهل المدن

اذا وقفت المرأة في بعض مواقف القضاء خصمًا او شاهدًا كيف يسوغ لها ستر وجهها · مضت سنون والخصوم وقضاة المحاكم انفسهم غافلون عما يهم في هذه المسألة متساهلون في رعاية الواجب فيها · فهم يقبلون ان تحضر المرأة امامهم مستترة الوجه وهي مدّعية او مدّعى عليها او شاهدة وذلك منهم استسلامًا للعوائد · وليس بخافٍ ما في هذا التسامح من الضرر الذي يصعب استمراره فيما اظن · ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص المستتر ولما في ذلك من سهولة الغش · كل رجل يقف مع امرأة موقف المخاصمة من همه ان يعرف تلك التي تخاصمه وله في ذلك فوائد كثيرة من اهمها صحة التمسك بقولها · ولا اظن انه يسوغ للقاضي ان يحكم على شخص مستتر الوجه ولا ان يحكم له · ولا اظن انه يسوغ له ان يسمع شاهدًا كذلك · بل اقول ان اول واجب عليه ان يتعرف وجه الشاهد والخصم خصوصًا في الجنايات · والاّ فأي معنى لما اوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص وسنه وصناعته ومولده · وماذا تفيد معرفة هذه الامور كلها اذا لم يكن معروفًا بشخصه

والحكمة في ان الشريعة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة كما مرّ ظاهرة · وهي تمكن القاضي من التفرس في الحركات التي تبدو على الوجه والعلامات التي تظهر عليه فيقدر الشهادة بذلك قدرها

لا ريب ان ما ذكرناهُ من مضار التحجب يندرج في حكمة إباحة الشرع الاسلامي لكشف المرأة وجهها وكفيها – ونحن لا نريد اكثر من ذلك

واتفق ائمة المذاهب ايضاً على انهُ يجوز للخاطب ان ينظر الى المرأة التي يريد ان يتزوجها · بل قالوا بندبه عملاً بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال لاحد الانصار – وكان قد خطب امرأة – «أنظرت اليها» – قال لا – قال «انظر اليها فأنهُ احرى ان يؤدم بينكما»

هذه هي نصوص القرآن وروايات الاحاديث واقوال ائمة الفقه كلها واضحة جليّة في ان الله تعالى قد اباح للمرأة كشف وجهها وكفيها وذلك للحكم التي لا يصعب ادراكها على كل من عقل

هذا حكم الشريعة الاسلاميّة كله يسر لا عسر فيه لا على النساء ولا على الرجال · ولا يضرب بين الفريقين بحجاب لا يخفى ما فيهِ من الحرج عليهما في المعاملات والمشقة في اداء كل منهما ما كلف بهِ من الاعمال سواء كان تكليفاً شرعياً او تكليفاً قضت بهِ ضرورة المعاش

اما دعوى ان ذلك من آداب المرأة فلا إخالها صحيحة لانهُ لا اصل يمكن ان ترجع اليهِ هذهِ الدعوى · واي علاقة بين الادب وبين كشف الوجه وستره وعلى اي قاعدة بُني الفرق بين الرجل والمرأة · اليس الادب في الحقيقة واحداً بالنسبة للرجال وللنساء وموضوعه الاعمال والمقاصد لا الاشكال والملابس»

وجاء في موضع آخر

«على ان البرقع والنقاب مما يزيد في خوف الفتنة · لان هذا النقاب الابيض الرقيق الذي تبدو من ورائهِ المحاسن وتختفي من خلفه العيوب · والبرقع الذي يختفي تحتهُ طرف الانف والفم والشدقان ويظهر منه الجبين والحواجب والعيون والخدود والاصداغ وصفحات العنق – هذان الساتران يعدان في الحقيقة من الزينة التي تحث رغبة الناظر وتحمله على اكتشاف قليل خفي بعد الافتتان بكثير ظهر · ولو ان المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع خلقها ما يرد في الغالب البصر عنها

ليست اسباب الفتنة ما يبدو من اعضاء المرأة الظاهرة · بل من اهم اسبابها ما يصدر عنها من الحركات في اثناء مشيها وما يبدو من الافاعيل التي ترشد عما في نفسها · والنقاب والبرقع من اشد اعوان المرأة على اظهار ما تظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة · لانهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف ان يعرفها قريب او بعيد فيقول فلانة او بنت فلان او زوجة فلان كانت تفعل كذا · فهي تأتي كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية ذلك البرقع وهذا النقاب · اما لو كان وجهها مكشوفاً فان نسبتها الى عائلتها او شرفها في نفسها يشعرانها الحياء والخجل ويمنعانها من ابداء حركة او عمل يتوهم منهُ ادنى رغبة منها في استلفات النظر اليها

والحق ان الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الاسلاميّة لا للتعبد ولا للادب بل هما من العادات القديمة السابقة على الاسلام

والباقية بعده . ويدلنا على ذلك ان هذه العادة ليست معروفة في كثير من البلاد الاسلاميَّة وانها لم تزل معروفة عند اغلب الأُمم الشرقيَّة التي لم تتدين بدين الاسلام »

وفي هذا القدر كفاية للدلالة اولاً على سموّ مقام المرأة وعظم شأنها في المجتمع الانساني وثانياً على وجوب تعليمها وتربيتها حتى اذا أُطلقت حريتها لا ينجم عن تحريرها ما يعود بالضرر ويدعو الى الندم

ونحن نختتم هذا الفصل بابيات رائقة تثبت ان المرأة كالمادة المرنة يمكن جعلها مظهراً للخير او للشر وهو قول لا شكّ في صوابهِ فكم رأينا نساءً وجدن لكل عمل جميل قد انقلبنَ بسبب الرجال الى شياطين وكم رأينا من نساء الشر من عدنَ الى سبيل الهداية والخير بسبب الرجال ورحم الله القائل

حسب المرأةَ قومٌ آفةً   مَن يدانيها من الناس هلكْ
ورآها غيرهم امنيَّةً   فاز بالنعمة فيها من ملكْ
فتمنى معشرٌ لو نُبذت   وظلام الليل مشتدٌّ الحلكْ
وتمنى غيرهم لو وُضعت   في جبين الليث او قلب الفلكْ
وصواب القول لا يجهلهُ   حاكمٌ في مسلك الحق سلكْ
انما المرأةُ مرآةٌ بها   كل ما تنظرهُ منك ولكْ
فهي شيطانٌ اذا افسدتها   واذا اصلحتها فهي ملكْ

الفصل الثامن والعشرون

الزواج

الزواج ناموس من نواميس الطبيعة وسرٌّ من اسرار الاديان كلها وقد وُضعت لهُ حدود وعيِّنت لهُ روابط وكُتبت فيهِ المقالات المطولة والكتب الضخمة الحجم فلسنا نتعرض بعد ذلك كله للكلام عن الزواج من حيث هو بل نحن لا نريد ان يخلو هذا الكتاب عن فصل في موضوع الزواج بعد ان ضمنَّاهُ فصولاً في الولد والرجل والبنت والمرأة وبعد ان اكثرنا من الكلام على العيلة وكيف ينبغي ان تكون

وقد كان الزواج على عهد اجدادنا اهنأ كثيراً مما هو الآن والسبب في ذلك ان اجدادنا كانوا يتزوجون على قصد تأليف العيلة وتربية الاولاد اما نحن فاننا نتزوج لكي ... نتزوج

وانظر الى الزواج في هذه الايام فهو في الغالب علة الشقاء وسبب التعاسة حتى لقد كتب احد الشعراء في مطلع قصيدة لهُ

من يُرد هماً مروَّجْ   فليبادر يتزوَّجْ

ونحن لا نقصد بهذا الكلام الى التنفير من الزواج والتحريض على

الابتعاد عنهُ · لا فاننا كنا ولا نزال في مقدمة الداعين اليهِ المحرضين
عليه · لانه يسوءُنا ان نرى فتاة قاعدة في البيت وشاباً يقتل الاوقات في
القهوة · وماعدا ذلك فان الزواج اشرف الاعمال التي يقوم بها المرء واسماها
فهو لذلك اشدها خطارة واعظمها شأناً

ومن يعد بالذكر الى مقالاتنا المنشورة في مجلة الراوي وجريدة
الاهرام فيما يختص بالزواج ويذكر العاصفة التي هاجتها بنات الاسكندرية
خاصة على « ثعلبة » بسبب مقالة قعود البنات التي في العدد الصادر في
يوم ٢٥ اكتوبر من عام ١٨٩٧ من جريدة الاهرام يدرك الى اي حدٍّ
نجلُّ قدر الزواج ونحترم المتزوجين

على اننا مع ذلك كله لا نخشى ان نقول ان التربية التي يجري عليها
« المتفرنجون » من الشرقيين قد اقامت حائلاً عظيماً بين العزوبة والزواج
حتى لقد اصبح الزواج بمثابة حصن محصور يلتمس الذين فيهِ الخروج منهُ
ويريد الذين هم خارج عنهُ الدخول اليهِ « ولكنهم لا يجسرون »

ونحن لا نتعمد وصف الحالة وصفاً مدققاً والاحاطة باطراف الاسباب
التي صيَّرت الزواج امراً عسيراً وجعلت البنات في البيوت قاعدات
والشبان جالسين في القهاوي بل نكتفي الآن بالاشارة اليها تاركين بيان
بعضها الى الفصل التالي الذي سيجيء بعنوان « اخلاق وعادات » مستلفتين
انظار الشرقيين الى الكلام الآتي مما عرَّبناهُ عن فصل للفيلسوف
اسكندر بن اسكندر دوماس الفرنسوي وقد تخيل انهُ ذو ولد ذكر وان

ابنهُ بلغ سن الحادية والعشرين وهو سن الرشد عندهم فأحب ان يعظهُ بما
يكون لهُ تبصرة وعبرة حتى اذا بلغ سن السادسة والعشرين وهو السن
التي تباح فيها للرجل والفتاة حريتهما في الاقتران بمن يختارانهِ يعرف ان
يختار المرأة الصالحة لهُ وان يسير معها على الخطة التي تكفل هناء الحياة
والمعيشة الراضية وهو

« لو كان لي ولد ذكر لكنت ابذل عليهِ النفس والنفيس في سبيل
تأديبهِ وتعليمهِ وتثقيف اخلاقهِ وتخريجهِ في ابواب الحكمة وفنونها حتى
اذا اتقن ذلك وبلغ مبالغ الرجال قدتهُ بيدي الى قمة جبلٍ عالٍ
وخاطبتهُ هكذا

انك قد وعيت من العلوم والفنون ما يجهلهُ عدد عديد من الناس
وهذا لك ولا ريب كنز مكتسب تزيده بقليل من الدأب والاجتهاد
فكن فيهِ ورأيك وانتهِ بهِ الى هواك فليس على هذا مدار الاحوال ولا
عندهُ تُحطُّ الرحال وانما هو لك بمثابة حقل ترتزق منهُ وعليك يعود
خيرهُ وشرهُ · انما المهم هو اعظم من هذا وفوق ما تتصور فانهُ ليس من
صنعة اليد ولا سعة العلم وهو ما تعقد عليهِ ضميرك اعني معرفتك غيرك
وقدر نفسك

وهذهِ سنتك الحادية والعشرون قد بلغتها وهذا هو اليوم العظيم
الذي فيهِ تعلن شرائع الانسانية كفاءتك لان تكون قائداً لنفسك مدبراً
لاعمالك حراً في تصرُّفك حتى فيما يخالف تصرُّف ابيك وتطلق لك ما

تشتهي من الزواج او تركه منذ بلوغك السنة الخامسة والعشرين من عمرك ولا جرم ان في هذا الدليل واضحاً على ان تلك الشرائع ترى سياسة المرأة من اصعب ما يُعرض للرجل في ايامهِ . ولقد لقنتك العلوم والمعارف وسهلت امامك سبل الحياة فلم يبقَ عليَّ من حقوق البنين على ابائهم إلاَّ ان أُسهل عليك امر هذهِ الصعوبة فارعني السمع وعِ في قلبك ما اقولهُ لك واعلم انهُ هو الحق بعينهِ وان كان في كلام قليل

تعلم يابنيَّ انك لست مركباً فقط من دمٍ وعضل وعروق وعظام وانه لسوف يأتيك يوم ينحلُّ فيهِ هذا المركَّب ولا يبقى لك من هذا الجسم المنظور شيءٌ فلو كان هذا كل ما تملك على الارض لكنت ادنى ما عليها من المخلوقات . وتدري ايضاً ان لك حياة أُخرى غير التي ذكرنا بها ترتفع عن الخلائق الأُخر وهي انك تفكر وتذكر وتفهم وتحكم وتأسف وتأمل وتحب ولا تبغض والحمد لله ولك خلا ذلك أُلوف وجدانات تتركب وتتسلسل وتعيش بشخص منك آخر غير منظور وهو وان يكن لا حدَّ لهُ فانهُ يحويهِ منك هذا المركب المحدود فليس اذاً وجودك محصوراً فيما نراهُ منك لكنهُ يتناول شيئاً آخر هو خارجٌ عنك كما انك لست عضواً مخصوصاً بالخليقة الهيوليَّة التي لك معها تعلق محسوس ولكنك مشتركٌ ايضاً في خليقة أُخرى غير محسوسة التركيب هي التي ترتب هذا العالم بالعقل والوجدان وهي التي نسميها بالنفس . فبالخليقة الأُولى ترى نفسك شبيهاً بكل ما يولد ويعيش ويموت واما بالثانية فبعكس ذلك فانك

تشعر في نفسك بانك ارفع منزلةً من كل هؤلاء

ولقد اتى عليك واحدٌ وعشرون عاماً كفلتك فيها وادبتك بآداب الدين والعلم والتربية فعلمتك ان لا اله إلاَّ الله الذي ارشدتك الى عبادتهِ واجلالهِ وعرَّفتك ما الوالدان وما لهما عليك من الحقوق ونهيتك عن ان تفعل بقريبك ما لا تريد ان يفعلهُ هو بك وعلمتك ان لا تبغضهُ اذا لم تكن تحبه وان تحترمه كنفسك وتخفَّ ما استطعت لمعاونته وارفاده فان التكافل البشري اول شيءٍ تتطلبهُ منك الانسانيَّة . وقد نشأت والحمد لله حميد الصفات لم تسرق لقريبك مالاً او متاعاً . ولم تعد عدةً الاَّ وفيت بها وما برحت الى الآن عفيف اللسان والقلب طاهر النفس والذيل ثابت الجأش امام صدمات جيوش الهوى وهذا ما ارجو بقاءك عليهِ اذا رغبت في ان تعيش منفرداً واما اذا احببت ان تفعل ما يفعلهُ غيرك من الرجال فاياك ان تطلب الحب الا في الزواج فان الحب في الزواج مقارن بالاحترام والحب بلا احترام لا يكون الاَّ ضعيف البناء قصير البقاء

ومع ذلك نقد ترى القالة من حولك يقولون ان رجلاً بلغ درجات المدنيَّة يجب عليهِ ان يكون خبيراً باحوال النساء قبل زواجهِ ليتبوَّأَ من معرفتهنَّ مكاناً يحسن به العشرة مع التي سيقسمها لهُ القدر تحامياً لما يقع بين المتخالطين من الخلاف اذا كان احدهما على غير بينة من حال صاحبهِ فاعلم يابنيَّ ان ما تسمعهُ من مثل هذه الاقاويل ليس بذي صدق انما ذلك

مجرد خدعة يخدع بها الرجل نفسه ظاناً انه يختبر النساء بما يعرف من فراسة او هيئة وليس بذلك تختبر النساء ولا بشيء آخر فان النساء مهما كشفن لك من اسرارهن فانهن يبطن فوق ذلك كثيراً . واعلم ان المرأة التي تختبرها اما ان تكون من ذوات الفجور فتحيد بك عن سبيلك او من ذوات العفاف فتحيد بها عن سبيلها فلا تستفيد من الأولى الا ان تحتقر النساء ومن الثانية الا ان تحتقر نفسك . واذا لقيت امرأة (قبل زواجك او بعده) فاذا كانت قبيحة الخصال فاجهد بتحسينها واذا كانت حسنتها فاياك وتغييرها فلا اجمل من منظر امرأة مهذبة الاخلاق

فان رغبت في الزواج فاذهب واتخذ لك امرأة من اية رتبة كانت من الخاصة او العامة غنية او فقيرة بشرط ان تكون طاهرة النية نزيهة النفس سليمة القلب طليقة الوجه محبة للدأب بعيدة عن المجون والخفة فانهما في المرأة دليل الفساد علته . وقبل ان تختار الزوجة انظر بعين النقد الى اهلها وذويها فانهم اكبر دليل عليها وقلما كذب هذا الدليل

واذا اتخذت لك زوجة فقبل ان تصير والدة يجب عليك ان تفهمها ما الوالدية واين مكانها من الأسرة وبالتالي من الهيئة الاجتماعية وكن لها مثالاً تستفيد منه وليكن عملك مقروناً بالاحترام لشخصها لكن لا تفرط في الاحتفاء بها والتعظيم لها وليكن ذلك على قدر ما تستحق بمقامها الزوجي ومكانها الوالدي

واعلم ان من سنّ شريعة او فرض قانوناً ولم يعمل بحسب ما سنّ او

فرض فهو مراءٍ ذا وجهين او مختلّ الشعور ذو جنة لا يستقبل الا ظهرياً فلذلك يجب عليك ان تكون ممتنع القياد على النساء كما تريد ان تكون زوجتك ممتنعةً على الرجال كي لا تفتح لها باباً للعمل والاعتذار ... وكشف زوجتك مكشفة الامين بكل اسرار حياتك حتى اذا مال عليك ساقي المنون بكأسه واولادك صغار لا يقومون على سياسة انفسهم تشرب تلك الكأس مطمئناً بان زوجتك لا تحتاج الى خاف لك يدير صغارك من بعدك بل تقوم هي باعباء ذلك المنصب الشاق فتكون لهم اباً واماً معاً . واياك ان تنسى انك باتخاذك تلك المرأة مساعدة ورفيقة لك الحياة بطولها تعاهد من نفسك ان تقوم لها مقام الزوج والصديق والاخ والاب فكن كما عاهدت وكن معها لين العريكة رقيق الجانب بحيث لا تدع لغيرك سبيلاً لان يحل من قلبها محلاً مهما كانت صفات ذلك الغير واخلاقه »

الفصل التاسع والعشرون

اخلاق وعادات

التمدن في الزواج – التربية الصحيحة الجيدة هي التي ترقي شأن الأمم والشعوب وتمهد لها طريق السعادة والهناء ونحن الشرقيين قد لهونا عن هذا الامر واهملناهُ حتى بلغ بنا ذلك الى عاقبة لاتحمد ونتيجة لاتدعو الى المسرة والرضى بل انهُ بلغ بنا الى اقصى درجات التعاسة والشقاء

ولقد تقدم لنا في الفصل السابق كلام في الزواج ووعدنا في خلال تلك السطور بالعود الى ذلك الموضوع لنورد للقراء بعض الاسباب التي تجعل الزواج في هذهِ الايام عبئاً ثقيلاً تنوءُ بهِ كواهل الرجال وقيداً قاسياً لا تحملهُ السيدات . ولما كان الموضوع دقيقاً رأينا ان نبدأ قبل ان نخطَّ فيهِ حرفاً باستلفات الانظار الى امر واحد وهو اننا لا نقصد الا الى النفع العام والخدمة الخالصة لوجه الله ثم نقول

من نكد الطالع في هذا الشرق المسكين ان ثروته لم تبق كلها بين ايدي اهلهِ وما بقي منها فهو دون شك ذاهب كما ذهب ما سبقهُ – اذا بقينا على ما نحن عليهِ من عدم الاهتمام بالحاضر والاكتراث للمستقبل –

وذلك انهُ لم يبق للشرقيين مذهب سوى التقليد كأنهم نسوا قول الشاعر العربي

من تردَّى برداءٍ ما رآهُ لابيهِ
سوف يأتيهِ زمانٌ يتمنى الموت فيهِ

ونحن نذكر هنا قولاً يؤثر عن ساكن الجنان المرحوم محمد علي باشا الكبير وهو "ويلٌ للشرق من لبس السوري قبعةً والمصري بنطلوناً ". على اننا لسنا نورد هذا القول لذم القبعة والبنطلون ولا للوقيعة بالذين تخيروا لبسها بل نحن نعتقد ان لا تأثير للباس في العقل ونجد ان للقبعة والبنطلون ميزة صحيةً على الطربوش والسراويل . ولكننا استشهدنا بهِ للدلالة المعنويةً على حب التقليد الذي يؤدي غالباً بالسذج والبسطاء وبسخيفي العقول والحمقاء الى إنكار جنسيتهم تارةً والى الخراب طوراً

وذلك ان حب التقليد يضطر الغني الى مجاراة من هو اغنى منهُ والمتوسط الحال الى مجاراة الغني والفقير الى السير في خطة المتوسط وهكذا حتى لا يبقى لاحدٍ حدٌ . وكم رأينا أُناساً كان حب التقاليد سبباً في ضياع مالهم ثم في ركوب الدَّين اكتافهم

ورب قائل يقول وايُّ دخل لهذا الامر في مسألة الزواج فمهلاً اننا رأينا اكثر ما اثرت هذه الحالة في الزواج عندنا . ونحن انما نعني هنا نصارى الشرق ونخصُّ منهم الذين غلب عليهم حب "التفرنج" فسبقوا الافرنج ولكن في الاسراف والبذخ وافسدوا تربية البنين والبنات حتى

اصبحوا وهم لا يقنعون بشيءٍ ولا يرضيهم شيءٌ ولا يقدمون على الزواج
لان مال قارون لم تبق فيهِ كفاية للقيام بفروض التمدن الحديث كما
يدّعي الذين لايعرفون من التمدن إلاّ اسمه

وإلاّ فهل من التمدن ان لا يتزوج الشاب الا بفتاة شابة جميلة غنيّة
متعلمة لغتين او ثلاثاً بارعة في التصوير والرقص وركوب الدراجة والضرب
على البيانو ولا يهم ان تكون ذات ادب وحياء وعلم بتدبير المنزل
وتربية الاولاد

وهل من التمدن الحقيقي الصحيح ان لا تقترن الفتاة الا بشاب ذي
خلاعة ذرب اللسان مجرد عن كل علاقة عيلية وان لا يكون مستخدماً ولا
ذا حرفة او صناعة

ولقد طرقنا باب البحث في هذا الموضوع في جريدة الاهرام منذ
عامين واسفنا لقعود البنات واحجام الشبان عن الزواج فجاءتنا من احدى
الاوانس في القاهرة رسالة زعمت فيها ان الرجال هم السبب في هذه
الحالة وطلبت الينا ان نبدل «قعود البنات» «بتقاعد الشبان» وفي
ذلك موضع نظر بل فيه موضع اصابة وحق
على ان النتيجة واحدة ونحن لا نبرئُ احد الفريقين ولا نجعل الخطأ
كلهُ في جهة واحدة بل ان نصف السبب من الرجال ونصفهُ من النساء
وان شئت فالسبب ناجم عن فساد التربية التي نتلقاها
وقد قالت صاحبة الرسالة في ختام كلامها «ان السبب في قعود

البنات انما هو تقاعد الشبان فانك لا تكاد تذكر لشاب فتاة حتى يبادرك
بالسؤال عن مهرها (الدوطة) غير ناظر الى شيءٍ سوى المهر اذ اصبح المال
كل ما يجري الرجال وراءهُ بحيث يصح ان يعقد الزواج في هذهِ الايام
بين الرجل والمهر وترسل المرأة مع «الجهاز» بدلاً منهُ ...»

ذلك كان بعض جوابها ونحن نعتقد ان المهر سبب من الاسباب
ولكن ما الذي يحمل الشبان على الجري وراءهُ ياترى. لنبحثنّ قليلاً علّنا
نهتدي

ضمنا مرّة وبعض الاتراب مجلس فعددنا فاذا نحن خمسةَ عشر شاباً
وكهلاً ليس بيننا متزوج فقلنا لادناهم الينا ألاَ ترغب في الزواج قال لا
قلنا ولماذا قال هذا رفيقي ينبئك فبرز الينا الرفيق قائلاً دعونا من الزواج
فاننا ههنا خمسة عشر رجلاً لا نريدهُ والتفت الى سائر الحضور وقال
باسماً ألست بلسانكم متكلماً فأومأ بعضهم واجاب غيرهم بالتصديق على مقاله
إلا فتى في الربيع السادس بعد العشرين فانهُ اجاب وقد صبغت حمرة
الشباب محياه اللهمّ ان حلفتني فلا . قال انك دون شك عاشق والعاشق
غرّ ومع ذلك فان كان لك في الزواج رأي حسن فأبدهِ على انني منذرك
سلفاً بعدم الانقياد لرأيك لان الزواج في هذهِ الايام خراب
للبيوت العامرة

ثم احتدم الجدال بين الحضور ودارت المناقشة كأنها الحرب العوان
ترغيباً في الزواج لانهُ سنة الله والطبيعة وحثاً على اجتنابهِ لان امرأة

اليوم غير امرأة الامس الى ان مضى هزيع من الليل فمضى كلٌّ في سبيلهِ

ونحن اذا انعمنا النظر في هذا الامر لا نجد أُولئك الشبان مخطئين خطأً عظيماً في قولهم ان الزواج في هذهِ الايام خراب للبيوت . ولكنهم هم ونساؤُهم السبب لو يعقلون . ولنأخذنَّ لذلك مثلاً رجلاً كان خادماً في محل تجاري وكان لاول عهدهِ بالخدمة قليل الراتب كما هي العادة ثم اخذ يتدرج في الزيادة حتى صار راتبه ٢٠ جنيهاً مصرياً في الشهر فمرَّ ببالهِ ان يتزوج واختار لهُ فتاة غير ذات ثروة لكنهُ ابى وابت حضرتها ان يمد رجليه على قدر بساطهِ فاكترى لهُ منزلاً واسعاً وفرشهُ بالرياش الفاخر والبسط الثمينة مُنفقاً في هذا السبيل كل ما كان قد وفرهُ في شبابهِ بل استدان فوقه ليكون الكناس خليقاً بالنزال الوارد

ولسنا نذكر للقراء كيف عاش الرجل بعد ذلك ولكنهم يعلمون ان من يضع رجلهُ في اول السلم لا بدَّ من ان يصل الى قمتها اذا كان صاعداً والى اسفلها اذا كان نازلاً ...

ونحن اذا نظرنا الى اكثر ذوي الدرجة الوسطى منا وجدناهم يجرون على هذه الخطة واذا لقيناهم بعد مدة من زواجهم فلا نسمع منهم إلاَّ " لعنة الله على الزواج " . ولكن ما ذنب الزواج ايها الاخوان اذا كنا لا نعرف ان نتزوج واذا كان الواحد منا لا يرضى ان يعيش مع عرسهِ الا كما يعيش صاحب الثروة العظيمة والمال الذي لا تنفد ذخيرته

واننا نذكر حديثاً سمعناهُ من احدى السيدات على مسمعٍ من حضرة

زوجها اذ سأَلها سائل اذا كانت على عزم الذهاب الى مرقص كبير يعد في الثغر فقالت من اشهى ما لديَّ ان اشهد هذا المرقص لكنني غير ذاهبة اليهِ فقال السائل ولِمَ ياسيدتي قالت لانني لم اصطنع لهذا المرقص ثوباً ونظرت الى زوجها باسمة واظنها كانت تبسم عن هزءٍ فقال السائل الفضولي ولكنني رأَيتك في حللٍ من الحرير واثواب من الدمقس قلَّ اللواتي يلبسنَ مثلها في هذا المرقص قالت نعم لكنني اذا لبست ثوباً منها يعرف الناس انني لبستهُ من قبل وانا أُريد ان اكون من احسن اللابسات في مثل هذهِ الحفلات اذا لم اكن احسنهنَّ

فقال السائل اذا سمحت لي السيدة ان أُجاوب نعمت والا صمت واخاف ان اسكت فتعد سيدتي سكوتي رضى قالت سمحنا فأَجب قال لنفرضنَّ ان عدد السيدات في هذا المرقص ١٠٠ سيدة قالت نعم وماذا قال فانا اضمن لحضرة السيدة ان عشراً منهنَّ فقط سيكنَّ فوقها في الملبس والحلي و٣٠ مثلها على السواء و٦٠ دونها دون شك فلماذا لا تقيس السيدة نفسها الى تسعين سيدة بل تقصر نظرها على عشر فقط فتحرم نفسها لذة حضور هذه الحفلة على شدة شوقها اليها فاجابت كل هذا لا يهمني بل يهمني فقط انني غير ذاهبة الى المرقص ... فتأَمل

وربما رأَى بعضهم اننا قد خرجنا عن موضوع البحث في اسباب قعود البنات وتقاعد الشبان في حين اننا لم نخرج من هذهِ الدائرة وانما اوردنا الحكايتين عن رجل متزوج وامرأَة ذات بعل ليعلم القراءُ ان الاعزاب

ينظرون الى هذه العبر فيحزنون ويحجمون

والآن فاننا موردون للقراء بعض الحجج التي تحتجُّ بها البنات ويتذرع بها الشبان أولئك للقعود في البيوت وهؤلاء للجلوس في القهاوي فقد أخذنا مرَّةً على فتاةٍ من الدرجة الوسطى رفضها الزواج بشاب مهذب حسن الاخلاق فقالت عجيب منكم ان تريدوا مني الرضى بهذا الفتى وهو مستخدم ذو راتب شهري معين. وما اراهُ اذا تزوجت بهِ إلاَّ مطالباً اياي بان اهتم لهُ بغذائهِ وارفأَ خرق ثوبهِ ...

وسمعنا مرَّةً أخرى فتاة غيرها تقول لا أُريد فلاناً على ما اعلمهُ من تمام آدابه وحسن سلوكه لان لهُ في البيت أُختين فلم نملك ان قلنا لها اذن فانتِ تنصحين لكل فتاة ان ترفض الزواج باخيكِ لانكِ انتِ وأُختكِ معهُ فصمتت

وغير هاتين الفتاتين كثيرات يرفضنَ الزواج لان الذين يطلبونهنَّ ليسوا من " الاغنياء العظام ولا الامراء الفخام " . اما الشبان فلسنا نخشى ان نقول لهم الحقيقة وان كانت جارحة وكيف نخافهم وقد عرَّضنا بانفسنا لسخط السيدات

الشبان عقبة كبرى في هذا السبيل فاننا نرى الشاب في هذه الايام لا يريد ان يسمع للزواج ذكراً الا اذا كانت الفتاة التي تعرض عليهِ بارعة الجمال كثيرة المال ذات علم واسع و ... غير ذات أُم

ومما سمعناهُ يوماً من احد الشبان اعتذاراً عن بقائهِ عزباً وهو قد

جاوز سن الثلاثين " انني الآن أُسافر في الدرجة الثانية وأُسافر الى سوريا لقضاء الصيف فاذا تزوجت لم يبقَ في وسعي ان أُسافر الا الى اوروبا وفي الدرجة الأُولى " زه زه "

وقال صديق لنا كنا نحترمه كثيراً فسقط على رأي المثل من عيننا " لا اتزوج الا بامرأَة ذات ثروة عظيمة فأُجري المركبات واسكن القصور " ولماذا . لانهُ موظف الحكومة

وقال ثالث — وهذه ثالثة الاثافي — وصاحبنا مستخدم عند احد المحامين ولا يتجاوز دخله خمسة عشر جنيهاً في الشهر " بلى أُريد ان اتزوج لكنني انظر فلا ارى بين كل هؤلاء البنات من تليق بي " اللهمَّ لطفك يارحيم

ولو شئنا ان نورد كل ما سمعناهُ من هذه الاقوال السخيفة لاضطررنا الى وضع مؤلف خاص. وبالجملة فان سبب الحالة التي نحن فيها نوع المعيشة التي صرنا اليها بحيث لم يعد احد يرضى بالمعيشة المتوسطة بل يريد كل واحد منا ان يجاري مَن فوقه في البذخ والاسراف فالمهر وان يكن علة كبرى في المسألة التي نحن بصددها الا انهُ ليس السبب الاصلي وانما الداء الحقيقي ما ذكرناهُ من نظرنا الى من هو فوقنا دون الاكتراث لمن هو دوننا

فليقم منا أُناس ذوو غيرة وحميَّة وحسن ارادة لاصلاح هذا الاعوجاج ونحن الكفيلون لهم بان اكثر الناس يتبعونهم في هذا السبيل الحميد لان السآمة من حالنا قد بلغت حتى المسببين لها

ولسنا نزعم ان نساءَنا وفتياتنا كلهنَّ على هذه الصورة فان بيننا كل امرأَة وفتاة تزري آدابها الغراءُ بعقود الجمان بل بقلائد الحسان ونحن قد عرفنا من نسائنا كل أُم ومن فتياتنا كل شقيقة تحمل خلالها الحميدة وصفاتهما الكريمة على الترنم بقول الشاعر

ولو كل النساء كمن « رأَينا » لفضلت النساءُ على الرجالِ

فقد جمعت كثيرات من نسائنا الى الادب العربي اجمل الآداب الاوروبيَّة مما اكسبهنَّ اياهُ العلم والتربية الصحيحة ولكن سوءَ الحظ جعل هذا العدد الاقليَّة التي لا يرجع اليها في الحكم على أُمة والكلام عن شعب ولذلك ترى في كلامنا من التعميم ما لم نكن نحب ان نعمد اليهِ ·

هذا فيما يختص بالزواج والتربية عند نصارى الشرق اما المسلمون فحالهم غير حال هؤُلاء لان المرأَة عندهم غير متعلمة ولا متحررة فلذلك تشعر هي من نفسها بانها من جملة متاع البيت فلا تعرف الزوجيَّة شأْنًا ولا للأُمومة مقامًا

ولما كان الرجل يخطب امرأَته ويعقد لهُ عليها وهو لا يعرف صورتها لانهُ ما رأَى قط وجهها ولا درى شيئًا عن اخلاقها اذ انهُ لم يجالسها ولم يحادثها كانت العيشة الزوجيَّة في غالب الاحيان غير هنيَّة ولا رضيَّة ونحن نترك الكلام هنا لاصحابهِ الجديرين به ومنهم صاحب كتاب « تحرير المرأَة » فقد اجاد في هذا الصدد بقولهِ

« بيَّنَّا فيما سبق ان جميع المذاهب في اتفاق على ان نظر المرأَة المخطوبة

مباح لخاطبها وذكرنا حديثًا عن النبي صلى الله عليهِ وسلم امر بهِ احد الانصار ان ينظر الى خطيبتهِ وهو قولهُ « انظر اليها فانهُ احرى ان يؤْدم بينكما » فما بالنا اهملنا هذهِ النصيحة على ما فيها من الفائدة مع اننا نتمسك بغيرها مما يقل عنها في الاهميَّة – ذلك لان الجاهل من عادتهِ ان يميل الى ما يضرهُ وينفر مما ينفعهُ

كيف يمكن لرجل وامرأَة سليمي العقل قبل ان يتعارفا ان يرتبطا بعقد يلزمهما ان يعيشا معًا وان يختلطا كال الاختلاط · ارى الواحد من عامة الناس لا يرضى ان يشتري خروفًا او جحشًا قبل ان يراهُ ويدقق النظر في اوصافه ويكون في أَمن من ظهور عيب فيهِ · وهذا الانسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار امامهما الفكر

لعلك تقول ان المرأَة ترى خطيبها من الشباك مرارًا وان الرجل يعرف بواسطة أُمهِ او أُختهِ اوصاف خطيبتهِ مثل سواد شعرها وبياض خدودها وضيق فمها واعتدال قوامها ورزانة عقلها وما اشبه ذلك فيكون عنده علم بما هي عليهِ من جمال وشمائل – نقول هذا قد يكون · ولكن كل هذهِ الصفات متفرقة لا تفيد صورة ما ولا يمكن ان ينبعث عنها ميل الى طلبها لتكون عشيرة تطمئن لصحبتها النفوس وتتعلق بها وبنسلها الآمال · وانما الذي يهم الانسان البصير هو ان يرى بنفسهِ خلقًا حيًا يفتكر ويتكلم ويفعل · خلقًا يجمع من الشمائل والصفات ما يلائم ذوقه ويتفق مع رغباتهِ وعواطفهِ »

وقال في موضع آخر

«قال الاعمش · «كل تزويج يقع على غير نظر فآخره همٌّ وغمٌّ»

ولما كان الزواج لا يراعى فيهِ اليوم هذا الشرط كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد تنحل لاول عرض يطرأُ عليها · واغلب ما يكون من ذلك لا سبب له الا رغبة كل منهما في الخروج من قيد لا يرى وجهاً للمحافظة عليهِ والتنصل من امر لا قيمة لهُ في نفسه

وكل ذي ذوق سليم يرى من الصواب ان يكون للمرأة في انتخاب زوجها ما للرجل في انتخاب زوجتهِ فانه امر يهمها اكثر مما يهم ذوي قرابتها · اما حرمانها من النظر في كل ما يختص بزواجها وقصر الرأي في ذلك على اوليائها دون مشاركة منها لهم فهو بعيد عن الصواب

قضت العادة عندنا ان يُجتنب الحديث مع البنت فيما يتعلق بالرجل الذي خطبها فلا يصلها خبر عن صفاته واخلاقهِ ولا تُسأَل هل تحب الاقتران بهِ ولا يبحث احد عن ذوقها ورغبتها وميلها وهي لا تجد من نفسها جرأة على ان تبدي ما في ضميرها · ويرى الناس انه لا يليق بالمرأة ان يكون لها صوت في اهم الاشياء لديها فيعطي القريب او البعيد رأيه في زواجها ما عداها ويظنون ان هذا من تمام فضيلة الحياء وكمال الادب · وهم مخطئون فيما يظنون»

وعدا ما يؤدي اليهِ الزواج دون تعارف سابق من عدم الالفة بين الزوجين وهناء المعيشة البيتيّة انهُ يؤدي طبعاً الى امرين آخرين كلاهما

هادمٌ اركان العيلة وكلاهما مقطعٌ اوصال الرابطة البيتيّة ونريد بهما تعدد الزوجات والطلاق

اما تعدُّد الزوجات فلا مشاحةَ في انهُ من اضرّ العادات راشدها عملاً في انحطاط الشرق وقد أشرنا في فصل العيلة من هذا الكتاب الى اضرار تفرُّق العواطف وتوزُّع الشعائر والوجدانات في البيت الواحد فلسنا نطيل الكلام في هذا الموضوع

ولكننا نحمد الله على تنبه اخواننا المسلمين ولا سيما الجيل الناشيء منهم الى خطارة هذه المسألة فقد عمد كثيرون منهم الى الاكتفاء بزوجة واحدة والتصميم على قضاء الحياة معها دون شريكة أخرى سواها

ونحن نعرف كثيرين منهم قد جروا على هذا المبدإ القويم سواء في مصر او سوريا حتى انَّ في مدينة نابلس على مقربة من القدس الشريف عيلةً هي اعظم عيلات تلك البلاد نسباً وحسباً واكثرها عدداً واجسمها ثروة لا يتزوج ابناؤُها إلاَّ بامرأة واحدة وهم لا يطلّقون ومع ذلك فانهم من اشدّ المسلمين استمساكاً بدينهم ومن ابعد الناس تعصباً للاسلام

اما الطلاق فيكفي في شجبهِ ما نُقل عن لسان أئمة الدين الاسلامي من الحديث القائل ان الطلاق ابغض انواع الحلال عند الله · فاذا كان الله تعالى يبغض هذا الحلال الى هذه الدرجة فما اجدر بالعقلاء والذين يلتمسون مرضاة الله ان يعدلوا عنهُ

والطلاق فيما خلا ذلك ذو تأْثير عظيم في النسل وفي آداب الشعب

وجامعته الوطنية واسباب تقدمه . وقد اثبتت الاحصاءات الاخيرة التي جرت في القطر المصري ان كل اربع نساء يتزوجن يطلق ثلاث منهن وتبقى الرابعة فقط . ولا يخفى ما في ذلك من الضرر

ونحن لا نتعمد الإطالة في الكلام عن هذين الموضوعين الخطيرين فقد وفاهما غيرنا من كتاب الاسلام حقهما وهم احق منا بالكلام عنهما . على اننا لا نملك انفسنا عن تسديد سهام الملام الى أولئك الذين يصبحون ويمسون وهم يفكرون في وسيلة تمكنهم من الطلاق ليعيدوا أمر الزواج على بدءه ويجددوا للطرب آلات . وقد قال احد كتاب المسلمين في هذا المعنى قولاً خليقاً بان يكتب بماء الذهب وان يكون عبرة لكل من يريد ان يعتبر . ونحن نجعله ختاماً للكلام في هذا الموضوع على رجاء ان يفيد نشره وهو « ان ارذل الرجال سيرة وأفسدهم اخلاقاً وأحطهم نفوساً هم الذين يتزوجون ليطلقوا ويطلقون ليتزوجوا » والسلام

***

الغنى الحقيقي — يبلغ دخل زيد الاسكندري في الشهر ٥٠ جنيهاً ولكنه ينفق ٥٥ جنيهاً

ويبلغ دخل عمرو الاسكندري ايضاً ١٠ جنيهات في الشهر لكنه ينفق منها ٨ جنيهات فقط . فاي الاثنين الغني وايهما الفقير

انا اذا نظرنا الى الامر نظراً مجرداً عن كل اعتبار وقياس توهمنا

ان من كان دخله الشهري يبلغ ٥٠٠٠ غرش صاغاً لهو الغني بازاء الذي لا يتجاوز دخله الالف غرش

لكننا اذا انعمنا النظر وبحثنا في عواقب الامر ونتائجه حكمنا دون تردد ان الغني منهما ليس اكثرهما ايراداً بل هو ذاك الذي يصل الى آخر الشهر وقد زاد دخله على نفقته ولو زيادة قليلة

والذي نراه — ويسوءنا ان نراه — اننا نحن بني الشرق لا نحسب في هذه الايام لهذه المسألة الخطيرة حساباً بل يقوم المستخدم منا وراتبه مقرر معلوم فيبدأ بالانفاق منذ غرة الشهر دون حساب ولا تقدير فلا يبلغ منتصف الشهر إلاّ وقد فرغ جيبه من كل اصفر وابيض فيضطر الى الاقتراض على راتبه وممن يقترض المستخدم وباي ربى ...

ولو شئنا ان نطيل الكلام في هذا الموضوع لما وقفنا عند ذكر المستخدمين والعمال فاننا نرى ابناء الأسرة الغنية يبدأون منذ غد وفاة الاب الذي جمع لهم المال بكد يده وعرق جبينه بالتبذير والاسراف فلا تمضي عليهم بضعة اعوام الا وقد اصبحوا افقر من الفقير الذي يمد يده للسؤال . لان السائل اغنى من الذي كان غنياً فذهب ماله في سبل البذخ وطرق الترف والنعيم . وان من كان يجري المركبات ويركض الخيل العتاق ويتوسد الاسرة الناعمة ويلبس ما هو انعم من الحرير مخافة ان يدمي لمس الحرير بنانه لافقر من كل فقير واشقى من كل شقي متى رأى نفسه في غير المنزلة التي كان فيها وهو لا يقوى على العمل الذي

يقوم به ابناء الدرجة الوسطى او الطبقة العاملة

فرحمةً بانفسنا يابني الشرق ومن الحكمة ان ننظر الى الغربي في معيشته وحسن تدبيره فاننا نرى العامل الفقير مثل الغني المثري لا يمضي عليه النهار حتى يكون قد استودع صندوقه ولو درهماً من دخل يومه يدّخره لساعة الحاجة او يوفره لابنه من بعده

وقد قال المثل العامي «على قدر بساطك مدّ رجليك» وفي هذا القول عبرة لذوي الالباب فان الرجل منا اذا مدّ رجليه الى اطول من بساطه وقعت على الارض وهكذا زيد الاسكندري اذا كان دخله في الشهر ٥٠ جنيهاً ونفقته ٥٥ جنيهاً فانه فقير لا محالة بخلاف عمرو الاسكندري الذي ينفق ٨ جنيهات من دخل عشرة في الشهر فهو الغنيُّ الذي يجب ان نتشبه به ونجري على خطته

الفصل الثلاثون

راية استقلال

نجعل ختام الكلام عن العلم والتربية في الشرق قصيدة غراء اتحفنا بها حضرة صديقنا الالمعي والشاعر العصري المتقدح الزناد نقولا افندي رزق الله وقد جعل عنوانها «راية استقلال» واتخذ في سرد معانيها الرائقة المبدأ السامي الذي اتخذناه مذهباً لنا في هذا الكتاب من الحض على ورود مناهل العلم الصحيح واتباع طرائق التربية الحقيقية ليكون ذلك سبب استقلال باهر للشرق . فلذلك جعلناها ختاماً لكتابنا وهي بمعناها الرائق ومبناها الشائق

حدثونا عن شرقنا بحديث   عهدهُ ليس في العصور الخوالي

قد مللنا حديث هندٍ وسلمى   ومللنا الوقوف في الأطلالِ

نحنُ عربٌ لكنَّ ما نحن فيه   فاتَ اجدادنا الكرامَ الأوالي

دولة العرب اشرقت واهتدت بالـ   ـعلم والغربُ في دجىً وضلالِ

حفظت منهُ للأعاجم اشيا   ءَ وزالت اشياؤُها كالخيالِ

يابني الشرقِ عصرنا ليس يُغني   القولُ فيهِ شيئاً عن الافعالِ

ايها القائلونَ ماذا فعلتم — فلقد طال عهدنا بالمقالِ

انتِ يامصرُ هل ترجين حلاً — بعد حينٍ لعقدة الاحتلالِ

قبل عهد المسيح كنتِ فتاةً — ذات حسنٍ يسبي عقول الرجالِ

ثمَّ ما زلتِ بعد ذلك حسناءَ — تحليتِ بالبها والجمالِ

بكِ كم مرَّ في الزمان غزاةٌ — سلبوا منكِ حيلة المحتالِ

لم يعوِّذْ بنوكِ إلاَّ خضوعاً — وامتثالاً لطالب الامتثالِ

تاجر الاجنبيُّ فيكِ بربحٍ — عاجلٍ نالهُ بلا رأس مالِ

وبنوكِ الكرام كلهمُ اصـ — ـبح يشكو خوفاً من الاقلالِ

أُمةٌ انتِ ام عليكِ من اللـ — ـه قضاءٌ بالرقّ والاذلالِ

لا لعمري فقد رأيتِ زماناً — تهتِ فيه بالعجبِ والاختيالِ

انبأتنا بهِ الرسوم البواقي — فعرفنا منها حياة البوالي

اين منكِ الذين شادوا من الأهرام ما لا تقوى عليه الليالي

كسف الجهل وجه شمسك فاصفرَّ — ومالت انوارها للزوالِ

أوهنَ الجهل قوةً لكِ كانت — فوهت بالخمول والانخذالِ

صرمت حبلكِ المعارف دهراً — فاستعيدي منها زمان الوصالِ

وانهضي نهضةً بشبان هذا الـ — ـعصر تُدني الى العلى والكمالِ

وأقيمي جمعيةً يتولى — شأنها كلُّ سيدٍ مفضالِ

ولها قائدٌ حكيمٌ اذا ما — هيَ شاءت يقودها للمعالي

وأجلّي يا مصرُ قدر كتابٍ — دون اقوالهِ عقود اللآلي

سوف تحيى ان كان فينا حياةٌ — فاهتدينا بأحكمِ الأمثالِ

ورخيصٌ قدر الكلام مع الجهل — ولكنهُ مع العلم غالِ

ايها الشرقيون هلاَّ رأيتم — أنَّ ابناءكم باسوإِ حالِ

هذّبوهم وعلّموهم وربّوهم — وكونوا لهم أجلَّ مثالِ

قبل ان تنفذ المطامع فيكم — قبل أن يُصبحوا بلا آمالِ

انتِ في حاجةٍ الى العلم يامصـ — ـرُ تجدّي اليهِ سير الرجالِ

واطلبيهِ بهمةٍ ليس فيها — أثرٌ للإمهال والإهمالِ

والبسي تاج قوة واتحادٍ — تشتهي الانتظام فيهِ اللآلي

وارفعي بعد ذاك راية مجدٍ — هيَ ان شئتِ راية استقلالِ

اصلاح خطاءٍ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	١٦	نرضخ	نذعن
١٠	١٩	الد ل	الدول
١١	٣	درعا	درعاً
١٤	١٠	جهاننا	لم نرعَ
١٤	١١	الندامة الكسعية	ندامة كسعيه
١٦	٩	الرفاه	الرفاهية
١٧	٢	النوادي	الاندية
١٩	١	نتعاهده	نتعهدهُ
١٩	١٦	بتربية	في تربية
٢٠	٦	تعيساً	تعساً
٢٠	٧	الرزائل	الرذائل
٢٠	١٠	الشفوق	الشفيق
٢١	١٥	على العمل	في العمل
٢٣	٦	نتعاهد	تكفل
٢٥	١٠	يافع	يافع
٢٥	١٦	ولاميالهِ	لاميالهِ
٢٦	٩	في محل	محل
٢٦	١٠	و	هو
٢٩	٨	ونعمن	وننعم
٢٩	١٠	بنا	فينا
٢٩	١٥	القائم	المخبوء
٣٠	١٠	بالحراثة	بالحرث
٣١	٤	النبي محمد	القرآن الشريف
٣١	٥	الاولاد	المال والبنون
٣٥	٩	بما	ما
٣٦	٤	على	في
٣٦	٥	شذراً	شزراً
٣٦	١٠	مقصياً	مقصى
٣٦	١٨	رفعنا	دفعنا
٣٧	٢	حدابي	حداني

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٧	١٦	خافٍ على	خافٍ عن
٣٨	١	استبدلت	أبدلت
٣٩	١٢	رفاه	رفاهة
٤٠	٧	الرضوخ	الانقياد
٤١	١	يبقي الاخلاق من الفساد	يقيان الاخلاق الفساد
٤٢	١	بغيار	غير
٤٦	١٩	يفتش على	يفتش عن
٥٠	١٥	المتجريّة	التجارية
٥٢	١٩	لنعدّد	نعدّد
٥٣	١٦	عليها	اياها
٥٤	١٩	والجزءا	والجزاء
٦٢	٣	ن	من
٦٣	١٦	انهزال	هزال
٦٦	١٥	الضيف	الضيق
٦٦	١٦	دقيقة	رقيقة
٧٦	٢	الهامّة	المهمة
٧٦	١٥	منتزه	متنزَّه
٧٩	١٧	عن	على
٨٣	٦	يسيّرون	يسيّران
٩٥	١٥	اللينفاويّة	اللنفاويّة
١٠١	١٧	قيلي	قيل
١٠٤	١٩	در	درءٌ
١١٥	١١	واهية	واهنة
١٢٥	١	حكم	حكماً
١٣١	١١	انكباب	إكباب
١٤٣	٨	سواءٌ	سواءُ
١٤٣	١٥	يتبادر	تبادر
١٤٧	١٣	الهة	إلاهة
١٤٧	١٧	انقصها	انقص
١٥٠	١٣	المتألف	المتآلفة
١٥٢	١٥	يعادلهُ	يعدلهُ
١٥٩	٨	احداها	احدها
١٦٠	٨	فهذا	فهذه
١٦٣	١	ألفتً	تلفتً
١٦٤	١٢	على ايراد	بايراد

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦٤	١٥	افي لاضرار	في الاضرار
١٦٥	١٩	الاشياء	في الاشياء
١٨٤	٤	الماء	المياه
١٨٧	١٦	الماء	المياه
١٨٧	١٧	على الاهمال	الاهمال
١٩٠	٢	الدهور	الادهار
١٩٧	٢	اذا	اذًا
١٩٨	١٣	مواجبهُ	فروضهُ
٢٠٤	١٧	ان	راية
٢٠٦	١٤	زناده	زنادها
٢١٣	١١	وشوونا	وشؤوننا
٢٢٤	١١	التحزبات المذهبية	التحزب المذهبي
٢٢٨	١٠	اوائل	اواخر
٢٢٨	١٠	الثامن	السابع
٢٢٩	٨		اقرأ بعد كلمة الايام «أمًا فاضلة»
٢٤٠	١٤	وثقفا	وثقفوا
٢٤٠	١٤	وفتحاهُ	وفتحوهُ
٢٦٤	١	ني	في
٢٦٤	٧	التي	المنشورة
٢٦٦	٨	الجس	الجسد
٢٦٧	١٣	مقارن	مقرون
٢٦٨	١٧	والتعظيم لها	وتعظيمها
٢٦٨	١٧	تستحق	يليق
٢٦٩	١	ذا	ذو
٢٨١	٣	راشدها	واشدها
٢٨١	١٧	بالعقلاء	العقلاء

وقد بقيت اغلاط وهفوات دعت اليها العجلة في تصنيف هذا الكتاب والاسراع في طبعه وهي لا تخفى على فطنة القارىء اللبيب فلذلك ضربنا صفحًا عن الاشارة اليها والله المسؤول ان يجعل خدمتنا نافعة ولهُ الحمد في المبدإ والختام

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة